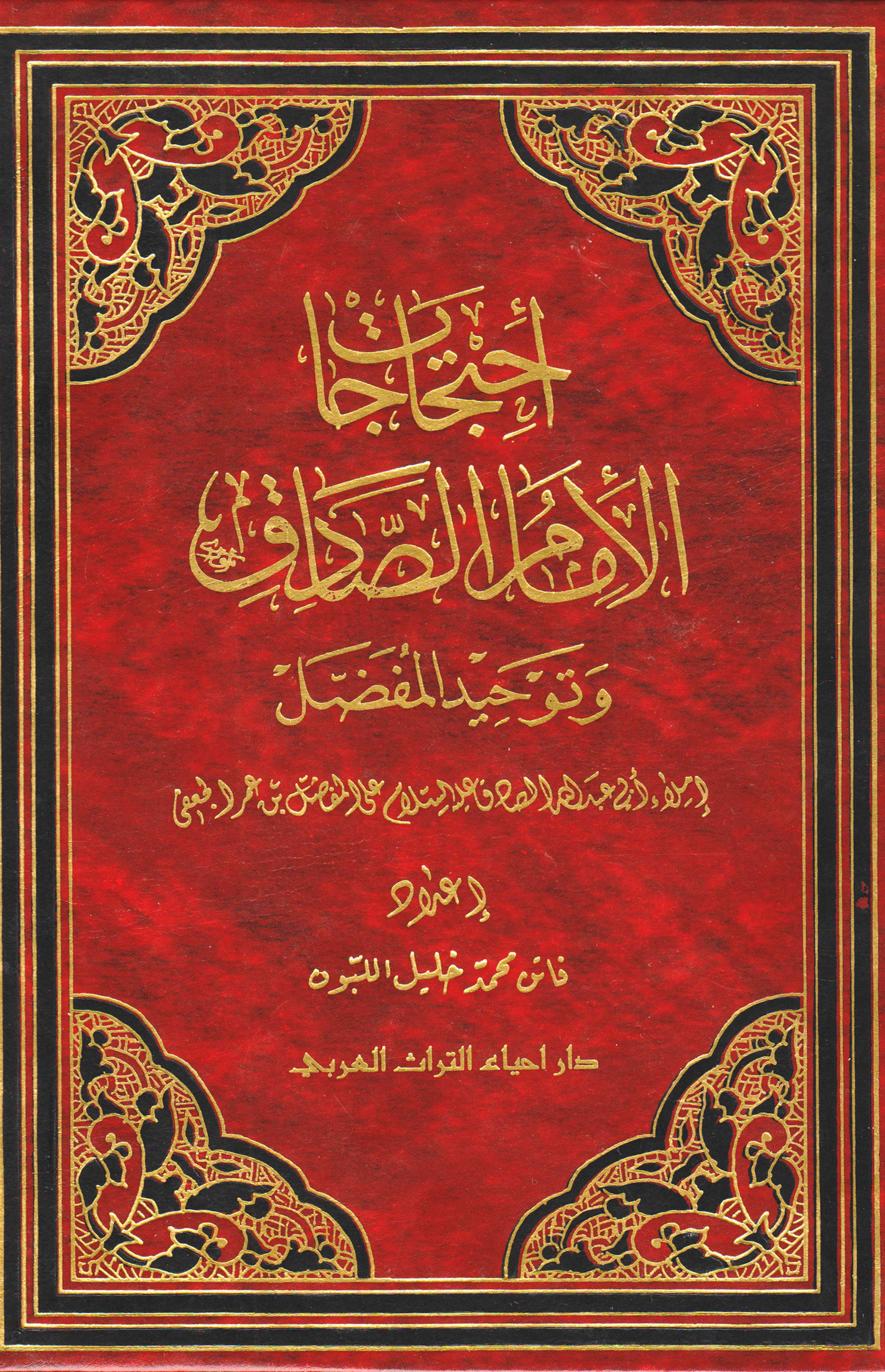
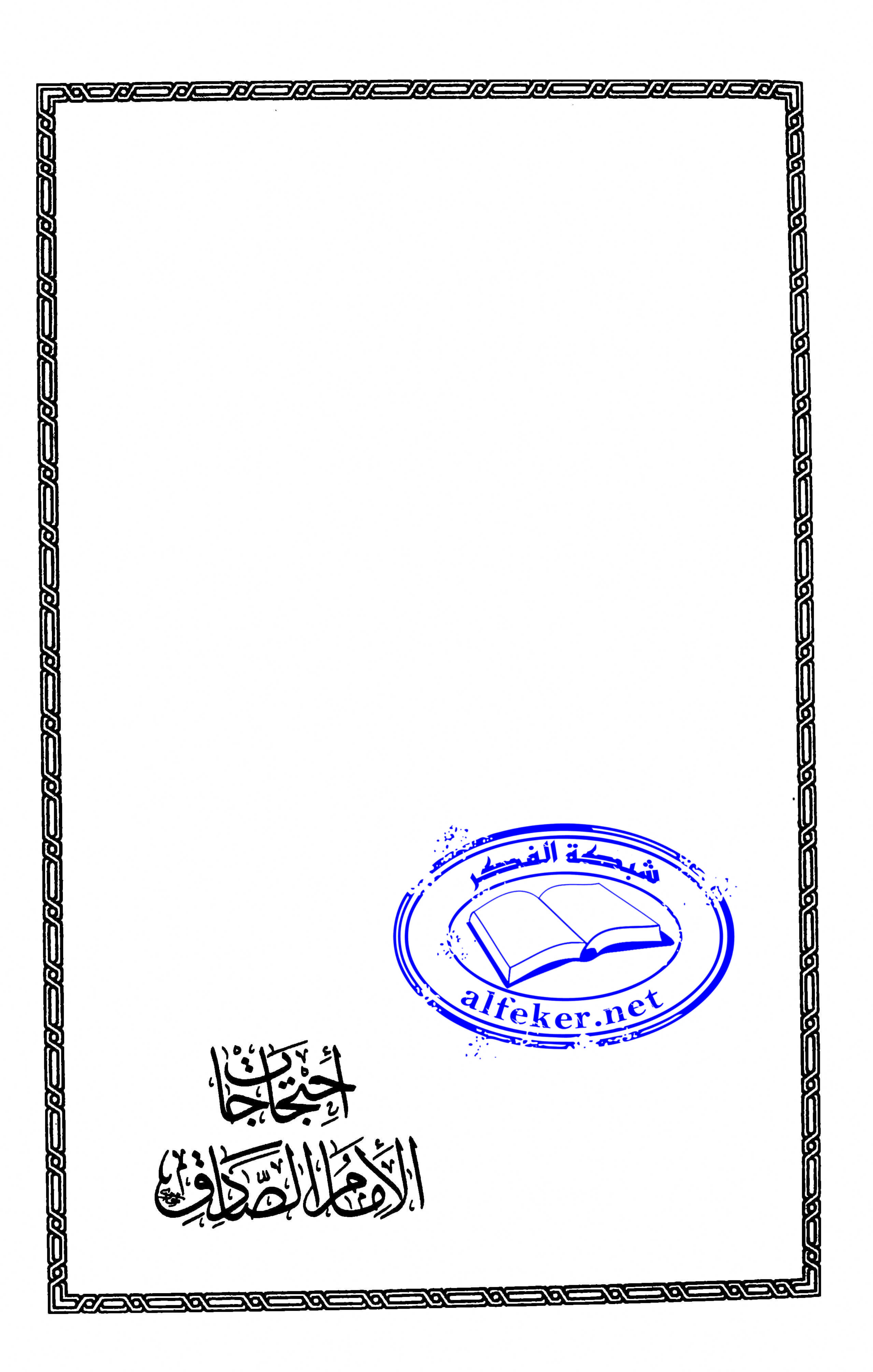
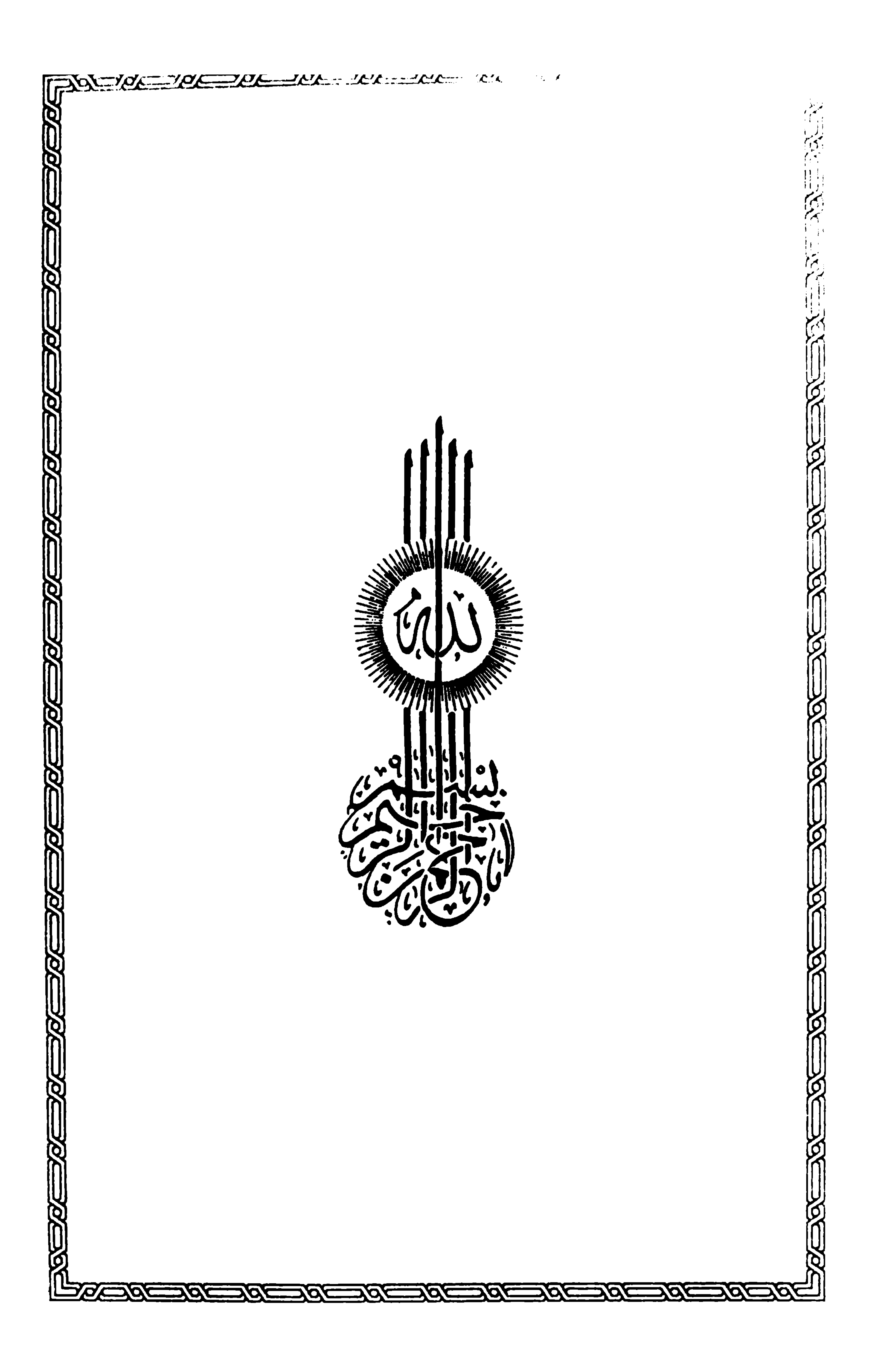

احتجاجات
الإمام الصادق
وتوحيد المفضل
إملاء أبي عبد الله الصادق عليه السلام على المفضل بن عمر الجعفي
إعداد
فائز محمد خليل اللبون
دار احياء التراث العربي


شبكة الفكر
alfeker.net
احتجاجات
الإمام الصادق عليه السلام


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

احتجاجات الإمام الصادق (عليه السلام)

وتوحيد المفضل

إملاء أبي عبد الله الصادق عليه السلام على المفضل بن عمر الجعفي

إعداد

فائز محمد خليل اللبون

دار احياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

مؤسسة التاريخ العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

THE ARABIC HISTORY
Publishing & Distributing

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف ٥٤٠٠٠٠ - ٥٤٤٤٤٠ فاكس ٨٥٠٧١٧ - ص.ب: ١١/٧٩٥٧
Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 544 440 - 540 000 Fax: 850 717 P.O.Box; 7957/11
E-mail:dareta@cyberia.net.lb

احتجاجات الإمام الصادق (ع)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب[(١)]

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين.

«إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض» الرسول الأكرم (ص).

وبعد، يسعدني أن نلتقي مع إمام من عترةِ أهل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه لنرتع في رياض علومه، وعلومه علوم آبائه وعلوم آبائه علوم رسول الله (ص) كما يقول: «حديثي أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث علي بن أبي طالب حديث رسول الله (ص) وحديث رسول الله

---

(١) انظر **«أعيان الشيعة»** سيرة الصادق (ع)، **«سيرة الأئمة الإثني عشر»** سيرة الصادق (ع) **«في رحاب أهل البيت»** سيرة الصادق (ع).

قول الله عز وجل».

هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

ولد عليه السلام سنة ٨٠ أو ٨٣ هـ حسب اختلاف الروايات، وتوفي سنة ١٤٩ هـ. فكانت مدة حياته حوالي ٦٨ سنة، أدرك فيها ملك هشام بن عبد الملك إلى آخر دولة بني أمية، وأدرك من دولة بني العباس ملك السفاح وعشر سنين من ملك المنصور.

عاش الإمام الصادق مع أبيه الباقر (ع) نحواً من خمسة وثلاثين عاماً أدرك منها في مطلع شبابه بوادر الانحلال الذي كان يهدد دولة الأمويين بالانهيار، وفي تلك الفترة وما تلاها من الفترات رافق تلك الحلقات العلمية التي كانت في مسجد المدينة وخارجه بإشراف أبيه الباقر (ع) وتتألف كما تؤكد المصادر الموثوقة من مئات الطلاب والعلماء من مختلف البلاد الإسلامية. وهو إلى جانب أبيه يلقنه من علوم الدين وأسرار الكون وغير ذلك مما ورثه عن آبائه عن النبي (ص).

وظل إلى جانب أبيه الباقر إلى آخر نفس من حياته ومدرسة الفقه والحديث والعلوم الإسلامية توالي

نشاطها في مختلف المواضيع فيما يخدم مصلحة الإسلام إلى أن وافته المنية سنة ١١٤ هجرية فاستقل الصادق بالزعامة الدينية والمسلمون يتطلعون إليه من كل الجهات، هذا والدولة الأموية تسير بخطى سريعة إلى الفناء، والانتفاضات الشعبية هنا وهناك تحقق الانتصار تلو الانتصار.

وكان الإمام الصادق أشهر أهل زمانه علماً وفضلاً، قال مالك بن أنس إمام المذهب: ما رأت عيني أو ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً وكان كثير الحديث طيب المجالسة كثير الفوائد.

وقال الحسن بن زياد: سمعت أبا حنيفة وقد سئل عن أفقه من رأيت، قال: جعفر بن محمد.

وقال ابن أبي ليلى: ما كنت تاركاً قولاً قلته أو قضاء قضيته لقول أحد إلا رجلاً واحداً هو جعفر بن محمد.

ولم يقل أحد سلوني قبل أن تفقدوني إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وولده جعفر بن محمد. روى الجنابذي في «**معالم العترة الطاهرة**» عن صالح بن

الأسود: سمعت جعفر بن محمد يقول: سلوني قبل أن تفقدوني فإنه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي. وكان عليه السلام يقول: حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث علي بن أبي طالب وحديث علي حديث رسول الله.

وقال فيه أبو حنيفة: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد، لقد قال لي المنصور: إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهيىء له من المسائل الشداد واسأله عنها، فهيأت له أربعين مسألة وكان المنصور في الحيرة قد أعد مجلساً حشد فيه الوجوه والأعيان وبعث إلي فدخل عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة له ما لم يدخلني من المنصور فسلمت عليه وجلست فقال لي المنصور: يا أبا حنيفة ألقِ على أبي عبد الله مسائلك فجعلت ألقي عليه مسألة مسألة وهو يقول في جوابها: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا فربما خالفنا وربما خالفهم وأحياناً يوافقنا أو يوافقهم حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخل منها بمسألة واحدة، وكان نتيجة المناظرة أن قال أبو حنيفة في ذلك الحشد

وبحضور المنصور الذي كان يترقب لأبي عبد الله الصادق (ع) ولو وقفة قصيرة عند بعض المسائل، كانت النتيجة أن قال أبو حنيفة: أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس، فأحس المنصور بالخيبة وتبددت آماله التي كان يرجوها من وراء هذه المناظرة، لقد كان يرجو أو يتمنى أن يتوقف الإمام الصادق (ع) ولو في مسألة من المسائل الأربعين التي أعدها له أبو حنيفة من بين المسائل الصعاب.

لقد كان المنصور يتمنى ذلك ليظهر للناس أن جعفر بن محمد كغيره من الفقهاء لا كما يراه شيعته وأصحابه وأكثر الناس فوق مستوى الجميع، فاستطاع الإمام عليه السلام أن يفرض نفسه على أبي حنيفة والمنصور وعلى الناس أجمعين.

وكان أبو حنيفة قد تتلمذ على الإمام الصادق نحواً من سنتين متصلتين حينما فر من حبس ابن أبي هبيرة والتجأ إلى الحجاز فأقام بها إلى أن ظهر أبو العباس السفاح وبهذه المناسبة كان أبو حنيفة يقول: لولا السنتان لهلك النعمان، والتقى به أكثر من مرة خلال سفراته إلى الحجاز.

وانتشر عنه من العلوم الجمة ما بهر به العقول، ولم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته ما نقل عنه ولا لقي أحداً منهم من أهل الآثار ونقلة الأخبار ولا نقلوا عنهم ما نقلوا عنه فقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنه من الثقات علي اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف رجل ذكرهم الحافظ بن عقدة الزيدي في كتاب رجاله وذكر مصنفاتهم فضلاً عن غيرهم، واستدرك ابن الغضائري على بن عقدة فزاد عليهم، وروى عنه راو واحد وهو إبان بن تغلب ثلاثين ألف حديث. وقال الحسن بن علي الوشا: أدركت في هذا المسجد ـ أي مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد. وبرز بتعليمه من الفقهاء والأفاضل جم غفير كزرارة بن أعين وأخويه بكر وحمران وجميل بن صالح وجميل بن دراج ومحمد بن مسلم الطائفي وبريد بن معاوية وهشام بن الحكم وهشام بن سالم وأبي بصير وعبيد الله ومحمد وعمران الحلبيين وعبد الله بن سنان وأبي الصباح الكناني وغيرهم من أعيان الفضلاء. ونقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعات غير هؤلاء الأربعة الآلاف من أعيان

الأئمة وأعلامهم مثل يحيى بن سعيد الأنصاري وابن جريح ومالك بن أنس والثوري وابن عيينة وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السختياتي وجابر بن حيان الكوفي وإبان بن تغلب وأبو عمرو بن العلاء وعمرو بن دينار وآخرين غيرهم، ومن غلمانه أبو يزيد البسطامي وإبراهيم بن أدهم ومالك بن دينار.

وقد روي عنه في التفسير الشيء الكثير وكذلك في علم الكلام ورد الدهرية وحسبك من التفسير الشيء الكثير وكذلك في علم الكلام ورد الدهرية وحسبك من ذلك بتوحيد المفضل. ودّون من أجوبة مسائله في الفقه وغيره كتب جمة وأخذت عنه مهمات علم أصول الفقه وكتب من أجوبة مسائله أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنِّف تعرف بالأصول الأربعمائة بالتفسير.

وفي الواقع، فقد ظهرت في الإمام الصادق (ع) آثار العلم أكثر من باقي الأئمة، وكلهم أعلم أهل زمانهم إلا أن الإمام عليه السلام عاش في عصر في فترة انفراج واسعة نسبياً كما ذكرنا في بداية المقدمة، بسبب الظرف الذي كان يشكل فترة انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين، فكان الأمويون في دور

الاحتضار والعباسيون في دور الانطلاق وتسلم الحكم، وخصوصاً أن العباسيين خرجوا بشعار (الرضا من آل محمد)، فكانوا يتستّرون بهذا الشعار ويندّدون بأخصام أهل البيت، وبما اقترفوه معهم خلال حكمهم، فكان من الطبيعي أن يوفّروا للإمام الصادق (ع) في تلك الفترة أسباب الهدوء والاستقرار وكف الأذى والإساءة عن الإمام أو منعه عن ممارسة نشاطه في الدعوة إلى الحق وتعريف الناس به.

وكان من مميزات عصر الإمام الصادق عليه السلام انتشار العلوم الإسلامية من التفسير والفقه والحديث وعلم الكلام والجدل والأنساب واللغة والشعر والأدب والكتابة والتأريخ وعلم النجوم، وكثرت الفرق التي انحرفت في تفكيرها واتجاهاتها عن الإسلام، وذلك بعد أن انتشر الإسلام يميناً وشمالاً بعد أن توالت الفتوحات، وتداخل في المجتمع الإسلامي أمم وشعوب ذات ثقافات متعددة، وحضارات ذوات ألوان من النزعات والاتجاهات الفكرية تجر من ورائها الإلحاد والزندقة.

فانصرف الإمام الصادق عليه السلام عن الخلافة

والسياسة ولم يشترك بما رافق انهيار حكم الأمويين من تلك الأحداث التي لم تسلم منها بقعة من بقاع الدولة الإسلامية في شرق الأرض وغربها، في حين أن الفئات المتصارعة التي برزت على المسرح سياسياً وعسكرياً يوم ذاك كانت تمني كل فئة منها أن ينحاز لجانبها لتتستر به في سبيل أهدافها ومصالحها، ولكنه آثر اعتزال تلك الأجواء المشحونة بالأحداث مغتنماً فرصة انصراف الحاكمين والطامعين إلى معالجة مشاكلهم التي ألهت البيتين الأموي والعباسي عنه وعن عامة العلويين الذين كانوا يتعرضون بين الحين والآخر للتنكيل والمطاردة وشتى صنوف التعذيب، آثر اعتزال كل ذلك إلى ما يعنيه من أمر الإسلام وشريعة الإسلام، واستطاع أن يحقق خلال سنوات معدودات من المكاسب لخير الإسلام وشريعة الإسلام ما لم يتهيأ لغيره أن يحققه فيما مضى وما سيأتي من بعده.

فقد اتجه بكل إمكانياته إلى الدعوة للدين ونشر تعاليمه وأحكامه والعمل بها ولم يترك باباً من أبواب العلم إلا ولج منه إليه وناظر الزنادقة والملحدين والمنحرفين في تفكيرهم واتجاهاتهم عن أصول

الإسلام وكانت له مع هؤلاء وهؤلاء جولات موفقة ناجحة أعادت الكثير منهم إلى مواقع الحق والصواب، وظلت دروسه في مختلف المواضيع غنية بالعطاء لكل من جاء بعده، ومرجعاً للمفكرين والعلماء في كل ما يتعسر عليهم حله.

وبدأ الإمام الصادق سلام الله عليه ثورته التثقيفية بين المسلمين بأساليب متعددة تختلف حسب اختلاف عقلية السائل أو المجادل، وقد أعطت هذه الثورة ثمارها، فقد بدأت المفاهيم الإسلامية تأخذ طريقها إلى الوضوح بسب ما أثير حولها من جدل وسؤال، وبدأت الحركة العلمية تزدهر وتنمو، وبدأ الجمود الذي سيطر على أذهان المسلمين يتلاشى تدريجياً، وكل ذلك بفضل الحركة التي أثارها الإمام الصادق عليه السلام في مجتمعه في تلك الفترة الانتقالية في شتى الجوانب والقضايا.

لذلك، فقد جمع هذا الكتاب ما كتبه علماؤنا الكبار كالشيخ المفيد في «**الإرشاد**»، والطبرسي في «**الاحتجاج**»، والكليني في «**الكافي**» والعلامة المجلسي في «**بحار الأنوار**» من مناظرات وأجوبة واحتجاجات

الإمام الصادق (ع) التي كان يختلف أسلوبه فيها فتارة تجد جوابه إقناعياً وتارة تجده جدلياً وتارة لدفع الوهم وكل ذلك حسب اختلاف عقلية السائل أو المجادل، كما أننا نلاحظ أنها في مختلف المجالات فأحياناً يناظر طبيباً، وطوراً يناظر عالماً بالفلك، وأحياناً أخرى في مسائل اعتقادية أو فقهية أو ما التبس على بعض المسلمين من فهم خاطىء لآيات القرآن، وأخرى ليفحم بها أصحاب الرأي والقياس، وهو في كل ذلك هدفه الوحيد كباقي الأئمة عليهم السلام كلٌ بحسب ظرفه نشر الدين الإسلامي الأصيل، والدفاع عن العقيدة الإسلامية، وإظهار تعاليم الإسلام، وتعريف الناس بأحقية أهل البيت (ع).

وأضفنا إلى الاحتجاجات والمناظرات الكتاب الذي أملاه الإمام الصادق (ع) على المفضل بن عمر الجعفي وهو كتاب «**توحيد المفضل**» لما فيه من المعاني العجيبة والأسرار الرفيعة والدقائق البديعة.

وأخيراً، هذا جهد متواضع قمت به خدمة لتراث أهل البيت (ع)، أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم لا ينفع

مال ولا بنون، وينفع به جميع المسلمين، وأن يكتب لنا دوام التوفيق والهداية بهدي آل الرسول صلوات الله عليهم أجمعين وأن يجعلنا معهم في الدنيا والآخرة، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

احتجاج الإمام الصادق (ع) على الزنادقة في حدوث العالم وفي التوحيد

روي عن هشام بن الحكم[١] أنه قال: من سؤال الزنديق الذي أتى أبا عبد الله (عليه السلام) أن قال: ما الدليل على صانع العالم؟

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): وجود الأفاعيل التي دلت على أنَّ صانعها صنعها ألا ترى أنك إذا نظرت

---

(١) هشام بن الحكم الكندي من أكابر أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق «ع»، وكان فقيهاً وروى حديثاً كثيراً وصحب أبا عبد الله «ع» وبعده أبا الحسن موسى «ع»، وكان يكنى أبا محمد وأبا الحكم وكان مولى بني شيبان وكان مقيماً بالكوفة وبلغ من مرتبته وعلوه عند أبي عبد الله «ع» أنه دخل عليه بمنى وهو غلام، وفي مجلسه شيوخ الشيعة فرفعه على جماعتهم وليس فيهم إلا من هو أكبر سناً منه فلما رأى الإمام الصادق «ع» أن ذلك الفعل كبر على أصحابه قال: هذا ناصرنا بيده ولسانه. ورويت له مدائح جليلة عن الإمامين «ع»، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب، وقال له الإمام الصادق مرة: يا هشام لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك.

إلى بناء مشيد مبني، علمت أنَّ له بانياً وإن كنت لم تر الباني، ولم تشاهده.

قال: فما هو؟

قال: هو شيء بخلاف الأشياء، ارجع بقولي شيء إلى إثباته، وأنه شيء بحقيقته الشيئية، غير أنه لا جسم، ولا صورة، ولا يحس، ولا يجس، ولا يدرك بالحواس الخمس، لا تدركه الأوهام، ولا تنقصه الدهور، ولا يغيره الزمان.

قال السائل: فإنا لم نجد موهوماً إلا مخلوقاً.

قال أبو عبد الله (عليه السلام): لو كان ذلك كما تقول، لكان التوحيد منا مرتفعاً لأنا لم نكلف أن نعتقد غير موهوم، لكنا نقول: كل موهوم بالحواس مدرك بها تحده الحواس ممثلاً، فهو مخلوق، ولا بد من إثبات كون صانع الأشياء خارجاً من الجهتين المذمومتين، إحداهما: النفي إذا كان النفي هو الإبطال والعدم. والجهة الثانية التشبيه بصفة المخلوق الظاهر التركيب والتأليف، فلم يكن بد من إثبات الصانع لوجود المصنوعين، والاضطرار منهم إليه، إنهم مصنوعون، وإن صانعهم غيرهم وليس مثلهم، إن كان مثلهم شبيهاً

بهم في ظاهر التركيب والتأليف، وفيما يجري عليهم من حدوثهم بعد أن لم يكونوا، وتنقلهم من صغر إلى كبر، وسواد إلى بياض وقوة إلى ضعف، وأحوال موجودة لا حاجة بنا إلى تفسيرها لثباتها ووجودها.

قال السائل: فأنت قد حددته إذ أثبتّ وجوده!

قال أبو عبد الله (عليه السلام): لم أحدده ولكني أثبته، إذ لم يكن بين الإثبات والنفي منزلة.

قال السائل: فقوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟

قال أبو عبد الله (عليه السلام): بذلك وصف نفسه، وكذلك هو مستوٍ على العرش بائن من خلقه، من غير أن يكون العرش محلاً له، لكنا نقول: هو حامل، وممسك للعرش، ونقول في ذلك ما قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فثبتنا من العرش والكرسي ما ثبته، ونفينا أن يكون العرش والكرسي حاوياً له، وأن يكون عز وجل محتاجاً إلى مكان، أو إلى شيء مما خلق، بل خلقه محتاجون إليه.

قال السائل: فما الفرق بين أن ترفعوا أيديكم إلى السماء وبين أن تخفضوها نحو الأرض؟

قال أبو عبد الله (عليه السلام): في علمه وإحاطته وقدرته سواء، ولكنه عز وجل أمر أولياءه وعباده برفع أيديهم إلى السماء نحو العرش، لأنه جعله معدن الرزق، فثبتنا ما ثبته القرآن والأخبار عن الرسول، حين قال: «ارفعوا أيديكم إلى الله عز وجل» وهذا تجمع عليه فرق الأمة كلها.

* * *

وعن هشام بن الحكم قال: دخل ابن أبي العوجاء[1] على الصادق عليه السلام فقال له الصادق (عليه السلام):

يا ابن أبي العوجاء! أنت مصنوع أم غير مصنوع؟ قال: لست بمصنوع.

فقال له الصادق: فلو كنت مصنوعاً كيف كنت؟ فلم يحر ابن أبي العوجاء جواباً، وقام وخرج.

---

(١) هو عبد الكريم بن أبي العوجاء ربيب حماد بن سلمة ومن تلامذة الحسن البصري. كان مانوياً يؤمن بالتناسخ، ويقول بالقدر، ويتخذ من شرح سيرة ماني وسيلة للدعوة، وتشكيك الناس في عقائدهم ويتحدث في التعديل والتجوير. وكان زنديقاً مشهوراً بذلك، وله مواقف كثيرة مع الإمام الصادق أفحمه الإمام في كل مرة.

قال: دخل أبو شاكر الديصاني ـ وهو زنديق ـ على أبي عبد الله وقال: يا جعفر بن محمّد دلني على معبودي!

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): اجلس! فإذا غلام صغير في كفه بيضة يلعب بها فقال أبو عبد الله: ناولني يا غلام البيضة! فناوله إياها، فقال أبو عبد الله: يا ديصاني هذا حصن مكنون، له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مايعة، وفضة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المايعة، فهي على حالها، لا يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن إصلاحها، ولا يدخل إليها داخل مفسد فيخبر عن إفسادها، لا يدرى للذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أترى له مدبراً؟

قال: فأطرق ملياً ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنك إمام وحجة من الله على خلقه، وأنا تائب مما كنت فيه.

* * *

وعن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن أسماءِ الله عز ذكره واشتقاقها، فقلت: الله، ممَّ هو مشتق؟

قال: يا هشام، الله: مشتق من إله، وإله يقتضي مألوهاً، والاسم غير المسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى، فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى، فقد كفر وعبد الاثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم، فذاك التوحيد أفهمت يا هشام.

قال: فقلت: زدني! فقال: إنّ لله تسعة وتسعين إسماً، فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها إلهاً، ولكن لله معنى يدل عليه فهذه الأسماء كلها غيره، يا هشام الخبز اسم للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحروق أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعداءنا، والمتخذين مع الله غيره؟ قلت: نعم.

قال: فقال: نفعك الله به، وثبتك!

قال هشام: فوالله ما قهرني أحد في علم التوحيد حتى قمت مقامي هذا.

* * *

عن هشام بن الحكم قال: كان زنديق بمصر يبلغه عن أبي عبد الله (عليه السلام) علم، فخرج إلى المدينة ليناظره فلم يصادفه بها، وقيل: هو بمكة، فخرج إلى مكة ونحن مع أبي عبد الله (عليه السلام). فانتهى إليه ـ وهو في الطواف ـ فدنا منه وسلَّم.

فقال له أبو عبد الله: ما اسمك؟ قال: عبد الملك.

قال: فما كنيتك؟ قال: أبو عبد الله.

قال أبو عبد الله (عليه السلام): فمن ذا الملك الذي أنت عبده، أمن ملوك الأرض أم من ملوك السماء؟ وأخبرني عن ابنك أعبد إلٰه السماء، أم عبد إله الأرض؟ فسكت. فقال أبو عبد الله (عليه السلام): قل! فسكت.

فقال: إذا فرغت من الطواف فائتنا، فلما فرغ أبو عبد الله (عليه السلام) من الطواف أتاه الزنديق، فقعد بين يديه ونحن مجتمعون عنده.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): أتعلم أنَّ للأرض تحتاً وفوقاً. فقال: نعم.

قال: فدخلت تحتها؟ قال: لا.

قال: فهل تدري ما تحتها؟ قال: لا أدري إلا أنّي أظن أن ليس تحتها شيء.

فقال أبو عبد الله: فالظن عجز ما لم تستيقن، ثم قال له: صعدت إلى السماء؟ قال: لا.

قال: أفتدري ما فيها؟ قال: لا.

قال: فأتيت المشرق والمغرب فنظرت ما خلفهما؟ قال: لا.

قال: فالعجب لك! لم تبلغ المشرق، ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل تحت الأرض، ولم تصعد إلى السماء، ولم تخبر ما هناك فتعرف ما خلفهنَّ، وأنت جاحد بما فيهنَّ، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟! فقال الزنديق: ما كلّمني بهذا غيرك.

قال أبو عبد الله (عليه السلام): فأنت من ذلك في شك، فلعل هو ولعل ليس هو. قال: ولعل ذلك.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل على العالم، يا أخا أهل مصر، تفهّم عني، أما ترى الشمس والقمر والليّل والنهار يلجان ولا يستبقان، يذهبان ويرجعان، قد اضطرا ليس لهما مكان إلا مكانهما، فإن

كانا يقدران على أن يذهبا فلِمَ يرجعان. وإن كانا غير مضطرين فلِمَ لا يصير اللّيل نهاراً والنهار ليلاً؟ اضطرا والله يا أخا أهل مصر.

إنَّ الذي تذهبون إليه وتظنون من الدهر، فإن كان هو يذهبهم، فلِمَ يردهم؟ وإن كان يردهم، فلِمَ يذهب بهم؟ أما ترى السماء مرفوعة، والأرض موضوعة، لا تسقط السماء على الأرض، ولا تنحدر الأرض فوق ما تحتها، أمسكها والله خالقها ومدبرها.

قال: فآمن الزنديق على يدي أبي عبد الله (عليه السلام) فقال: هشام خذه إليك وعلّمه.

* * *

من كتاب الغرر للسيّد المرتضى رضي الله عنه:
قيل: إنّ الجعد بن درهم[1] جعل في قارورة ماءً وتراباً فاستحال دوداً وهواماً فقال لأصحابه: أنا خلقت ذلك، لأنّي كنت سبب كونه، فبلغ ذلك جعفر بن محمّد عليه السلام فقال: ليقل: كم هي؟ وكم الذكران منه والإناث

---

(١) الجعد بن درهم: مبتدع ضال، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى، فقتل على ذلك بالعراق والقصة مشهورة، وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة.

إن كان خلقه؟ وكم وزن كلّ واحد منهنّ؟ وليأمر الذي سعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره، فانقطع وهرب.

ويروى أنّه لمّا جاء إلى أبي عبد الله عليه السلام قال له: ما اسمك؟ فلم يجبه، وأقبل عليه السلام على غيره، فانكفأ راجعاً إلى أصحابه، فقالوا: ما وراءك؟ قال: شرّ ابتدأني، فسألني عن اسمي، فإن كنت قلت: عبد الكريم فيقول: من هذا الكريم الذي أنت عبده؟ فإمّا أقرّ بمليك، وإمّا أظهر منّي ما أكتم، فقالوا: انصرف عنه، فلمّا انصرف قال عليه السلام: وأقبل ابن أبي العوجاء إلى أصحابه محجوجاً قد ظهر عليه ذلّة الغلبة فقال من قال منهم: إنَّ هذه للحجّة الدامغة، صدّق وإن لم يكن خيرٌ يرجى ولا شرّ يتقى فالناس شرعٌ سواء، وإن يكن منقلب إلى ثواب وعقاب فقد هلكنا؛ فقال ابن أبي العوجاء لأصحابه: أو ليس بابن الذين نكل بالخلق[1]، وأمر بالحلق، وشوّه عوراتهم، وفرَّق أموالهم، وحرّم نساءهم؟

---

(١) نكل به: صنع به صنيعاً يحذر غيره إذا رآه.

ومن سؤاله أن قال: ألا يجوز أن يكون صانع العالم أكثر من واحد؟

قال أبو عبد الله (عليه السلام): لا يخلو قولك إنَّهما اثنان من أن يكونا: قديمين قويين أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قوياً، والآخر ضعيفاً، فإن كانا قويين فلم لا يدفع كل واحد منهما صاحبه، ويتفرد بالربوبية، وإن زعمت أنَّ أحدهما قوي والآخر ضعيف، ثبت أنه واحد كما نقول، للعجز الظاهر في الثاني، وإن قلت: أنهما اثنان، لم يخل من أن يكونا متفقين من كلِّ جهة، أو مفترقين من كلّ جهة، فلما رأينا الخلق منتظمةً، والفلك جارياً، واختلاف اللَّيل والنهار والشمس والقمر، دلّ ذلك على صحة الأمر والتدبير، وائتلاف الأمر، وأنَّ المدبر واحد.

* * *

وروي أيضاً: أنَّ ابن أبي العوجاء سأل الصادق (عليه السلام) عن حدوث العالم فقال: ما وجدت صغيراً ولا كبيراً إلا إذا ضم إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال ولا حال، لأنَّ الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل،

فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأزل دخول في القدم، ولن يجتمع صفة الحدوث والقدم في شيء واحد.

قال ابن أبي العوجاء: هبك علمك في جري الحالتين والزمانين على ما ذكرت استدللت على حدوثها، فلو بقيت الأشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدل على حدوثها؟

فقال (عليه السلام): إنا نتكلم على هذا العالم الموضوع، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر كان لا شيء أدل على الحدث، ومن رفعنا إياه ووضعنا غيره، لكن أجيبك من حيث قدرت أن تلزمنا، فنقول: إنَّ الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنه متى ضم شيء منه إلى شيء منه كان أكبر، وفي جواز التغير عليه خروجه من القدم، كما أنَّ في تغيره دخوله في الحدث، وليس لك وراءَه شيء يا عبد الكريم.

مناظرته (ع) مع الزنديق في رؤية الله وفي صفات الله وفي مسائل متفرقة

عن يونس بن ظبيان قال: دخل رجل على أبي عبد الله (عليه السلام) قال: أرأيت الله حين عبدته؟

قال: ما كنت أعبد شيئاً لم أره.

قال: فكيف رأيته؟

قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقايق الإيمان لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه.

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال: إحاطة الوهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤] ليس يعني بصر العيون، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وليس يعني من أبصر نفسه ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤] ليس يعني عمي العيون، إنما عني: إحاطة الوهم ـ كما يقال: فلان بصير بالشعر

وفلان بصير بالفقه وفلان بصير بالدراهم وفلان بصير بالثياب ـ الله أعظم من أن يرى بالعين.

* * *

ومن سؤال الزنديق الذي سأل أبا عبد الله (عليه السلام) عن مسائل كثيرة أنه قال: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟

قال: رأته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف، ثم الرسل وآياتها والكتب ومحكماتها، اقتصرت العلماء على ما رأت من عظمته دون رؤيته.

قال: أليس هو قادر أن يظهر لهم حتى يروه فيعرفونه فيعبد على يقين؟ قال: ليس للمحال جواب.

قال: فمن أين أثبتَّ أنبياءً ورسلاً؟

قال (عليه السلام): إنا لما أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً، لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا أن يلامسوه ولا أن يباشرهم ويباشروه ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أنَّ له سفراء في خلقه وعباده يدلونهم على مصالحهم

ومنافعهم، وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، وثبت عند ذلك أنَّ له معبرون هم أنبياء الله وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين عنه، مشاركين للناس في أحوالهم على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب، مؤيدين من عند الحكيم العليم، بالحكمة والدلائل والبراهين والشواهد؛ من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص فلا تخلو الأرض من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقال الرسول ووجوب عدالته.

ثم قال (عليه السلام) ـ بعد ذلك ـ: نحن نزعم أنَّ الأرض لا تخلو من حجة، ولا تكون الحجة إلا من عقب الأنبياء، ما بعث الله نبياً قط من غير نسل الأنبياء، وذلك أنّ الله شرع لبني آدم طريقاً منيراً، وأخرج من آدم نسلاً طاهراً طيباً، أخرج منه الأنبياء والرسل، هم صفوة الله، وخلص الجوهر، طهروا في الأصلاب، وحفظوا في الأرحام، لم يصبهم سفاح الجاهلية، ولا شاب أنسابهم، لأنَّ الله عز وجل جعلهم في موضع لا يكون أعلى درجة وشرفاً منه، فمن كان خازن علم الله، وأمين غيبه ومستودع سره، وحجته على

خلقه، وترجمانه ولسانه، لا يكون إلا بهذه الصفة فالحجة لا يكون إلا من نسلهم، يقوم النبي «ص» في الخلق بالعلم الذي عنده وورثه عن الرسول، إن جحده الناس سكت، وكان بقاء ما عليه الناس قليلاً مما في أيديهم من علم الرسول على اختلافٍ منهم فيه، قد أقاموا بينهم الرأي والقياس وإنهم إن أقروا به وأطاعوه وأخذوا عنه، ظهر العدل، وذهب الاختلاف والتشاجر واستوى الأمر وأبان الدين، وغلب على الشك اليقين، ولا يكاد أن يقر الناس به ولا يطيعوا له أو يحفظوا له بعد فقد الرسول، وما مضى رسول ولا نبي قط لم تختلف أمته من بعده، وإنما كان علة اختلافهم على الحجة وتركهم إياه.

قال: فما يصنع بالحجة إذا كان بهذه الصفة؟

قال: قد يقتدى به ويخرج عنه الشيء بعد الشيء مكانه منفعة الخلق وصلاحهم، فإن أحدثوا في دين الله شيئاً أعلمهم وإن زادوا فيه أخبرهم، وإن نفذوا منه شيئاً أفادهم.

ثم قال الزنديق: من أي شيء خلق الله الأشياء؟

قال: لا من شيء.

فقال: كيف يجيء من لا شيء شيء؟

قال: (عليه السلام): إنَّ الأشياء لا تخلو إما أن تكون خلقت من شيء أو من غير شيء، فإن كان خلقت من شيء كان معه، فإنّ ذلك الشيء قديم، والقديم لا يكون حديثاً ولا يفنى ولا يتغير، ولا يخلو ذلك الشيء من أن يكون جوهراً واحداً ولوناً واحداً، فمن أين جاءَت هذه الألوان المختلفة، والجواهر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروب شتى؟ ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الذي أُنشئت منه الأشياء حياً؟! ومن أين جاءَت الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً؟! ولا يجوز أن يكون من حيٍّ وميت قديمين لم يزالا، لأنَّ الحي لا يجيء منه ميت وهو لم يزل حياً، ولا يجوز أيضاً أن يكون الميت قديماً لم يزل لما هو به من الموت، لأنَّ الميت لا قدرة له ولا بقاء.

قال: فمن أين قالوا إنَّ الأشياء أزلية؟

قال: هذه مقالة قوم جحدوا مدبر الأشياء فكذبوا الرسل، ومقالتهم، والأنبياء وما أنبأوا عنه، وسموا كتبهم أساطير، ووضعوا لأنفسهم ديناً بآرائهم واستحسانهم، إنَّ الأشياء تدل على حدوثها، من دوران

الفلك بما فيه، وهي سبعة أفلاك وتحرك الأرض ومن عليها وانقلاب الأزمنة، واختلاف الوقت، والحوادث التي تحدث في العالم؛ من زيادة ونقصان وموت وبلى واضطرار النفس إلى الإقرار بأنَّ لها صانعاً ومدبراً، ألا ترى الحلو يصير حامضاً، والعذب مراً، والجديد بالياً، وكل إلى تغير وفناء؟!

قال: فلم يزل صانع العالم عالماً بالأحداث التي أحدثها قبل أن يحدثها؟

قال: فلم يزل يعلم فخلق ما علم.

قال: أمختلف هو أم مؤتلف؟

قال: لا يليق به الاختلاف ولا الايتلاف، وإنما يختلف المتجزي، ويأتلف المتبعض، فلا يقال له: مؤتلف ولا مختلف.

قال: فكيف هو الله الواحد؟

قال: واحد في ذاته، فلا واحد كواحد، لأنّ ما سواه من الواحد متجزي وهو تبارك وتعالى واحد لا يتجزى، ولا يقع عليه العد.

قال: فلأي علة خلق الخلق وهو غير محتاج إليهم، ولا مضطر إلى خلقهم، ولا يليق به التعبث بنا؟

قال: خلقهم لإظهار حكمته وإنفاذ علمه وإمضاء تدبيره.

قال: وكيف لا يقتصر على هذه الدار فيجعلها دار ثوابه ومحتبس عقابه؟

قال: إنَّ هذه الدار دار ابتلاء، ومتجر الثواب ومكتسب الرحمة، ملئت آفات، وطبقت شهوات، ليختبر فيها عبيده بالطاعة، فلا يكون دار عمل دار جزاء.

قال: أفمن حكمته أن جعل لنفسه عدواً، وقد كان ولا عدو له، فخلق كما زعمت إبليس فسلّطه على عبيده يدعوهم إلى خلاف طاعته، ويأمرهم بمعصيته وجعل له من القوة كما زعمت ما يصل بلطف الحيلة إلى قلوبهم، فيوسوس إليهم فيشككهم في ربهم، ويلبس عليهم دينهم، فيزيلهم عن معرفته، حتى أنكر قوم لما وسوس إليهم ربوبيته وعبدوا سواه، فلِمَ سلط عدوه على عبيده، وجعل له السبيل إلى إغوائهم؟

قال: إنَّ هذا العدو الذي ذكرت لا تضره عداوته، ولا تنفعه ولايته. وعداوته لا تنقص من ملكه شيئاً، وولايته لا تزيد فيه شيئاً، وإنما يتقى العدو إذا

كان في قوة يضر وينفع، إن هم بملك أخذه، أو بسلطان قهره، فأما إبليس فعبد، خلقه ليعبده ويوحده، وقد علم حين خلقه ما هو وإلى ما يصير إليه، فلم يزل يعبده مع ملائكته حتى امتحنه بسجود آدم، فامتنع من ذلك حسداً، وشقاوة غلبت عليه فلعنه عند ذلك، وأخرجه عن صفوف الملائكة، وأنزله إلى الأرض ملعوناً مدحوراً فصار عدو آدم وولده بذلك السبب، ماله من السلطة على ولده إلا الوسوسة[1]، والدعاء إلى غير السبيل، وقد أقر مع معصيته لربه بربوبيته[2].

قال: أفيصلح السجود لغير الله؟ قال: لا.

قال: فكيف أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟

قال: إنَّ من سجد بأمر الله سجد لله إذا كان عن أمر الله.

قال: فمن أين أصل الكهانة، ومن أين يخبر الناس بما يحدث؟

---

(١) وهذا مصداق الآية الكريمة: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

(٢) وذلك عندما قال إبليس لله تعالى: ﴿رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض﴾ [الحجر: ٣٩].

قال: إنَّ الكهانة كانت في الجاهلية، في كل حين فترة من الرسل، كان الكاهن بمنزلة الحاكم يحتكمون إليه فيما يشتبه عليهم من الأمور بينهم، فيخبرهم عن أشياء تحدث، وذلك من وجوه شتى: فراسة العين، وذكاء القلب، ووسوسة النفس، وفتنة الروح، مع قذف في قلبه، لأنَّ ما يحدث في الأرض من الحوادث الظاهرة، فذلك يعلم الشيطان ويؤديه إلى الكاهن، ويخبره بما يحدث في المنازل والأطراف.

وأما أخبار السماء: فإنَّ الشياطين كانت تقعد مقاعد استراق السمع[١] إذ ذاك، وهي لا تحجب، ولا ترجم بالنجوم، وإنما منعت من استراق السمع لئلا يقع في الأرض سبب تشاكل الوحي من خبر السماء، فيلبس على أهل لأرض ما جاءَهم عن الله، لإثبات الحجة، ونفي الشبهة. وكان الشيطان يسترق الكلمة الواحدة من خبر السماء بما يحدث من الله في خلقه، فيختطفها، ثم يهبط بها إلى الأرض، فيقذفها إلى الكاهن، فإذا قد زاد كلمات من عنده، فيخلط الحق بالباطل، فما أصاب

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ [الجن: ٩].

الكاهن من خبر مما كان يخبر به، فهو ما أداه إليه الشيطان لما سمعه، وما أخطأ فيه، فهو من باطل ما زاد فيه، فمنذ منعت الشياطين عن استراق السمع انقطعت الكهانة، واليوم إنما تؤدي الشياطين إلى كهانها أخباراً للناس بما يتحدثون به، وما يحدثونه، والشياطين تؤدي إلى الشياطين، ما يحدث في البعد من الحوادث من سارق سرق، ومن قاتل قتل، ومن غائب غاب، وهم بمنزلة الناس أيضاً، صدوق وكذوب.

قال: وكيف صعدت الشياطين إلى السماء، وهم أمثال الناس في الخلقة والكثافة وقد كانوا يبنون لسليمان بن داوود (عليه السلام) من البناء ما يعجز عنه ولد آدم؟

قال: غلظوا لسليمان كما سخّروا وهم خلق رقيق، غذاؤهم النسيم، والدليل على كل ذلك صعودهم إلى السماء لاستراق السمع، ولا يقدر الجسم الكثيف على الارتقاء إليها [إلا] بسلّم أو بسبب[١].

---

(١) وذلك يستفاد من قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السمٰوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ [الرحمٰن: ٣٣].

قال: فأخبرني عن السحر ما أصله؟ وكيف يقدر الساحر على ما يوصف من عجائبه، وما يفعل؟

قال: إنَّ السحر على وجوه شتى، وجه منها: بمنزلة الطب، كما أنَّ الأطباء وضعوا لكل داء دواء، فكذلك علم السحر، احتالوا لكل صحة آفة، ولكل عافية عاهة، ولكل معنى حيلة.

ونوع آخر منه: خطفة وسرعة ومخاريق وخفة[١] ونوع آخر: ما يأخذ أولياء الشياطين عنهم.

قال: فمن أين علم الشياطين السحر؟

قال: من حيث عرف الأطباء الطب، بعضه تجربة وبعضه علاج.

قال: فما تقول في الملكين هاروت وماروت؟ وما يقول الناس بأنهما يعلّمان الناس السحر؟

قال: إنهما موضع ابتلاء وموقع فتنة، تسبيحهما: اليوم لو فعل الإنسان كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولو

---

(١) الخطفة: الاختلاس والاستلاب بسرعة. الخفة: ضد الثقل في العمل وغيره.

يعالج بكذا وكذا لكان كذا، أصناف السحر فيتعلمون منهما ما يخرج عنهما، فيقولان لهم: إنما نحن فتنة فلا تأخذوا عنا ما يضركم ولا ينفعكم.

قال: أفيقدر الساحر أن يجعل الإنسان بسحره في صورة الكلب أو الحمار أو غير ذلك؟

قال: هو أعجز من ذلك، وأضعف من أن يغيِّر خلق الله، إنَّ من أبطل ما ركَّبه الله وصوَّره وغيَّره فهو شريك الله في خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لو قدر الساحر على ما وصفت لدفع عن نفسه الهرم والآفة والأمراض، ولنفى البياض عن رأسه والفقر عن ساحته، وإنَّ من أكبر السحر النميمة، يفرق بها بين المتحابين، ويجلب العداوة على المتصافيين، ويسفك بها الدماء، ويهدم بها الدور ويكشف بها الستور، والنمام أشرّ من وطىء الأرض بقدم، فأقرب أقاويل السحر من الصواب أنه بمنزلة الطب، إنَّ الساحر عالج الرجل فامتنع من مجامعة النساء فجاء الطبيب فعالجه بغير ذلك العلاج، فأبرىء.

قال: فما بال ولد آدم فيهم شريف ووضيع؟ قال: الشريف المطيع، والوضيع العاصي.

قال: أليس فيهم فاضل ومفضول؟ قال: إنما يتفاضلون بالتقوى[١].

قال: فتقول إنَّ ولد آدم كلهم سواء في الأصل لا يتفاضلون إلا بالتقوى؟

قال: نعم. إنِّي وجدت أصل الخلق التراب، والأب آدم والأم حواء، خلقهم إله واحد، وهم عبيده، إنَّ الله عز وجل اختار من ولد آدم أناساً طهر ميلادهم، وطيَّب أبدانهم، وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء والرسل، فهم أزكى فروع آدم، فعل ذلك لأمر استحقوه من الله عز وجل ولكن علم الله منهم ـ حين ذرأهم ـ أنَّهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب، وساير الناس سواء إلا من اتقى الله أكرمه، ومن أطاعه أحبه، ومن أحبه لم يعذبه بالنار!!

قال: فأخبرني عن الله عز وجل كيف لم يخلق الخلق كلهم مطيعين موحدين وكان على ذلك قادراً؟

---

(١) كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣].

قال (عليه السلام): لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب، لأنَّ الطاعة إذا ما كانت فعلهم لم يكن جنة ولا نار، ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته واحتج عليهم برسله وقطع عذرهم بكتبه، ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون ويستوجبون بطاعتهم له الثواب وبمعصيتهم إياه العقاب.

قال: فالعمل الصالح من العبد هو فعله، والعمل الشر من العبد هو فعله؟

قال: العمل الصالح من العبد بفعله والله به أمره، والعمل الشر من العبد بفعله والله عنه نهاه.

قال: أليس فعله بالآلة التي ركبها فيه؟

قال: نعم. ولكن بالآلة التي عمل بها الخير قدر على الشر الذي نهاه عنه.

قال: فإلى العبد من الأمر شيء؟

قال: ما نهاه الله عن شيء إلا وقد علم أنه يطيق تركه، ولا أمره بشيء إلا وقد علم أنه يستطيع فعله، لأنه ليس من صفته الجور والعبث والظلم وتكليف العباد ما لا يطيقون.

قال: فمن خلقه الله كافراً أيستطيع الإيمان وله عليه بتركه الإيمان حجة؟

قال (عليه السلام): إنَّ الله خلق خلقه جميعاً مسلمين[١]، أمرهم ونهاهم، والكفر اسم يلحق الفعل حين يفعله العبد، ولم يخلق الله العبد حين خلقه كافراً، إنه إنما كفر من بعد أن بلغ وقتاً لزمته الحجة من الله، فعرض عليه الحق فجحده فبإنكاره الحق صار كافراً.

قال: أفيجوز أن يقدر على العبد الشرّ، ويأمره بالخير وهو لا يستطيع الخير أن يعلمه، ويعذبه عليه؟

قال (عليه السلام): إنه لا يليق بعدل الله ورأفته أن يقدر على العبد الشر ويريده منه، ثم يأمره بما يعلم أنه لا يستطيع أخذه، والإنزاع عما لا يقدر على تركه، ثم يعذبه على أمره الذي علم أنه لا يستطيع أخذه.

قال: بماذا استحق الذين أغناهم وأوسع عليهم من رزقه الغناء والسعة، وبماذا استحق الفقير التقتير

---

(١) أي كانوا في أصل خلقتهم وطبيعتهم الأولى منقادين لما يأمر وينهى، حيث لم تكن نفوسهم متصفة لما يستدعي الخلاف والطغيان، بل كانوا على فطرة الله التي فطر الناس عليها.

والتضييق؟

قال (عليه السلام): اختبر الأغنياء بما أعطاهم لينظر كيف شكرهم، والفقراء بما منعهم لينظر كيف صبرهم.

ووجه آخر: إنه عجل لقوم في حياتهم، ولقوم آخر ليوم حاجتهم إليه.

ووجه آخر: فإنه علم احتمال كل قوم فأعطاهم على قدر احتمالهم ولو كان الخلق كلهم أغنياء لخربت الدنيا وفسد التدبير، وصار أهلها إلى الفناء ولكن جعل بعضهم لبعض عوناً، وجعل أسباب أرزاقهم في ضروب الأعمال وأنواع الصناعات، وذلك أدوم في البقاء وأصح في التدبير، ثم اختبر الأغنياء بالاستعطاف على الفقراء، كل ذلك لطف ورحمة من الحكيم الذي لا يعاب تدبيره.

قال: فيم استحق الطفل الصغير ما يصيبه من الأوجاع والأمراض بلا ذنب عمله، ولا جرم سلف منه؟

قال: إنَّ المرض على وجوه شتى: مرض بلوى ومرض عقوبة، ومرض جعل علة للفناء، وأنت تزعم أنَّ

ذلك من أغذية ودية، وأشربة وبية[١]، أو من علة كانت بأمه، وتزعم أنَّ من أحسن السياسة لبدنه، وأجمل النظر في أحوال نفسه وعرف الضار مما يأكل من النافع لم يمرض، وتميل في قولك إلى من يزعم أنه لا يكون المرض والموت إلا من المطعم والمشرب! قد مات أرسطاليس معلم الأطباء وأفلاطون رئيس الحكماء، وجالينوس شاخ ودق بصره وما دفع الموت حين نزل بساحته، ولم يألوا حفظ أنفسهم، والنظر لما يوافقها، كم مريضاً قد زاده المعالج سقماً، وكم من طبيب عالم، بالأدواء والأدوية ماهر، مات وعاش الجاهل بالطب بعده زماناً، فلا ذاك نفعه علمه بطبه عند انقطاع مدته وحضور أجله، ولا هذا ضره الجهل بالطب مع بقاء المدة وتأخر الأجل.

ثم قال (عليه السلام): إنَّ أكثر الأطباء قالوا: إنَّ علم

---

(١) أي ما كثر فيه الوباء، والوباء كل مرض عام، وفي الحديث دلالة أن جرثوم الوباء وميكروبه يكون في المياه، كما يستفاد ذلك أيضاً من دعاء الإمام السجاد «ع» في الدعاء السابع والعشرين من الصحيفة السجادية: وامزج مياههم بالوباء، وأطعمتهم بالأدواء.

الطب لم تعرفه الأنبياء، فما نصنع على قياس قولهم بعلم زعموا ليس تعرفه الأنبياء الذين كانوا حجج الله على خلقه، وأمناءَه في أرضه، وخزان علمه، وورثة حكمته، والأدلاء عليه، والدعاة إلى طاعته؟

ثم إنِّي وجدت أنَّ أكثرهم يتنكب في مذهبه سبل الأنبياء ويكذب الكتب المنزلة عليهم من الله تبارك وتعالى، فهذا الذي أزهدني في طلبه وحامليه.

قال: فكيف تزهد في قوم وأنت مؤدبهم وكبيرهم؟

قال (عليه السلام): إنِّي رأيت الرجل الماهر في طبّه إذا سألته لم يقف على حدود نفسه وتأليف بدنه وتركيب أعضائه ومجري الأغذية في جوارحه، ومخرج نفسه وحركة لسانه، ومستقر كلامه ونور بصره وانتشار ذكره، واختلاف شهواته وانسكاب عبراته، ومجمع سمعه وموضع عقله، ومسكن روحه ومخرج عطسته، وهيج غمومه وأسباب سروره، وعلة ما حدث فيه من بكم وصمم وغير ذلك، لم يكن عندهم في ذلك أكثر من أقاويل استحسنوها، وعلل فيما بينهم جوّزوها.

قال: فأخبرني عن الله ألهُ شريك في ملكه، أو

مضاد له في تدبيره؟

قال (عليه السلام): لا .

قال: فما هذا الفساد الموجود في العالم: من سباع ضارية، وهوام مخوفة وخلق كثير مشوهة، ودود وبعوض وحيات وعقارب وزعمت أنه لا يخلق شيئاً إلا لعلة، لأنه لا يعبث[١]؟!

قال (عليه السلام): ألست تزعم أنَّ العقارب تنفع من وجع المثانة والحصاة، ولمن يبول في الفراش، وأنَّ أفضل الترياق ما عولج من لحوم الأفاعي، فإنَّ لحومها إذا أكلها المجذوم بشب[٢] نفعه، وتزعم أنَّ الدود الأحمر الذي يصاب تحت الأرض نافع للآكلة؟ قال: نعم.

---

(١) هذا من الأبحاث العميقة التي كانت متداولة بين الحكماء الأقدمين من أن الشرور كيف تصدر عن الحكيم؟ فبعضهم أجابوا عنها، وبعضهم كالثنوية ذهبوا إلى تعدد خالق الخيرات والشرور وقد أجاب عنها الإمام بأجوبة متينة تحل به عقد الإشكال.

(٢) الشب: ملح معدني قابض، لونه أبيض ومنه أزرق وهو أشبه بالزاج. شب الليل: نبات.

قال (عليه السلام): فأما البعوض والبق فبعض سببه أنه جعله أرزاق الطير، وأهان بها جباراً تمرَّد على الله وتجبر، وأنكر ربوبيته، فسلّط الله عليه أضعف خلقه ليريه قدرته وعظمته، وهي البعوض، فدخلت في منخره حتى وصلت إلى دماغه فقتلته واعلم أنا لو وقفنا على كلّ شيء خلقه الله تعالى لم خلقه؟ ولأي شيء أنشأه؟ لكنا قد ساويناه في علمه وعلمنا كلّ ما يعلم واستغنينا عنه، وكنا وهو في العلم سواء.

قال: فأخبرني هل يعاب شيء من خلق الله وتدبيره؟

قال (عليه السلام): لا.

قال: فإنَّ الله خلق خلقه عزَّلاً، أذلك منه حكمة أم عبث؟

قال (عليه السلام): بل منه حكمة.

قال: غيرتم خلق الله، وجعلتم فعلكم في قطع الغلفة أصوب مما خلق الله لها، وعبتم الأغلف[1] والله خلقه، ومدحتم الختان وهو فعلكم. أم تقولون إنَّ ذلك

---

(١) الأغلف: الذي لم يختتن.

من الله كان خطأ غير حكمة؟!

قال (عليه السلام): ذلك من الله حكمة وصواب، غير أنه سنَّ ذلك وأوجبه على خلقه، كما أنّ المولود إذا خرج من بطن أُمه وجدنا سرته متصلة بسرة أمه كذلك خلقها الحكيم فأمر العباد بقطعها، وفي تركها فساد بيِّن للمولود والأم وكذلك أظفار الإنسان، أمر إذا طالت أن تقلم، وكان قادراً يوم دبر خلق الإنسان أن يخلقها خلقة لا تطول، وكذلك الشعر من الشارب والرأس يطول فيجز وكذلك الثيران خلقها الله فحولة وإخصاؤها أوفق، وليس في ذلك عيب في تقدير الله عز وجل.

قال: ألست تقول: يقول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] وقد نرى المضطر يدعوه فلا يجاب له، والمظلوم يستنصره على عدوه فلا ينصره؟

قال: ويحك! ما يدعوه أحد إلا استجاب له، أما الظالم: فدعاؤه مردود إلى أن يتوب إليه، وأما المحق: فإنه إذا دعاه استجاب له، وصرف عنه البلاء من حيث لا يعلمه، أو ادخر له ثواباً جزيلاً ليوم حاجته إليه، وإن لم يكن الأمر الذي سأل العبد خيراً له إن أعطاه أمسك عنه، والمؤمن العارف بالله ربما عز عليه أن يدعوه فيما

لا يدري أصواب ذلك أم خطأ، وقد يسأل العبد ربه هلاك من لم ينقطع مدته أو يسأل المطر وقتاً ولعله أوان لا يصلح فيه المطر، لأنه أعرف بتدبير ما خلق من خلقه، وأشباه ذلك كثيرة فافهم هذا.

قال: أخبرني أيها الحكيم، ما بال السماء لا ينزل منها إلى الأرض أحد ولا يصعد من الأرض إليها بشر، ولا طريق إليها، ولا مسلك، فلو نظر العباد في كل دهر مرة من يصعد إليها وينزل، لكان ذلك أثبت في الربوبية وأنفى للشك وأقوى لليقين، وأجدر أن يعلم العباد أنَّ هناك مدبراً إليه يصعد الصاعد ومن عنده يهبط الهابط؟!

قال (عليه السلام): إنَّ كل ما ترى في الأرض من التدبير إنما هو ينزل من السماء، ومنها يظهر، أما ترى الشمس منها تطلع، وهي نور النهار، وفيها قوام الدنيا، ولو حبست حار من عليها وهلك، والقمر منها يطلع، وهو نور الليل، وبه يعلم عدد السنين والحساب، والشهور والأيام، ولو حبس لحار من عليها وفسد التدبير، وفي السماء النجوم التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ومن السماء ينزل الغيث الذي فيه حياة كل شيء؛ من

الزرع والنبات والأنعام، وكل الخلق لو حبس عنهم لما عاشوا، والريح لو حبست لفسدت الأشياء جميعاً وتغيرت، ثم الغيم والرعد والبرق والصواعق، كل ذلك إنما هو دليل على أنَّ هناك مدبراً يدبر كل شيء ومن عنده ينزل، وقد كلم الله موسى وناجاه، ورفع الله عيسى ابن مريم والملائكة تنزل من عنده، غير أنك لا تؤمن بما لم تره بعينك، وفيما تراه بعينك كفاية إن تفهم وتعقل.

قال: فلو أنَّ الله رد إلينا من الأموات في كل مائة عام واحداً لنسأله عمن مضى منا. إلى ما صاروا وكيف حالهم، وماذا لقوا بعد الموت. وأي شيء صنع بهم، لعمل الناس على اليقين، واضمحل الشك، وذهب الغل عن القلوب.

قال: إنَّ هذه مقالة من أنكر الرسل وكذبهم، ولم يصدق بما جاءوا به من عند الله، إذ أخبروا وقالوا: إنَّ الله أخبر في كتابه عز وجل على لسان أنبيائه، حال من مات منا، أفيكون أحد أصدق من الله قولاً ومن رسله.

وقد رجع إلى الدنيا مما مات خلق كثير، منهم (أصحاب الكهف) أماتهم الله ثلاثمائة عام وتسعة، ثم

بعثهم في زمان قوم أنكروا البعث، ليقطع حجتهم، وليريهم قدرته وليعلموا أنَّ البعث حق.

وأمات الله (أرمياء)[1] النبي (عليه السلام) الذي نظر إلى خراب بيت المقدس وما حوله حين غزاهم بخت نصر وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ثم أحياه ونظر إلى أعضائه كيف تلتئم، وكيف تلبس اللحم، وإلى مفاصله وعروقه كيف توصل، فلما استوى قاعداً قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وأحيا الله قوماً خرجوا عن أوطانهم هاربين من الطاعون لا يحصى عددهم، وأماتهم الله دهراً طويلاً حتى بليت عظامهم، وتقطعت أوصالهم وصاروا تراباً، بعث الله في وقت أحبَّ أن يري خلقه قدرته نبياً يقال له: «حزقيل» فدعاهم فاجتمعت أبدانهم، ورجعت فيها أرواحهم، وقاموا كهيئة يوم ماتوا، لا يفقدون من

---

(١) قال الطبرسي في «البيان» في تفسير قوله تعالى: ﴿أو كالذي مر على قرية﴾، هو عزير، عن قتادة وعكرمة والسدي وهو المروي عن أبي عبد الله «ع»، وقيل: هو أرميا بن وهب، وهو المروي عن أبي جعفر «ع» وقيل: هو الخضر.

أعدادهم رجلاً، فعاشوا بعد ذلك دهراً طويلاً.

وإنَّ الله أمات قوماً خرجوا مع موسى (عليه السلام) حين توجه إلى الله فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فأماتهم الله ثم أحياهم.

قال: فأخبرني عمن قال بتناسخ الأرواح من أي شيء قالوا ذلك، وبأيّ حجة قاموا على مذاهبهم؟

قال (عليه السلام): إنَّ أصحاب التناسخ قد خلفوا وراءهم منهاج الدين، وزينوا لأنفسهم الضلالات، وأمرجوا[1] أنفسهم في الشهوات وزعموا أنَّ السماء خاوية ما فيها شيء مما يوصف، وأنَّ مدبر هذا العالم في صورة المخلوقين، بحجة من روى أنَّ الله عز وجل خلق آدم على صورته، وأنه لا جنة ولا نار، ولا بعث ولا نشور، والقيامة عندهم خروج الروح من قالبه وولوجه في قالب آخر، فإن كان محسناً في القالب الأول أعيد في قالب أفضل منه حسناً في أعلى درجة من الدنيا، وإن كان مسيئاً أو غير عارف صار في بعض الدواب المتعبة في الدنيا، أو هوام مشوهة الخلقة وليس عليهم صوم ولا صلاة، ولا شيء من العبادة أكثر من

---

(١) أمرجوا: تركوها تذهب حيث تشاء.

معرفة من تجب عليهم معرفته وكل شيء من شهوات الدنيا مباح لهم؛ من فروج النساء وغير ذلك من الأخوات والبنات والخالات وذوات البعولة.

وكذلك الميتة، والخمر، والدم، فاستقبح مقالتهم كل الفرق، ولعنهم كل الأمم، فلما سئلوا الحجة زاغوا وحادوا، فكذب مقالتهم التوراة، ولعنهم الفرقان، وزعموا مع ذلك أنَّ إلٰههم ينتقل من قالب إلى قالب، وأنَّ الأرواح الأزلية هي التي كانت في آدم، ثم هلم جراً تجري إلى يومنا هذا في واحد بعد آخر، فإذا كان الخالق في صورة المخلوق فبما يستدل على أنَّ أحدهما خالق صاحبه؟!

وقالوا: إنَّ الملائكة من ولد آدم كل من صار في أعلى درجة من دينهم خرج من منزلة الامتحان والتصفية فهو ملك، فطوراً تخالهم نصارى في أشياء، وطوراً دهرية يقولون: إنَّ الأشياء على غير الحقيقة، فقد كان يجب عليهم أن لا يأكلوا شيئاً من اللحمان، لأنَّ الذرات عندهم كلها من ولد آدم حولوا من صورهم، فلا يجوز أكل لحوم القربات.

قال: ومن زعم أنَّ الله لم يزل ومعه طينة موذية،

فلم يستطع التفصي منها إلا بامتزاجه بها ودخوله فيها، فمن تلك الطينة خلق الأشياء!!

قال (عليه السلام): سبحان الله تعالى!! ما أعجز إلٰهاً يوصف بالقدرة، لا يستطيع التفصي[1] من الطينة! إن كانت الطينة حية أزلية، فكانا إلٰهين قديمين فامتزجا ودبرا العالم من أنفسهم، فإن كان ذلك كذلك، فمن أين جاء الموت والفناء؟ وإن كانت الطينة ميتة فلا بقاء للميت مع الأزلي القديم، والميت لا يجيء منه حي.

وهذه مقالة الديصانية، أشد الزنادقة قولاً وأمهنهم مثلاً، نظروا في كتب قد صنفتها أوائلهم، وحبروها بألفاظ مزخرفة من غير أصل ثابت، ولا حجة توجب إثبات ما ادعوا، كل ذلك خلافاً على الله وعلى رسله بما جاءوا عن الله.

فأما من زعم أنَّ الأبدان ظلمة، والأرواح نور، وأنَّ النور لا يعمل الشر والظلمة لا تعمل الخير، فلا يجب عليهم أن يلوموا أحداً على معصية ولا ركوب حرمة ولا إتيان فاحشة، وإنَّ ذلك عن الظلمة غير

---

(١) التفصي: التخلص.

مستنكر، لأنَّ ذلك فعلها ولا له أن يدعو رباً، ولا يتضرع إليه، لأنَّ النور الرب، والرب لا يتضرع إلى نفسه ولا يستعبد بغيره، ولا لأحد من أهل هذه المقالة أن يقول: أحسنت يا محسن أو أسأت، لأنَّ الإساءة من فعل الظلمة وذلك فعلها، والإحسان من النور، ولا يقول النور لنفسه أحسنت يا محسن، وليس هناك ثالث، وكانت الظلمة على قياس قولهم، أحكم فعلا وأتقن تدبيراً وأعز أركاناً من النور، لأنَّ الأبدان محكمة، فمن صور هذا الخلق صورة واحدة على نعوت مختلفة؟

وكل شيء يرى ظاهراً من الزهر والأشجار والثمار والطير والدواب يجب أن يكون إلٰهاً، ثم حبست النور في حبسها والدولة لها، وأما ما ادعوا بأنَّ العاقبة سوف تكون للنور، فدعوى، وينبغي على قياس قولهم أن لا يكون للنور فعل، لأنه أسير، وليس له سلطان، فلا فعل له ولا تدبير، وإن كان له مع الظلمة تدبير، فما هو بأسير بل هو مطلق عزيز، فإن لم يكن كذلك وكان أسير الظلمة، فإنه يظهر في هذا العالم إحسان وجامع فساد وشر، فهذا يدل على أنَّ الظلمة تحسن الخير وتفعله، وكما تحسن الشر وتفعله، فإن قالوا محال ذلك فلا نور

يثبت ولا ظلمة، وبطلت دعواهم، ورجع الأمر إلى أنَّ الله واحد وما سواه باطل، فهذه مقالة ماني الزنديق وأصحابه.

وأما من قال: النور والظلمة بينهما حكم، فلا بد من أن يكون أكبر الثلاثة الحكم، لأنه لا يحتاج إلى الحاكم إلا مغلوب أو جاهل أو مظلوم، وهذه مقالة المانوية والحكاية عنهم تطول.

قال: فما قصة ماني[١]؟

قال: متفحص أخذ بعض المجوسية فشابهها

(١) ماني بن فاتك ظهر في أيام سابور: ثاني ملوك الدولة الساسانية ومذهبه بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح «ع» ولا يقول بنبوة موسى «ع»، وقد زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا، ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم، وزعم أنهما لم يزالا قويين حساسين، دراكين سميعين بصيرين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفي الخير متحاذيان تحاذي الشخص والظل. وقد فرض ماني على أصحابه العشر في أمواله كلها، والصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق، وترك الكذب، والقتل، والسرقة، والزنا والبخل، والسحر، وعبادة الأوثان، وأن يأتي على ذي روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله. =

ببعض النصرانية، فأخطأ الملتين ولم يصب مذهباً واحداً منهما، وزعم أنَّ العالم دبر من إلهين، نور وظلمة، وأنَّ النور في حصار من الظلمة على ما حكينا منه، فكذبته النصارى، وقبلته المجوس.

قال: فأخبرني عن المجوس[1] أفبعث الله إليهم نبياً؟ فإنّي أجد لهم كتباً محكمة ومواعظ بليغة، وأمثالاً شافية، يقرون بالثواب والعقاب، ولهم شرايع

= وأما اعتقاده في الشرائع والأنبياء: أن أول من بعث الله تعالى بالعلم والحكمة: آدم، أبو البشر، ثم بعث شيثاً بعده، ثم نوحاً بعده، ثم إبراهيم بعده عليهم الصلاة والسلام، ثم بعث بالبددة إلى أرض الهند، وزردشت إلى أرض فارس، والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم والمغرب، وبولس بعد المسيح إليهم، ثم يأتي خاتم النبيين إلى أرض العرب.

(١) المجوسية هي أقدم الطوائف والمجوس أصلهم من بلاد فارس، وهم عبدة النيران والقائلون بأن العالم أصلين نور وظلمة. فهما الأصلين والمدبرين القديمين، وهما يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد، فيسمون أحدهما: النور، والآخر: الظلمة، وبالفارسية: يزدان، وأهريمان. ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين اثنتين: إحداهما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة. والثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة، وجعلوا الامتزاج مبدأ، والخلاص معاداً.

يعملون بها.

قال (عليه السلام): ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وقد بعث إليهم نبي بكتاب من عند الله، فأنكروه وجحدوا كتابه.

قال: ومن هو فإن الناس يزعمون أنه خالد بن سنان؟

قال (عليه السلام): إنَّ خالداً كان عربياً بدوياً، ما كان نبياً، وإنما ذلك شيء يقوله الناس.

قال: أفزردشت[1]؟

---

(١) زردشت بن يورشب ظهر في زمان كشتاسب بن لهراسب أحد ملوك الفرس، وقد زعمت الزردشتية أن الله خلق من وقت ما في الصحف الأولى، والكتاب الأعلى من ملكوته خلقاً روحانياً، فلما مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مشيئته في صورة من نور متلألىء على تركيب صورة إنسان، وأحفَّ به سبعين من الملائكة المكرمين، وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض، وبني آدم غير متحركة ثلاثة آلاف سنة ثم جعل روح زردشت في شجرة أنشأها في أعلى عليين، وأحف بها سبعين من الملائكة المكرمين، وغرسها في قلة جبل من جبال أذربيجان يعرف باسمويذخر. ثم مازج شبح زردشت بلبن بقرة فشربه أبو زردشت فصار نطفة ثم مضغة في رحم أمه فقصدها الشيطان وعيرها، =

قال (عليه السلام): إنَّ زردشت أتاهم بزمزمة، وادعى

فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالة على برئها فبرئت، ثم لما ولد ضحك ضحكة تبينها من حضر. فاحتالوا على زردشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر، ومدرجة الخيل، ومدرجة الذئب، فكان ينهض كل واحد لحمايته من جنسه، ونشأ بعد ذلك إلى أن بلغ ثلاثين سنة فبعثه الله تعالى نبياً ورسولاً إلى الخلق، فدعا كشتاسب الملك، فأجابه إلى دينه، وكان دينه، عبادة الله والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث، وقال أيضاً أن الباري تعالى هو خالق الظلمة والنور ومبدعهما، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة، ولكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة، ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم، والباري تعالى هو الذي مزجهما وخلطهما لحكمة رآها في التراكيب، ووجود النور وجود حقيقي، وحصل الظلام تبعاً، ولزردشت كتاباً صنفه وهو يقسم العالم فيه إلى قسمين: مينة، وكيتي، يعني الروحاني والجسماني أو الروح والشخص، وما في العالم ينقسم قسمين: بخشش وكنش، يعني: التقدير والفعل، وموارد تكليف الإنسان يقسمها ثلاثة أقسام: منش، وكويش، وكنش، يعني بذلك: الاعتقاد والقول والعمل، وبالثلاثة يتم التكليف، فإذا قصر الإنسان فيها خرج عن الدين والطاعة، وإذا جرى في هذه الحركات على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر كما أن الزردشتية تدعي لزردشت معجزات كثيرة.

النبوة، فآمن منهم قوم وجحده قوم، فأخرجوه فأكلته السباع في برية من الأرض.

قال: فأخبرني عن المجوس كانوا أقرب إلى الصواب في دهرهم، أم العرب؟

قال (عليه السلام): العرب في الجاهلية، كانت أقرب إلى الدين الحنيفي من المجوس وذلك أنَّ المجوس كفرت بكل الأنبياء وجحدت كتبهم، وأنكرت براهينهم ولم تأخذ بشيء من سننهم وآثارهم، وإنّ كيخسر وملك المجوس في الدهر الأول قتل ثلاثمائة نبي، وكانت المجوس لا تغتسل من الجنابة، والعرب كانت تغتسل والإغتسال من خالص شرايع الحنيفية، وكانت المجوس لا تختن وهو من سنن الأنبياء، وأول من فعل ذلك إبراهيم خليل الله، وكانت المجوس لا تغسل موتاها ولا تكفنها، وكانت العرب تفعل ذلك، وكانت المجوس ترمي الموتى في الصحارى والنواويس والعرب تواريها في قبورها وتلحدها، وكذلك السنة على الرسل، إنَّ أول من حفر له قبر آدم أبو البشر، وألحد له لحد، وكانت المجوس تأتي الأمهات وتنكح البنات والأخوات، وحرمت ذلك العرب، وأنكرت

المجوس بيت الله الحرام وسمته بيت الشيطان، والعرب كانت تحجه وتعظمه، وتقول: بيت ربنا، وتقر بالتوراة والإنجيل، وتسأل أهل الكتب وتأخذ، وكانت العرب في كل الأسباب أقرب إلى الدين الحنيفية من المجوس.

قال: فإنهم احتجوا بإتيان الأخوات أنها سنة من آدم.

قال (عليه السلام): فما حجتهم في إتيان البنات والأمهات وقد حرم ذلك آدم، وكذلك نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وسائر الأنبياء، وكل ما جاء عن الله عز وجل.

قال: ولم حرم الله الخمر ولا لذة أفضل منها؟

قال (عليه السلام): حرمها لأنها أم الخبائث، ورأس كلّ شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب لبه، ولا يعرف ربه، ولا يترك معصية إلا ركبها ولا حرمة إلا انتهكها ولا رحم ماسة إلا قطعها، ولا فاحشة إلا أتاها، والسكران زمامه بيد الشيطان، إن أمره أن يسجد للأوثان سجد، وينقاد حيث ما قاده.

قال: فلم حرم الدم المسفوح؟

قال (عليه السلام): لأنه يورث القساوة، ويسلب الفؤاد رحمته، ويعفن البدن ويغيِّر اللون وأكثر ما يصيب الإنسان الجذام يكون من أكل الدم.

قال: فأكل الغدد؟

قال (عليه السلام): يورث الجذام.

قال: فالميتة لِمَ حرمها؟

قال (عليه السلام): فرقاً بينها وبين ما يذكى ويذكر اسم الله عليه، والميتة قد جمد فيها الدم وتراجع إلى بدنها، فلحمها ثقيل غير مريء لأنها يؤكل لحمها بدمها.

قال: فالسمك ميتة؟

قال (عليه السلام): إنَّ السمك ذكاته إخراجه حياً من الماء، ثم يترك حتى يموت من ذات نفسه، وذلك أنه ليس له دم، وكذلك الجراد.

قال: فَلِمَ حرم الزنا؟

قال (عليه السلام): لما فيه من الفساد وذهاب المواريث وانقطاع الأنساب، لا تعلم المرأة في الزنا من أحبلها، ولا المولود يعلم من أبوه، ولا أرحام موصولة، ولا قرابة معروفة.

قال: فلِمَ حرم اللواط؟

قال (عليه السلام): من أجل أنه لو كان إتيان الغلام حلالاً لاستغنى الرجال عن النساء وكان فيه قطع النسل، وتعطيل الفروج، وكان في إجازة ذلك فساد كثير.

قال: فلِمَ حرم إتيان البهيمة؟

قال (عليه السلام): كره أن يضيع الرجل ماءَه ويأتي غير شكله، ولو أباح ذلك لربط كل رجل أتاناً[1] يركب ظهرها ويغشى فرجها، وكان يكون في ذلك فساد كثير فأباح ظهورها، وحرم عليهم فروجها، وخلق للرجال النساء ليأنسوا بهنَّ ويسكنوا إليهنَّ، ويكنَّ مواضع شهواتهم، وأمهات أولادهم.

قال: فما علة الغسل من الجنابة، وإنَّ ما أتى حلالاً وليس في الحلال تدنيس؟

قال (عليه السلام): إنَّ الجنابة بمنزلة الحيض، وذلك أنّ النطفة دم لم يستحكم ولا يكون الجماع إلا بحركة شديدة وشهوة غالبة، فإذا فرغ تنفس البدن ووجد الرجل

---

(١) الأتان: أنثى الحمار.

من نفسه رائحة كريهة، فوجب الغسل لذلك، وغسل الجنابة مع ذلك أمانة ائتمن الله عليها عبيده ليختبرهم بها.

قال: أيها الحكيم! فما تقول فيمن زعم أنَّ هذا التدبير الذي يظهر في العالم تدبير النجوم السبعة؟

قال (عليه السلام): يحتاجون إلى دليل، إنَّ هذا العالم الأكبر والعالم الأصغر من تدبير النجوم التي تسبح في الفلك، وتدور حيث دارت متعبة لا تفتر، وسائرة لا تقف.

ثم قال (عليه السلام): وإنَّ لكل نجم منها موكل مدبر، فهي بمنزلة العبيد المأمورين المنهيين فلو كانت قديمة أزلية لم تتغير من حال إلى حال.

قال: فمن قال بالطبايع[١]؟

قال: القدرية[٢]، فذلك قول من لم يملك البقاء، ولا صرف الحوادث وغيرته الأيام والليالي، لا يرد

---

(١) أي من قال: بأن الموجودات حصلت من الطبائع الأربع وهي البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة، ولم يعتقد بوجود صانع ما وراءها.

(٢) القدرية هم من أقدم الفرق والمعتزلة وريثة هذه الفرقة، وهم يقولون بنفي الصفات، ونفي القدر خيره وشره من الله تعالى. =

الهرم، ولا يدفع الأجل، ما يدري ما يصنع به.

قال: فأخبرني عمن يزعم أنّ الخلق لم يزل يتناسلون ويتوالدون ويذهب قرن ويجيىء قرن، وتفنيهم الأمراض والأعراض وصنوف الآفات، ويخبرك الآخر عن الأول، وينبئك الخلف عن السلف، والقرون عن القرون، أنهم وجدوا الخلق على هذا الوصف بمنزلة الشجر والنبات، في كل دهر يخرج منه حكيم عليم بمصلحة الناس، بصير بتأليف الكلام، ويصنف كتاباً قد حبره بفطنته، وحسنه بحكمته، قد جعله حاجزاً بين الناس، يأمرهم بالخير ويحثهم عليه، وينهاهم عن السوء والفساد ويزجرهم عنه، لئلا يتهارشوا[١]، ولا يقتل بعضهم بعضاً؟.

قال (عليه السلام): ويحك! إنَّ من خرج من بطن أمه

وأن الله تعالى غير خالق لأكساب العباد ولا لشيء من أعمال الحيوان، والناس هم الذين يقدرون أكسابهم، فالله تعالى فوض إلى العباد، فليس لله في أعمال العباد مشيئة.

وقد قال الإمام الصادق «ع» وهو يصفهم: «مساكين يهود هذه الأمة أرادوا أن يصفوا الله بعدل فأخرجوه من ملكه وسلطانه».

(١) هاش القوم: اختلطوا واضطربوا ووقعت بينهم الفتنة. تهارشوا: من تهارشت الكلاب أي يتقاتلون ويتواثبون.

أمس، ويرحل عن الدنيا غداً لا علم له بما كان قبله ولا ما يكون بعده، ثم إنه لا يخلو الإنسان من أن يكون خلق نفسه أو خلقه غيره، أو لم يزل موجوداً، فما ليس بشيء ليس يقدر أن يخلق شيئاً وهو ليس بشيء، وكذلك ما لم يكن فيكون شيئاً، يسئل فلا يعلم كيف كان ابتداؤه، ولو كان الإنسان أزلياً لم تحدث فيه الحوادث، لأنّ الأزلي لا تغيره الأيام، ولا يأتي عليه الفناء، مع أنا لم نجد بناءاً من غير بان، ولا أثراً من غير مؤثر، ولا تأليفاً من غير مؤلف، فمن زعم أنّ أباه خلقه، قيل: فمن خلق أباه؟ ولو أنّ الأب هو الذي خلق ابنه لخلقه على شهوته. وصوره على محبته ولملك حياته، ولجاز فيه حكمه، ولكنه إن مرض فلم ينفعه، وإن مات فعجز عن رده، إنّ من استطاع أن يخلق خلقاً وينفخ فيه روحاً حتى يمشي على رجليه سوياً، يقدر أن يدفع عنه الفساد.

قال: فما تقول في علم النجوم؟

قال (عليه السلام): هو علم قلّت منافعه، وكثرت مضراته، لأنه لا يدفع به المقدور ولا يتّقى به المحذور، إنّ المنجم بالبلاء لم ينجه التحرز من القضاء، إن أخبر

هو بخير لم يستطع تعجيله، وإن حدث به سوء لم يمكنه صرفه، والمنجم يضاد الله في علمه، بزعمه أن يرد قضاء الله عن خلقه.

قال: فالرسول أفضل أم الملك المرسل إليه؟

قال (عليه السلام): بل الرسول أفضل.

قال: فما علة الملائكة الموكلين بعباده، يكتبون عليهم ولهم، والله عالم السر وما هو أخفى؟

قال (عليه السلام): استعبدهم بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة، وعن معصيته أشد انقباضاً، وكم من عبديهمّ بمعصيته فذكر مكانهما فارعوى[١] وكف، فيقول ربيّ يراني، وحفظتي عليّ بذلك تشهد، وإنّ الله برأفته ولطفه أيضاً وكلهم بعباده، يذبون عنهم مردة الشيطان وهوامّ الأرض، وآفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله إلى أن يجيء أمر الله.

قال: فخلق الخلق للرحمة أم للعذاب؟

قال (عليه السلام): خلقهم للرحمة، وكان في علمه قبل

---

(١) ارعوى: أي كفّ ورجع.

خلقه إياهم، أنّ قوماً منهم يصيرون إلى عذابه بأعمالهم الردية وجحدهم به.

قال: يعذب من أنكر فاستوجب عذابه بإنكاره فبمَ يعذب من وحده وعرفه؟

قال: يعذب المنكر لإلٓهيته عذاب الأبد، ويعذب المقرّ به عذاب عقوبة لمعصيته إياه فيما فرض عليه، ثم يخرج، ولا يظلم ربك أحداً.

قال: فبين الكفر والإيمان منزلة[١]؟

---

(١) وهذا مما يذهب إليه واصل بن عطاء. شيخ المعتزلة أن بين الكفر والإيمان منزلة وهي الفسق، فصاحب الكبيرة لا يكون مؤمناً مطلقاً، ولا كافراً مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، وذلك أن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً وهو اسم مدح وإذا لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمناً وسمي فاسقاً، وليس هو بكافر مطلقاً لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالداً فيها، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير، ولكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار، وأكثر الأمة على خلافه يقولون: إن صاحب الكبيرة من أمة الإسلام مؤمن لاعتقاده بالرسل وبما جاؤوا به، ولكنه فاسق بكبيرته، وفسقه لا ينفي عنه الإيمان والإسلام.

قال (عليه السلام): لا.

قال: فما الإيمان وما الكفر؟

قال (عليه السلام): الإيمان: أن يصدِّق الله فيما غاب عنه من عظمة الله كتصديقه بما شاهد من ذلك وعاين، والكفر: الجحود.

قال: فما الشرك وما الشك؟

قال (عليه السلام): الشرك: هو أن يضم إلى الواحد الذي ليس كمثله شيء آخر والشك: ما لم يعتقد قلبه شيئاً.

قال: أفيكون العالم جاهلاً؟

قال (عليه السلام): عالم بما يعلم، وجاهل بما يجهل.

قال: فما السعادة وما الشقاوة؟

قال (عليه السلام): السعادة: سبب الخير، تمسك به السعيد فيجره إلى النجاة، والشقاوة سبب خذلان، تمسك به الشقي فيجره إلى الهلكة، وكل بعلم الله[1].

---

(١) وفي هذا إشارة إلى بطلان من زعم أن السعادة والشقاوة ذاتيتان والعبد مجبول عليهما وليستا في حيطته ومقدوره، وأن السعادة سبب خير تمسك به العبد باختياره وإرادته فيجره إلى النجاة والسعادة، والشقاوة سبب خذلان تمسك به باختياره وإرادته=

قال: أخبرني عن السراج إذا انطفى أين يذهب نوره؟

قال (عليه السلام): يذهب فلا يعود.

قال: فما أنكرت أن يكون الإنسان مثل ذلك إذا مات وفارق الروح البدن لم يرجع إليه أبداً كما لا يرجع ضوء السراج إليه أبداً إذا انطفى؟

قال (عليه السلام): لم تصب القياس، إنَّ النار في الأجسام كامنة. والأجسام قائمة بأعيانها كالحجر والحديد، فإذا ضرب أحدهما بالآخر سقطت من بينهما نار، تقتبسِ منها سراج له ضوء، فالنار ثابت في أجسامها والضوء ذاهب، والروح: جسم رقيق قد ألبس قالباً كثيفاً، وليس بمنزلة السراج الذي ذكرت. إنَّ الذي خلق في الرحم جنيناً من ماء صاف، وركب فيه ضروباً مختلفة: من عروق وعصب وأسنان وشعر وعظام وغير ذلك، وهو يحييه بعد موته، ويعيده بعد فنائه.

قال: فأين الروح؟

فيجره إلى الشقاوة والهلكة، والله تعالى عالم بأن العبد أيهما يختار ويريد.

قال (عليه السلام): في بطن الأرض حيث مصرع البدن إلى وقت البعث.

قال: فمن صلب فأين روحه؟

قال (عليه السلام): في كف الملك الذي قبضها حتى يودعها الأرض.

قال: فأخبرني عن الروح أغير الدم؟

قال (عليه السلام): نعم، الروح على ما وصفت لك، مادتها من الدم، ومن الدم رطوبة الجسم وصفاء اللون وحسن الصوت، وكثرة الضحك، فإذا جمد الدم فارق الروح البدن.

قال: فهل يوصف بخفة وثقل ووزن؟

قال (عليه السلام): الروح بمنزلة الريح في الزق[١]، إذا نفخت فيه امتلأ الزق منها، فلا يزيد في وزن الزق ولوجها فيه، ولا ينقصها خروجها منه، كذلك الروح ليس لها ثقل ولا وزن.

قال: فأخبرني ما جوهر الريح؟

قال (عليه السلام): الريح هواء إذا تحرك يسمى ريحاً،

---

(١) زق الحداد: كيره وما ينفخ فيه.

فإذا سكن يسمى هواء، وبه قوام الدنيا[١]، ولو كفت الريح ثلاثة أيام لفسد كلّ شيء على وجه الأرض ونتن، وذلك أنَّ الريح بمنزلة المروحة، تذب وتدفع الفساد عن كلِّ شيء وتطيبه، فهي بمنزلة الروح إذا خرج عن البدن نتن البدن وتغير، وتبارك الله أحسن الخالقين.

قال: أفتتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق؟

قال: بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور، فعند ذلك تبطل الأشياء، وتفنى فلا حس ولا محسوس، ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها، وذلك أربعمائة سنة يسبت[٢] فيها الخلق وذلك بين النفختين.

قال: وأنىّ له بالبعث والبدن قد بلي، والأعضاء قد تفرقت، فعضو ببلدة يأكلها سباعها، وعضو بأخرى تمزقه هوامها، وعضو صار تراباً بني به مع الطين حائط؟!!

قال (عليه السلام): إنَّ الذي أنشأه من غير شيء،

---

(١) إشارة إلى أن الهواء سبب للحياة بما فيه من الأوكسجين.

(٢) سبت: استراح.

وصوره على غير مثال كان سبق إليه، قادر أن يعيده كما بدأه.

قال: أوضح لي ذلك!

قال (عليه السلام): إنّ الروح مقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تراباً كما منه خلق، وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها مما أكلته ومزقته كل ذلك في التراب. محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وإنَّ تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور، فتربو الأرض ثم تمخضوا مخض[1] السقاء، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزبد من اللبن إذا مخض، فيجتمع تراب كل قالب إلى قالبه، فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح، فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها، وتلج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً.

---

(١) مخض الشيء: حركه سريعاً.

قال: فأخبرني عن الناس يحشرون يوم القيامة عراة؟

قال (عليه السلام): بل يحشرون في أكفانهم.

قال: أنّى لهم بالأكفان وقد بليت؟!

قال (عليه السلام): إنَّ الذي أحيا أبدانهم جدد أكفانهم.

قال: فمن مات بلا كفن؟

قال (عليه السلام): يستر الله عورته بما يشاء من عنده.

قال: أفيعرضون صفوفاً؟

قال (عليه السلام): نعم، هم يومئذ عشرون ومائة ألف صف في عرض الأرض.

قال: أوليس توزن الأعمال؟

قال (عليه السلام): لا، إنَّ الأعمال ليست بأجسام، وإنما هي صفة ما عملوا، وإنما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء، ولا يعرف ثقلها أو خفتها، وإنَّ الله لا يخفى عليه شيء.

قال: فما معنى الميزان؟

قال (عليه السلام): العدل.

قال: فما معناه في كتابه: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨]؟

قال (عليه السلام): فمن رجح عمله.

قال: فأخبرني أو ليس في النار مقتنع أن يعذب خلقه بها دون الحيات والعقارب؟

قال (عليه السلام): إنما يعذب بها قوماً زعموا أنها ليست من خلقه، إنما شريكه الذي يخلقه، فيسلط الله عليهم العقارب والحيات في النار ليذيقهم بها وبال ما كذبوا عليه فجحدوا أن يكون صنعه.

قال: فمن أين قالوا: إن أهل الجنة يأتي الرجل منهم إلى ثمرة يتناولها فإذا أكلها عادت كهيئتها؟

قال (عليه السلام): نعم، ذلك على قياس السراج: يأتي القابس فيقتبس عنه، فلا ينقص من ضوئه شيئاً، وقد امتلت الدنيا منه سراجاً.

قال: أليسوا يأكلون ويشربون، وتزعم أنه لا يكون لهم الحاجة؟

قال (عليه السلام): بلى، لأنَّ غذاءهم رقيق لا ثقل له، بل يخرج من أجسادهم بالعرق.

قال: فكيف تكون الحوراء في جميع ما أتاها زوجها عذراء؟

قال (عليه السلام): لأنها خلقت من الطيب لا يعتريها عاهة، ولا يخالط جسمها آفة ولا يجري في ثقبها شيء، ولا يدنسها حيض، فالرحم ملتزقة ملدم، إذ ليس فيها لسوى الإحليل مجرى.

قال: فهي تلبس سبعين حلة، ويرى زوجها مخ ساقها من وراء حللها وبدنها؟

قال (عليه السلام): نعم، كما يرى أحدكم الدراهم إذا ألقيت في ماء صاف قدره قدر رمح.

قال: فكيف تنعم أهل الجنة بما فيه من النعيم، وما منهم أحد إلا وقد فقد ابنه وأباه أو حميمه أو أمه، فإذا افتقدوهم في الجنة لم يشكوا في مصيرهم إلى النار، فما يصنع بالنعيم من يعلم أنَّ حميمه في النار ويعذب؟

قال (عليه السلام): إنَّ أهل العلم قالوا: إنهم ينسون ذكرهم. وقال بعضهم: انتظروا قدومهم، ورجوا أن يكونوا بين الجنة والنار في أصحاب الأعراف.

قال: فأخبرني عن الشمس أين تغيب؟

قال (عليه السلام): إنَّ بعض العلماء قال: إذا انحدرت أسفل القبة دار بها الفلك إلى بطن السماء صاعدة أبداً،

إلى أن تنحط إلى موضع مطلعها يعني: أنها تغيب في عين حامية ثم تخرق الأرض راجعة إلى موضع مطلعها، فتحير تحت العرش حتى يؤذن لها بالطلوع، ويسلب نورها كل يوم، وتجلل نوراً آخر.

قال: فالكرسي أكبر أم العرش؟

قال (عليه السلام): كلّ شيء خلقه الله في جوف الكرسي، ما خلا عرشه فإنه أعظم من أن يحيط به الكرسي.

قال: فخلق النهار قبل الليل؟

قال (عليه السلام): خلق النهار قبل الليل والشمس قبل القمر، والأرض قبل السماء ووضع الأرض على الحوت والحوت في الماء والماء في صخرة مجوفة، والصخرة على عاتق ملك، والملك على الثرى، والثرى على الريح العقيم والريح على الهواء والهواء تمسكه القدرة، وليس تحت الريح العقيم إلا الهواء والظلمات، ولا وراء ذلك سعة ولا ضيق، ولا شيء يتوهم، ثم خلق الكرسي فحشاه السماوات والأرض والكرسي أكبر من كلّ شيء خلقه الله، ثم خلق العرش فجعله أكبر من الكرسي.

إحتجاجه (ع) على العالم بالنجوم

عن أبان بن تغلب[١] أنه قال: كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام)، إذ دخل عليه رجل من أهل اليمن، فسلم عليه فرد عليه أبو عبد الله (عليه السلام)، فقال له: مرحباً يا سعد؟ فقال الرجل: بهذا الاسم سمتني أمي، وما أقل من يعرفني به، فقال له أبو عبد الله: صدقت يا سعد المولى! فقال الرجل: جُعلت فداك بهذا اللقب كنت ألقب. فقال أبو عبد الله (عليه السلام): لا خير في اللقب، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١].

ما صناعتك يا سعد؟ قال: جعلت فداك! إنا أهل بيت ننظر في النجوم، لا يقال إنَّ باليمن أحداً أعلم

---

(١) أبان بن تغلب: ثقة جليل القدر لقي علي بن الحسين وأبا جعفر وأبا عبد الله الصادق «ع» وروى عنهم وكانت له عندهم حظوة، ومات في حياة الإمام الصادق «ع». وكان قارئاً فقيهاً لغوياً، صنّف كتاب **«الغريب في القرآن»** و**«الفضائل»** قال له الإمام الصادق: اجلس في مجلس المدينة وافت الناس فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك.

بالنجوم منا.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): كم يزيد ضوء الشمس على ضوء القمر درجة؟

فقال اليماني: لا أدري.

فقال (عليه السلام): صدقت.

فقال: فكم ضوء القمر يزيد على ضوء المشتري درجة؟

قال اليماني: لا أدري!

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): صدقت!

قال: فكم يزيد ضوء المشتري على ضوء العطارد درجة؟

قال اليماني: لا أدري!

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): صدقت!

قال: فكم ضوء عطارد يزيد درجة على ضوء الزهرة؟

قال اليماني: لا أدري!

قال أبو عبد الله: صدقت!

قال: فما اسم النجم الذي إذا طلع هاجت الإبل؟

فقال اليماني: لا أدري!

فقال له أبو عبد الله (عليه السلام): صدقت!

قال: فما اسم النجم الذي إذا طلع هاجت البقر؟

فقال اليماني: لا أدري!

فقال له أبو عبد الله (عليه السلام): صدقت!

قال: فما اسم النجم الذي إذا طلع هاجت الكلاب؟

فقال اليماني: لا أدري!

فقال له أبو عبد الله (عليه السلام): صدقت في قولك لا أدري! فما زحل عندكم في النجوم؟

فقال اليماني: نجم نجس.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): لا تقل هذا فإنه نجم أمير المؤمنين صلوات الله عليه وهو نجم الأوصياء (عليهم السلام)، وهو النجم الثاقب الذي قال الله تعالى في كتابه[1].

فقال اليماني: فما معنى الثاقب؟

فقال: إنَّ مطلعه في السماء السابعة، فإنه ثقب

---

(١) في سورة الطارق الآية: ٣. ﴿النجم الثاقب﴾.

بضوئه حتى أضاء في السماء الدنيا، فمن ثم سماه الله النجم الثاقب. ثم قال: يا أخا العرب أعندكم عالم؟

فقال اليماني: جعلت فداك إنّ باليمن قوماً ليسوا كأحد من الناس في علمهم.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): وما يبلغ من علم عالمهم؟

فقال اليماني: إنَّ عالمهم ليزجر الطير. ويقفو الأثر في ساعة واحدة مسيرة شهر للراكب المحث.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): فإنَّ عالم المدينة أعلم من عالم اليمن.

قال اليماني: وما يبلغ علم عالم المدينة؟

قال: إنَّ علم عالم المدينة ينتهي إلى أن لا يقفو الأثر، ولا يزجر الطير ويعلم ما في اللحظة الواحدة مسيرة الشمس، تقطع اثني عشر برجاً، واثني عشر براً، واثني عشر بحراً، واثني عشر عالماً.

فقال له اليماني: ما ظننت أنّ أحداً يعلم هذا، وما يدري ما كنهه!

قال: ثم قام اليماني وخرج.

احتجاجه (ع) على ابن أبي العوجاء في مناسك الحج

عن عيسى بن يونس قال: كان ابن أبي العوجاء من تلامذة الحسن البصري، فانحرف عن التوحيد، فقيل له: تركت مذهب صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة؟!

قال: إنَّ صاحبي كان مخلطاً، يقول طوراً بالقدر وطوراً بالجبر، فما أعلمه اعتقد مذهباً دام عليه، فقدم مكة متمرِّداً، وإنكاراً على من يحجه، وكان تكره العلماء مجالسته لخبث لسانه، وفساد ضميره، فأتى أبا عبد الله (عليه السلام) فجلس إليه في جماعة من نظرائه، فقال:

يا أبا عبد الله! إنَّ المجالس بالأمانات، ولا بد لكلِّ من به سعال أن يسعل أفتأذن لي في الكلام؟ فقال: تكلم.

فقال: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر،

وتهرولون حوله كهرولة البعير إذا نفر، إنَّ من فكر في هذا وقدر، علم أنَّ هذا فعل أسسه غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبو أُسّه ونظامه!

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): إنَّ من أضله الله وأعمى قلبه، استوخم الحق ولم يستعذبه وصار الشيطان وليه، يورده مناهل الهلكة ثم لا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به عباده ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، جعله محل أنبيائه وقبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر وانتهى عما نهى عنه وزجر، الله المنشىء للأرواح والصور.

فقال ابن أبي العوجاء: ذكرت الله فأحلت على الغائب.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): ويلك!! كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويرى أشخاصهم، ويعلم

أسرارهم؟!

فقال ابن أبي العوجاء: فهو في كل مكان، أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض وإذا كان كان في الأرض كيف يكون في السماء؟

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان، وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه، فأما الله العظيم الشأن، الملك الديان، فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان.

وروي أنَّ الصادق (عليه السلام) قال لابن أبي العوجاء: إن يكن الأمر كما تقول ـ وليس كما تقول ـ نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول ـ وهو كما نقول ـ نجونا وهلكت.

محاولة الزنادقة الطعن بالقرآن

عن هشام بن الحكم قال: اجتمع ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني الزنديق وعبد الملك البصري وابن المقفع عند بيت الله الحرام، يستهزءون

بالحاج ويطعنون بالقرآن.

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كل واحد منا ربع القرآن وميعادنا من قابل في هذا الموضع، نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كله، فإنّ في نقض القرآن إبطال نبوة محّمد، وفي إبطال نبوته إبطال الإسلام وإثبات ما نحن فيه، فاتفقوا على ذلك وافترقوا، فلما كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام فقال ابن أبي العوجاء:

أما أنا فمفكر منذ افترقنا في هذه الآية ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً، فشغلتني هذه الآية عن التفكر فيما سواها.

فقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآيـة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣] ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال أبو شاكر: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٤] لم

أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال ابن المقفع: يا قوم إنَّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآيـة: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: ٤٤] لم أبلغ غاية المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

قال هشام بن الحكم: فبينما هم في ذلك. إذ مر بهم جعفر بن محّمد الصادق (عليه السلام) فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسـراء: ٨٨] فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهت أمر وصية محّمد إلا إلى جعفر بن محّمد، والله ما رأيناه قط إلا هبناه واقشعرت جلودنا لهيبته، ثم تفرقوا مقرين بالعجز.

* * *

روي أنّه لمّا سأل رجل من الزنادقة أبا جعفر الأحول فقال: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ

فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣] وقال تعالى في آخر السورة: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩] فبين القولين فرق، فقال أبو جعفر الأحول: فلم يكن في ذلك عندي جواب، فقدمت المدينة فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فسألته عن الآيتين فقال: أمّا قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ فإنّما عني في النفقة، وقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ﴾ فإنّما عني في المودّة، فإنّه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في المودّة؛ فرجع أبو جعفر الأحول إلى الرجل فأخبره، فقال: هذا حملته من الحجاز.

* * *

ونحن أقرب إليه من حبل الوريد

عن محمّد بن عبيد، عن حمّاد، عن محمّد بن مسلم قال: دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام فقال: إنّي رأيت ابنك موسى يصلّي والناس يمرّون بين يديه فلا ينهاهم وفيه ما فيه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ادع فلمّا جاءه قال: يا بني إنّ أبا

حنيفة يذكر أنّك تصلّي والناس يمرّون بين يديك فلا تنهاهم قال: نعم يا أبه، إنّ الذي كنت أصلّي له كان أقرب إليَّ منهم، يقول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] قال: فضمّه أبو عبد الله عليه السلام إلى نفسه وقال: بأبي أنت وأمّي يا مودع الأسرار.

هل تكذب الأنبياء؟!

روي أنه سئل الصادق (عليه السلام) عن قول الله عز وجل في قصة إبراهيم (عليه السلام): ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٦٣] قال: ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم (عليه السلام). قيل: وكيف ذلك؟

فقال (عليه السلام): إنما قال إبراهيم: فاسألوهم إن كانوا ينطقون. فإن نطقوا فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فكبيرهم لم يفعل شيئاً، فما نطقوا، وما كذب إبراهيم (عليه السلام).

فسئل عن قوله في سورة يوسف: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]؟

قال: إنهم سرقوا يوسف من أبيه. ألا ترى أنه

قال لهم: ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧١، ٧٢]، ولم يقل سرقتم صواع الملك. إنما سرقوا يوسف من أبيه.

فسئل عن قول إبراهيم: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩] قال: ما كان إبراهيم سقيماً، وما كذب إنما عنى سقيماً في دينه أي مرتاداً.

جوابه (ع) عن قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾

عن حفص بن غياث قال: شهدت المسجد الحرام وابن أبي العوجاء يسأل أبا عبد الله (عليه السلام) عن قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦] ما ذنب الغير؟

قال (عليه السلام): ويحك هي هي وهي غيرها!

قال: فمَثِّل لي ذلك شيئاً من أمر الدنيا! قال: نعم أرأيت لو أنَّ رجلاً أخذ لبنة فكسرها، ثم ردها في ملبنها، فهي هي وهي غيرها.

أقضاكم علي

عن سعيد بن أبي الخضيب قال: دخلت أنا وابن أبي ليلى[1] المدينة، فبينما نحن في مسجد الرسول «ص» إذ دخل جعفر بن محّمد (عليه السلام)، فقمنا إليه فسألني عن نفسي وأهلي ثم قال: من هذا معك؟

فقلت: ابن أبي ليلى قاضي المسلمين!

فقال: نعم.

ثم قال له: أتأخذ مال هذا فتعطيه هذا، وتفرق بين المرء وزوجه، ولا تخاف في هذا أحداً؟

قال: نعم.

قال: فبأي شيء تقضي؟

قال: بما بلغني عن رسول «ص»، وعن أبي بكر، وعمر.

قال: فبلغك أنّ رسول الله «ص» قال: «أقضاكم علي بعدي»؟

---

(١) ابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمٰن القاضي الكوفي من أصحاب الصادق «ع» ولي ابن أبي ليلى القضاء لبني أمية وولد العباس وكان يفتي بالرأي قبل أبي حنيفة.

قال: نعم.

قال: فكيف تقضي بغير قضاء عليّ (عليه السلام)، وقد بلغك هذا؟

قال: فاصفر وجه ابن أبي ليلى ثم قال: التمس مثلاً لنفسك، فوالله لا أكلمك من رأسي كلمة أبداً.

اختلاف أمتي رحمة

عن عبد المؤمن الأنصاري قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إنَّ قوماً رووا: أنَّ رسول الله «ص» قال: «اختلاف أمتي رحمة»؟ فقال: صدقوا.

قلت: إن كان اختلافهم رحمة، فاجتماعهم عذاب؟

قال: ليس حيث تذهب وذهبوا، إنما أراد قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] أمرهم أن ينفروا إلى رسول الله «ص»، ويختلفوا إليه، ويتعلموا، ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم، إنما أراد اختلافهم في البلدان لا اختلافاً في الدين، إنما الدين واحد.

أصحابي أهل بيتي

روي عنه صلوات الله عليه: أنّ رسول الله «ص» قال: ما وجدتم في كتاب الله عز وجل فالعمل لكم به ولا عذر لكم في تركه، وما لم يكن في كتاب الله عز وجل وكانت في سنة مني فلا عذر لكم في ترك سنتي، وما لم يكن فيه سنة مني فما قال أصحابي فقولوا، إنما مثل أصحابي فيكم كمثل النجوم، بأيها أخذ اهتُدي وبأي أقاويل أصحابي أخذتم اهتديتم، واختلاف أصحابي لكم رحمة.

قيل: يا رسول الله من أصحابك؟ قال: أهل بيتي.

التقية رحمة

قال محّمد بن الحسين بن بابويه القمي رضي الله عنه: إنَّ أهل البيت لا يختلفون ولكن يفتون الشيعة بمر الحق، وربما أفتوهم بالتقية فما يختلف من قولهم فهو للتقية، والتقية رحمة للشيعة، ويؤيد تأويله رضي الله عنه أخبار كثيرة.

منها: ما رواه محمّد بن سنان، عن نصر الخثعمي قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: من عرف من أمرنا أن لا نقول إلا حقاً، فليكتف بما يعلم منا، فإن سمع منا خلاف ما يعلم، فليعلم أنَّ ذلك منا دفاع واختيار له.

جوابه (ع) في اختلاف الحكم والحديث

عن عمر بن حنظلة: قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام): عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دَين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة أيحل ذلك؟

قال (عليه السلام): من تحاكم إليهم في حق أو باطل فانما تحاكم إلى الجبت والطاغوت المنهي عنه، وما حكم له به فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً له لأنه أخذه بحكم الطاغوت، ومن أمر الله عز وجل أن يكفر به، قال الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠].

قلت: فكيف يصنعان وقد اختلفا؟

قال: ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا،

ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا، فليرضيا به حكماً، فإنِّي قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكم ولم يقبله منه، فإنما بحكم الله استخف وعلينا رد، والراد علينا كافر وراد على الله، وهو على حد من الشرك بالله.

قلت: فإن كان كل واحد منهما اختار رجلاً من أصحابنا، فرضيا أن يكونا الناظرين في حقهما فيما حكما، فإن الحكمين اختلفا في حديثكم؟

قال: إنَّ الحكم ما حكم به أعدلهما وأفقههما وأصدقهما في الحديث وأورعهما، ولا يلتفت إلى ما حكم به الآخر.

قلت: فإنهما عدلان مرضيان، عرفا بذلك لا يفضل أحدهما صاحبه؟

قال: ينظر الآن إلى ما كان من روايتهما عنا في ذلك الذي حكما، المجمع عليه بين أصحابك، فيؤخذ به من حكمهما ويترك الشاذ الذي ليس بمشهور عند أصحابك، فإن المجمع عليه لا ريب فيه، وإنما الأمور ثلاث: أمر بيِّن رشده فيُتَّبع، وأمر بيِّن غيه فيُجْتَنب، وأمر مشكل يرد حكمه إلى الله عز وجل وإلى رسوله، حلال

بيِّن، وحرام بيِّن، وشبهات تتردد بين ذلك، فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات وهلك من حيث لا يعلم.

قلت: فإن كان الخبران عنكما مشهورين قد رواهما الثقاة عنكم؟

قال: ينظر ما وافق حكمه حكم الكتاب والسُنَّة وخالف العامة فيؤخذ به، ويترك ما خالف حكمه حكم الكتاب والسنة ووافق العامة.

قلت: جعلت فداك أرأيت إن كان الفقيهان عرفا حكمه من الكتاب والسنة، ثم وجدنا أحد الخبرين يوافق العامة. والآخر يخالف، بأيهما نأخذ من الخبرين؟

قال: ينظر إلى ما هم إليه يميلون، فإن ما خالف العامة ففيه الرشاد.

قلت: جعلت فداك! فان وافقهم الخبران جميعاً؟

قال: انظروا إلى ما تميل إليه حكّامهم وقضاتهم، فاتركوا جانباً وخذوا بغيره.

قلت: فإن وافق حكّامهم الخبرين جميعاً؟

قال: إذا كان كذلك فارجه وقف عنده، حتى تلقى إمامك، فانَّ الوقوف عند الشبهات خير من

الاقتحام في الهلكات، والله هو المرشد.

جاء هذا الخبر على سبيل التقدير، لأنه قلّما يتفق في الأثر أن يرد خبران مختلفان في حكم من الأحكام، موافقين للكتاب والسنة، وذلك مثل غسل الوجه واليدين في الوضوء لأنّ الأخبار جاءت بغسلهما مرة مرة، وغسلهما مرتين مرتين فظاهر القرآن لا يقتضي خلاف ذلك، بل يحتمل كلتا الروايتين، ومثل ذلك يؤخذ في أحكام الشرع.

وأما قوله (عليه السلام) ـ للسائل ـ: أرجه وقف عنده حتى تلقى إمامك، أمره بذلك عند تمكنه من الوصول إلى الإمام، فأما إذا كان غائباً ولا يتمكن من الوصول إليه، والأصحاب كلهم مجمعون على الخبرين، ولم يكن هناك رجحان لرواة أحدهما على الآخر بالكثرة والعدالة، كان الحكم بهما من باب التخيير.

يدل على ما قلنا: ما روي عن الحسن بن الجهم[1] عن الرضا (عليه السلام): قال: قلت للرضا (عليه السلام):

---

(١) الحسن بن الجهم بن بكير بن أعين أبو محمد الشيباني من أكابر أصحاب الإمام الرضا «ع»، ثقة روى عن الإمام الرضا «ع».

تجيئنا الأحاديث عنكم مختلفة؟

قال: ما جاءك عنا فقسه على كتاب الله عز وجل وأحاديثنا، فإن كان يشبههما فهو منا وإن لم يشبههما فليس منا.

قلت: يجيئنا الرجلان، وكلاهما ثقة، بحديثين مختلفين، فلا نعلم أيهما الحق.

فقال: إذا لم تعلم فموسع عليك بأيهما أخذت.

ما رواه الحرث بن المغيرة[١] عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إذا سمعت من أصحابك الحديث وكلهم ثقه، فموسع عليك حتى ترى القائم فترده عليه.

وروى سماعة بن مهران[٢] قال: سألت أبا عبد

---

(١) الحرث بن المغيرة روى عن أبي جعفر الباقر والصادق والكاظم «ع» وعن زيد بن علي وهو ثقة.

(٢) سماعة بن مهران بن عبد الرحٰن الحضرمي مولى عبد بن وائل بن حجر الحضرمي يكنى: أبا ناشرة. كان يتجر في القز ويخرج به إلى حران، ونزل من الكوفة كندة، روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن «ع» ومات بالمدينة. وهو ثقة. له بالكوفة مسجد بحضرموت وهو مسجد زرعة بن محمد الحضرمي. مات في حياة الإمام الصادق «ع» عن عمر يناهز الستين سنة.

الله (عليه السلام) قلت: يرد علينا حديثان، واحد يأمرنا بالأخذ به، والآخر به ينهانا عنه؟

قال: لا تعلم بواحد منهما حتى تلقى صاحبك فتسأله عنه.

قال: قلت: لا بد من أن نعمل بأحدهما.

قال: خذ بما فيه خلاف العامة، فقد أمر (عليه السلام) بترك ما وافق العامة، لأنه أن يكون قد ورد مورد التقية، وما خالفهم لا يحتمل ذلك.

وروي عنهم (عليهم السلام) أيضاً أنهم قالوا: إذا اختلف أحاديثنا عليكم فخذوا بما اجتمعت عليه شيعتنا، فإنه لا ريب فيه، وأمثال هذه الأخبار كثيرة لا يحتمل ذكرها هنا، وما أوردناه عارض ليس هنا موضعه.

كلامه (ع) حول ميراث النبوة

عن معاوية بن وهب عن سعيد بن سمان قال: كنت عند أبي عبد الله إذ دخل عليه رجلان من الزيدية، فقالا له: أفيكم إمام مفترض طاعته؟ قال: فقال: لا.

فقالا له: قد أخبرنا عنك الثقاة أنك تقول به، وسموا أقواماً وقالوا: هم أصحاب ورع وتشمير، وهم

ممن لا يكذب، فغضب أبو عبد الله (عليه السلام) وقال: ما أمرتهم بهذا، فلما رأيا الغضب في وجهه خرجا.

فقال لي: أتعرف هذين؟ قلت: هما من أهل سوقنا وهما من الزيدية، وهما يزعمان أنَّ سيف رسول الله عند عبد الله بن الحسن.

فقال: كذبا لعنهما الله، وهو ما رآه عبد الله بن الحسن بعينيه، ولا بواحدة من عينيه. ولا رآه أبوه، اللهم إلا أن يكون رآه عند عليٍّ بن الحسين (عليه السلام)، فإن كانا صادقين فما علامة في مقبضه؟ وما أثر في موضع مضربه؟

وإنَّ عندي لسيف رسول الله، وإنَّ عندي لراية رسول الله «ص» ودرعه ولامته ومغفره فان كانا صادقين فما علامة من درع رسول الله «ص»؟ وإن عندي لراية رسول الله «ص» المغلبة، وإنَّ عندي ألواح موسى وعصاه، وإنَّ عندي لخاتم سليمان بن داوود وإنَّ عندي الطست الذي كان موسى يقرب بها القربان، وإنَّ عندي الاسم الذي كان رسول الله إذا وضعه بين المسلمين والمشركين، لم يصل من المشركين إلى المسلمين نشابة.

وإنَّ عندي لمثل التابوت الذي جاءت به الملائكة، ومثل السلاح فينا كمثل التابوت في بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل في أي أهل بيت وجد التابوت على أبوابهم أوتوا النبوة، ومن صار إليه السلاح منا أوتي الإمامة، ولقد لبس أبي درع رسول الله «ص» فخطت على الأرض خططاً، ولبستها أنا وكانت تخط على الأرض ـ يعني: طويلة ـ مثل ما كانت على أبي، وقائمنا من إذا لبسها ملأها إن شاء الله تعالى.

* * *

وكان الصادق (عليه السلام) يقول: علمنا غابر ومزبور، ونكت في القلوب ونقر في الأسماع، وإنّ عندنا الجفر الأحمر والجفر الأبيض ومصحف فاطمة (عليها السلام)، وعندنا الجامعة فيها جميع ما يحتاج إليه الناس.

فسئل عن تفسير هذا الكلام فقال: أما الغابر: فالعلم بما يكون، والمزبور: فالعلم بما كان، وأما النكت في القلوب: فهو الإلهام، والنقر في الأسماع: فحديث الملائكة، نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم، وأما الجفر الأحمر: فوعاء فيه توراة موسى، وإنجيل

عيسى وزبور داوود، وكتب الله. وأما مصحف فاطمة: ففيه ما يكون من حادث، وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة.

وأما الجامعة فهو: كتاب طوله سبعون ذراعاً، إملاء رسول الله «ص» من فلق فيه وخط عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) بيده، فيه والله جميع ما يحتاج الناس إليه إلى يوم القيامة، حتى أنَّ فيه أرش الخدش، والجلدة ونصف الجلدة.

تعيين أسماء الأئمة (ع) المفترضي الطاعة

كان زيد[١] بن عليَّ بن الحسين يطمع أن يوصي إليه أخوه الباقر (عليه السلام) ويقيمه مقامه في الخلافة بعده، مثل ما كان يطمع في ذلك محّمد بن الحنفية بعد وفاة أخيه الحسين صلوات الله عليه، حتى رأى من ابن أخيه

---

(١) زيد بن علي بن الحسين «ع» عين إخوته بعد أبي جعفر «ع»، وكان عابداً ورعاً فقيهاً سخياً شجاعاً، ظهر بالسيف يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ بثأر الحسين «ع». ولقد قال عنه جعفر بن محمد الصادق «ع»: رحم الله عمي زيداً إنه دعا إلى الرضا من آل محمد ولو ظفر لوفى بما دعا إليه.

زين العابدين (عليه السلام) من المعجزة الدالة على إمامته ما رأى، فكذلك زيد رجا أن يكون القائم مقام أخيه الباقر صلوات الله عليه، حتى سمع ما سمع من أخيه ورأى ما رأى من ابن أخيه أبي عبد الله الصادق (عليه السلام).

فمن ذلك: ما رواه صدقة بن أبي موسى، عن أبي بصير قال: لما حضر أبا جعفر محّمد بن عليّ (عليه السلام) الوفاة، دعا بابنه الصادق (عليه السلام) ليعهد إليه عهداً، فقال له أخوه زيد بن علي:

لما امتثلت في مثال الحسن والحسين (عليهما السلام) رجوت أن لا تكون أتيت منكراً.

فقال له الباقر (عليه السلام): يا أبا الحسين إنّ الأمانات ليست بالمثال، ولا العهود بالرسوم، إنما هي أمور سابقة عن حجج الله تبارك وتعالى، ثم دعا بجابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يا جابر حدثنا بما عاينت من الصحيفة؟

فقال له: نعم يا أبا جعفر، دخلت على مولاتي فاطمة بنت رسول الله «ص» لأهنيها بولادة الحسن (عليه السلام)، فإذا بيدها صحيفة بيضاء من درة، فقلت: يا سيدة النسوان ما هذه الصحيفة التي أراها معك؟ قالت:

فيها أسماء أئمة من ولدي.

قلت لها: ناوليني لأنظر فيها! قالت: يا جابر لولا النهي لكنت أفعل، ولكنّه قد نهي أن يمسها إلا نبي أو وصي نبي، أو أهل بيت نبي، ولكنّه مأذون لك أن تنظر إلى باطنها من ظاهرها.

قال جابر: فقرأت فإذا فيها: أبو القاسم محّمد بن عبد الله المصطفى بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أمه: آمنة.

أبو الحسن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) المرتضى، أمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

أبو محّمد الحسن بن عليّ البر التقي، أبو عبد الله الحسين بن عليّ أمهما: فاطمة بنت محّمد.

أبو محمّد عليّ بن الحسين العدل، أمه: شهر بانويه بنت يزدجرد بن شهريار.

أبو جعفر محّمد بن علي الباقر، أُمه: أُم عبد الله بنت الحسن بن عليّ بن أبي طالب.

أبو عبد الله جعفر بن محّمد الصادق، أُمه: أُم فروة بنت القاسم بن محّمد ابن أبي بكر.

أبو إبراهيم موسى بن جعفر الثقة، أُمه جارية

اسمها: حميدة المصفاة.

أبو الحسن عليّ بن موسى الرضا، أُمه جارية اسمها: نجمة.

أبو جعفر محّمد بن عليّ الزكي أمه جارية اسمها: خيزران.

أبو الحسن عليّ بن محّمد الأمين، أمه جارية اسمها: سوسن.

أبو محّمد الحسن بن عليّ الرضي، أمه جارية اسمها: سمانة تكنى أم الحسن.

أبو القاسم محّمد بن الحسن وهو الحجة القائم، وأُمه جارية اسمها: نرجس صلوات الله عليهم أجمعين.

* * *

وعن زرارة بن أعين قال: قال لي زيد بن عليّ وأنا عند أبي عبد الله (عليه السلام): يا فتى ما تقول في رجل من آل محّمد استنصرك؟

قال: قلت: إن كان مفروض الطاعة فلي أن أفعل ولي أن لا أفعل.

فلما خرج قال أبو عبد الله: أخذته والله من بين يديه ومن خلفه وما تركت له مخرجاً.

* * *

وقيل للصادق (عليه السلام): ما يزال يخرج رجل منكم أهل البيت فيقتل ويقتل معه بشر كثير فأطرق طويلاً ثم قال: إنّ فيهم الكذابين وفي غيرهم المكذبين.

وروي عنه صلوات الله عليه أنه قال: ليس منا أحد إلا وله عدو من أهل بيته فقيل له: بنو الحسن لا يعرفون لمن الحق؟

قال: بلى، ولكن يحملهم الحسد.

* * *

عن أبي يعقوب[1] قال: لقيت أنا ومعلى بن خنيس[2] الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب

---

(١) أبو يعقوب من أصحاب الإمام الصادق «ع».

(٢) المعلى بن خنيس ذكره الشيخ الطوسي «ره» في عداد أصحاب الصادق «ع» ص ٣٢٠ من رجاله وذكره العلامة في القسم الثاني من خلاصته ص ٢٥٩ فقال: معلى بن خنيس ـ بضم الخاء المعجمة وفتح النون والسين المهملة بعد الياء المنقطعة تحتها نقطتين ـ أبو عبد الله مولى الصادق جعفر بن محمد «ع»، ومن

(عليه السلام) فقال: يا يهودي فأخبرنا بما قال فينا جعفر بن محمد (عليه السلام) فقال: هو والله أولى باليهودية منكما إنَّ اليهودي من شرب الخمر.

وبهذا الإسناد قال: سمعت أبا عبد الله يقول: لو توفي الحسن بن الحسن على الزنا والربا وشرب الخمر، كان خيراً له مما توفي عليه.

* * *

وعن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] قال: أي شيء تقول؟ قلت: إنّي

قبله كان مولى بني أسد، كوفي. قال النجاشي: إنه بزاز بالزاي قبل الألف وبعدها وهو ضعيف جداً وقال الغضايري: إنه كان أول أمره مغيرياً ثم دعا إلى محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية، وفي هذه الظنة أخذه داوود بن علي فقتله، والغلاة يضيفون إليه كثيراً. قال: ولا أرى الاعتماد على شيء من حديثه. وروى فيه أحاديث تقتضي الذم وأخرى تقتضي المدح، وقد ذكرناها في الكتاب الكبير. وقال الشيخ أبو جعفر الطوسي - في الغيبة بغير إسناد -: إنه كان من قوام أبي عبد الله «ع» وكان على منهاجه، وهذا يقتضي وصفه بالعدالة.

أقول إنها خاصة لولد فاطمة.

فقال (عليه السلام): أما من سلَّ سيفه ودعا الناس إلى نفسه إلى الضلال من ولد فاطمة وغيرهم فليس بداخل في الآية.

قلت: من يدخل فيها. قال: الظالم لنفسه الذي لا يدعو الناس إلى ضلال ولا هدى، والمقتصد منا أهل البيت: هو العارف حق الإمام، والسابق بالخيرات: هو الإمام.

* * *

عن محّمد بن أبي عمير الكوفي(١) عن عبد الله بن

---

(١) محمد بن أبي عمير، واسم أبي عمير، واسم أبي عمير: زياد بن عيسى ويكنى: أبا محمد مولى الأزد. من موالي المهلب بن أبي صفرة. وقيل: من موالي بني أمية. والأول أصح، بغدادي الأصل والمقام، لقي أبا الحسن موسى «ع» وسمع منه أحاديث كناه في بعضها فقال: يا أبا أحمد.
وروى عن الرضا «ع» كان جليل القدر عظيم المنزلة عندنا وعند المخالفين. قال الكشي: إنه ممن جمع أصحابنا على تصحيح ما يصح عنه وأقروا له بالفقه والعلم. وقال الشيخ الطوسي «ره»: إنه كان أوثق الناس عند الخاصة والعامة، وأنسكهم نسكاً وأزهدهم وأعبدهم. أدرك من الأئمة ثلاثة: أبا إبراهيم موسى=

الوليد السمان قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): ما يقول الناس في أولي العزم وصاحبكم أمير المؤمنين (عليه السلام)؟ قال: قلت: ما يقدمون على أولي العزم أحداً.

قال: فقال أبو عبد الله (عليه السلام): إنَّ الله تبارك وتعالى قال لموسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ [الأعراف: ١٤٥] ولم يقل كل شيء موعظة. وقال لعيسى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] ولم يقل كل شيء وقال لصاحبكم أمير المؤمنين (عليه السلام): ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وعلم هذا الكتاب عنده.

ابن جعفر «ع» ولم يرو عنه وروى عن أبي الحسن الرضا «ع» قال أبو عمرو الكشي: قال محمد بن مسعود: حدثني علي بن الحسين قال: ابن أبي عمير أفقه من يونس بن عبد الرحمن وأصح وأفضل وله حكاية ذكرناها في كتابنا الكبير، مات رحمه الله سنة سبع عشر ومائتين.

القسم الأول من خلاصة العلامة ص ١٤١

إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها

عن الحسين بن زيد[١] عن جعفر الصادق (عليه السلام) أنّ رسول الله «ص» قال لفاطمة: «يا فاطمة إنَّ الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك».

قال: فقال المحدثون بها. قال: فأتاه ابن جريح فقال: يا أبا عبد الله حدثنا اليوم حديثاً استهزأه الناس.

قال: وما هو؟

قال: حديث أنّ رسول الله «ص» قال لفاطمة: «إنَّ الله ليغضب لغضبك، ويرضى لرضاك».

قال: فقال (عليه السلام): إنّ الله ليغضب فيما ترون لعبده المؤمن ويرضى لرضاه؟

فقال: نعم.

قال (عليه السلام): فما تنكر أن تكون ابنة رسول الله

---

(١) الحسين بن زيد: تكفل به الإمام الصادق «ع» بعد مقتل أبيه وأخيه يحيى فأصاب عن الصادق علماً كثيراً، وكان يقال له ذو الدمعة لكثرة بكائه، وكان مؤلفاً محدثاً زاهداً عابداً خاشعاً ثقة ورعاً. مات سنة ١٣٥هـ، وله من العمر ٧٦ سنة.

«ص» مؤمنة، يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها.

قال: صدقت! الله أعلم حيث يجعل رسالته.

إحتجاجه على أبي حنيفة في القياس

عن بشير بن يحيى العامري عن ابن أبي ليلى قال: دخلت أنا والنعمان أبو حنيفة(١) على جعفر بن محمّد، فرحب بنا فقال: يا ابن أبي ليلى من هذا الرجل؟

فقلت: جعلت فداك من أهل الكوفة له رأي وبصيرة ونفاذ.

---

(١) أبو حنيفة، النعمان بن ثابت بن زوطي أبو حنيفة التيمي إمام أصحاب الرأي. هو من أهل الكوفة، نقله أبو جعفر المنصور إلى بغداد فأقام بها حتى مات، ودفن بالجانب الشرقي منها في مقبرة الخيزران، وعن عمر بن حماد بن أبي حنيفة أنه قال: أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي، فأما زوطي فإنه من أهل كابل، وولد ثابت على الإسلام، وكان زوطي مملوكاً لبني تيم الله بن ثعلبة فأعتق فولاؤه لبني تيم ثم لبني قفل، وكان أبو حنيفة خزازاً ودكانه معروف في دار عمرو بن حريث. وينقل عن أبي جعفر أنه قال: كان أبو حنيفة اسمه عتيك بن زوطرة، فسمى نفسه نعمان وأباه ثابتاً.

قال: فلعله الذي يقيس الأشياء برأيه؟ ثم قال: يا نعمان! هل تحسن أن تقيس رأسك؟

قال: لا.

قال (عليه السلام): ما أراك تحسن أن تقيس شيئاً فهل عرفت الملوحة في العينين، والمرارة في الأذنين، والبرودة في المنخرين، والعذوبة في الفم؟ قال: لا.

قال (عليه السلام): فهل عرفت كلمة أولها كفر وآخرها إيمان؟ قال: لا.

قال ابن أبي ليلى: قلت: جعلت فداك لا تدعنا في عمياء مما وصفت.

قال (عليه السلام): نعم، حدثني أبي عن آبائه (عليهم السلام) أنَّ رسول الله «ص» قال: إنَّ الله خلق عيني ابن آدم شحمتين فجعل فيهما الملوحة، فلولا ذلك لذابتا ولم يقع فيهما شيء من القذى إلا أذابه، والملوحة تلفظ ما يقع في العين من القذى، وجعل المرارة في الأذنين حجاباً للدماغ، وليس من دابة تقع في الأذن إلا التمست الخروج، ولولا ذلك لوصلت إلى الدماغ فأفسدته، وجعل الله البرودة في المنخرين حجاباً للدماغ ولولا ذلك لسال الدماغ وجعل العذوبة في الفم منّاً من

الله تعالى على ابن آدم ليجد لذة الطعام والشراب.

وأما كلمة أولها كفر وآخرها إيمان فقول لا إلٰه إلا الله. ثم قال: يا نعمان إياك والقياس، فإن أبي حدثني عن آبائه (عليهم السلام) أنَّ رسول الله «ص» قال: من قاس شيئاً من الدين برأيه قرنه الله تبارك وتعالى مع إبليس، فإنه أول من قاس حيث قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فدعوا الرأي والقياس فإن دين الله لم يوضع على القياس.

وفي رواية أخرى أنَّ الصادق (عليه السلام) قال لأبي حنيفة لما دخل عليه: من أنت؟ قال: أبو حنيفة.

قال (عليه السلام): مفتي أهل العراق؟

قال: نعم.

قال (عليه السلام): بِمَ تفتيهم؟

قال: بكتاب الله.

قال (عليه السلام): وإنك لعالم بكتاب الله، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه؟

قال: نعم.

قال: فأخبرني عن قوله الله عز وجل: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا

ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبا: ١٧] أيّ موضع هو.

قال أبو حينفة: هو ما بين مكة والمدينة.

فالتفت أبو عبد الله إلى جلسائه. وقال:

نشدتكم بالله هل تسيرون بين مكة والمدينة ولا تأمنون على دمائكم من القتل، وعلى أموالكم من السرق؟

فقالوا: اللهم نعم.

فقال أبو عبد الله: ويحك يا أبا حنيفة! إنّ الله لا يقول إلا حقاً أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] أي موضع هو؟ قال: ذلك بيت الله الحرام، فالتفت أبو عبد الله إلى جلسائه وقال: نشدتكم بالله هل تعلمون: أنّ عبد الله بن الزبير وسعيد بن جبير دخلاه فلم يأمنا القتل؟

قالوا: اللهم نعم.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): ويحك يا أبا حنيفة! إنّ الله لا يقول إلا حقاً.

فقال أبو حنيفة: ليس لي علم بكتاب الله، إنما أنا صاحب قياس.

قال أبو عبد الله (عليه السلام): فانظر في قياس إن كنت مقيساً أيما أعظم عند الله القتل أو الزنا؟

قال: بل القتل.

قال: فكيف رضي في القتل بشاهدين، ولم يرض في الزنا إلا بأربعة؟ ثم قال له: الصلاة أفضل أم الصيام؟ قال: بل الصلاة أفضل.

قال (عليه السلام): فيجب على قياس قولك على الحايض قضاء ما فاتها من الصلاة في حال حيضها دون الصيام، وقد أوجب الله تعالى عليها قضاء الصوم دون الصلاة.

قال له (عليه السلام): البول أقذر أم المني؟

قال: البول أقذر.

قال (عليه السلام): يجب على قياسك أن يجب الغسل من البول دون المني، وقد أوجب الله تعالى الغسل من المني دون البول.

قال: إنما أنا صاحب رأي.

قال (عليه السلام): فما ترى في رجل كان له عبد فتزوج وزوج عبده في ليلة واحدة فدخلا بامرأتيهما في ليلة

واحدة ثم سافراً وجعلا امرأتيهما في بيت واحد وولدتا غلامين فسقط البيت عليهم، فقتل المرأتين وبقي الغلامان أيهما في رأيك المالك وأيهما المملوك وأيهما الوارث وأيهما الموروث؟

قال: إنما أنا صاحب حدود.

قال (عليه السلام): فما ترى في رجل اعمى فقأ عين صحيح وأقطع قطع يد رجل، كيف يقام عليهما الحد.

قال: إنما أنا رجل عالم بمباعث الأنبياء.

قال (عليه السلام): فأخبرني عن قول الله لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] ولعل منك شك؟

قال: نعم.

قال (عليه السلام): وكذلك من الله شك إذ قال: ﴿لعله﴾؟ قال أبو حنيفة: لا علم لي.

قال (عليه السلام): تزعم أنك تفتي بكتاب الله ولست ممن ورثه، وتزعم أنك صاحب قياس وأول من قاس إبليس لعنه الله ولم يُبنَ دين الإسلام على القياس، وتزعم أنك صاحب رأي وكان الرأي من رسول الله «ص» صواباً، ومن دونه خطأ، لأنَّ الله تعالى قال: واحكم

بينهم بما أراك الله[١] ولم يقل ذلك لغيره، وتزعم أنك صاحب حدود، ومن انزلت عليه أولى بعلمها منك وتزعم أنك عالم بمباعث الأنبياء، ولخاتم الأنبياء أعلم بمباعثهم منك، ولولا أن يقال: دخل على ابن رسول الله فلم يسأله عن شيء ما سألتك عن شيء، فقس إن كنت مقيساً.

قال أبو حنيفة: لا أتكلم بالرأي والقياس في دين الله بعد هذا المجلس.

قال: كلا، إنَّ حب الرياسة غير تاركك كما لم يترك من كان قبلك. تمام الخبر.

* * *

وعن عيسى بن عبد الله القرشي قال دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله (عليه السلام) فقال: يا أبا حنيفة قد بلغني أنك تقيس!

فقال: نعم.

فقال: لا تقس فإنّ أول من قاس إبليس لعنه الله حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]

---

(١) الآية هي: ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾. [النساء: ١٠٥].

فقاس بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار وعرف ما بين النورين، وصفاء أحدهما على الآخر.

كم بين المشرق والمغرب

عن الحسن بن محبوب[١] عن سماعة قال: قال أبو حنيفة لأبي عبد الله (عليه السلام): كم بين المشرق والمغرب؟

قال: مسيرة يوم للشمس بل أقل من ذلك، قال: فاستعظمه.

قال: يا عاجز لم تنكر هذا إنَّ الشمس تطلع من المشرق، وتغرب في المغرب في أقل من يوم. تمام الخبر.

إحتجاجه (ع) على أناس من المعتزلة والمتكلمين في الإمامة

عن عبد الكريم بن عتبة الهاشمي: كنت عند أبي

---

(١) الحسن بن محبوب ويقال الزراد يكنى أبا علي مولى بجيله كوفي ثقة عين، روى عن الرضا (ع) وكان جليل القدر يعد في الأركان الأربعة في عصره.

عبد الله (عليه السلام): بمكة إذ دخل عليه أناس من المعتزلة، فيهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وحفص بن سالم، وأناس من رؤسائهم، وذلك أنه حين قتل الوليد، واختلف أهل الشام بينهم، فتكلموا فأكثروا وخطبوا فأطالوا.

فقال لهم أبو عبد الله جعفر بن محّمد (عليه السلام): إنكم قد أكثرتم عليَّ فأطلتم فأسندوا أمركم إلى رجل منكم، فليتكلم بحجتكم وليوجز.

فأسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فأبلغ وأطال، فكان فيما قال أن قال:

قتل أهل الشام خليفتهم، وضرب الله بعضهم ببعض، وتشتت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروة، ومعدن للخلافة، وهو محّمد بن عبد الله بن الحسن فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه ثم نظهر أمرنا معه، وندعو الناس إليه، فمن بايعه كنا معه وكان منا، ومن اعتزلنا كففنا عنه، ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ونرده إلى الحق وأهله وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غنى بنا عن مثلك، لفضلك ولكثرة شيعتك، فلما فرغ قال أبو عبد الله

(عليه السلام): أكلكم على مثل ما قال عمرو؟

قالوا: نعم، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ثم قال: إنما نسخط إذا عصي الله فإذا أطيع الله رضينا، أخبرني يا عمرو لو أن الأمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مؤونة، فقيل لك: ولّها من شئت، من كنت تولي؟

قال: كنت أجعلها شورى بين المسلمين. قال: بين كلهم؟ قال: نعم.

فقال: بين فقهائهم وخيارهم؟ قال: نعم.

قال: قريش وغيرهم؟ قال: العرب والعجم.

قال: فأخبرني يا عمرو أتتولى أبا بكر وعمر أو تتبرّأ منهما؟ قال: أتولاهما.

قال: يا عمرو إن كنت رجلاً تتبرأ منهما، فإنه يجوز لك الخلاف عليهما وإن كنت تتولاهما فقد خالفتهما، قد عهد عمر إلى أبي بكر فبايعه ولم يشاور أحداً، ثم ردها أبو بكر عليه ولم يشاور أحداً، ثم جعلها عمر شورى بين ستة. فخرج منها الأنصار غير أولئك الستة من قريش، ثم أوصى الناس فيهم بشيء ما أراك ترضى أنت ولا أصحابك. قال: وما صنع؟

قال: أمر صهيباً أن يصلّي بالناس ثلاثة أيام، وأن يتشاور أولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلا ابن عمر ويشاورونه وليس له من الأمر شيء، وأوصى من كان بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت ثلاثة أيام ولم يفرغوا ويبايعوه أن يضرب أعناق الستة جميعاً، وإن اجتمع أربعة قبل أن يمضي ثلاثة أيام وخالف اثنان أن يضرب أعناق الاثنين أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورى في المسلمين؟ قالوا: لا.

قال: يا عمرو دع ذا، أرأيت لو بايعت صاحبك هذا الذي تدعو إليه، ثم اجتمعت لكم الأمة ولم يختلف عليكم منها رجلان، فأفضيتم إلى المشركين الذين لم يسلموا ولم يؤدوا الجزية، كان عندكم وعند صاحبكم من العلم ما تسيرون فيهم بسيرة رسول الله «ص» في المشركين في الجزية؟ قالوا: نعم.

قال: فتصنعون ماذا؟ قالوا: ندعوهم إلى الإسلام فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية.

قال: فإن كانوا مجوساً وأهل كتاب وعبدة النيران والبهائم وليسوا بأهل كتاب؟ قالوا: سواء.

قال: فأخبرني عن القرآن أتقرؤونه؟ قال: نعم.

قال: اقرأ ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩] قال: فاستثنى الله عز وجل واشترط من الذين أوتوا الكتاب فهم والذين لم يؤتوا الكتاب سواء قال: نعم.

قال (عليه السلام): عمن أخذت هذا؟ قال: سمعت الناس يقولونه.

قال: فدع ذا فإنهم إن أبوا الجزية فقاتلتهم فظهرت عليهم كيف تصنع بالغنيمة؟ قال: أخرج الخمس واقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليها.

قال: تقسمه بين جمع من قاتل عليها؟ قال: نعم.

قال: فقد خالفت رسول الله في فعله وفي سيرته، وبيني وبينك فقهاء أهل المدينة ومشيختهم، فسلهم فإنهم لا يختلفون ولا يتنازعون في أنَّ رسول الله إنما صالح الأعراب على أن يدعهم في ديارهم وأن لا يهاجروا، على أنه إن دهمه من عدوه دهم فيستفزهم فيقاتل بهم، وليس لهم من الغنيمة نصيب، وأنت تقول

بين جميعهم، فقد خالفت رسول الله «ص» في سيرته في المشركين. دع ذا، ما تقول في الصدقة؟

قال: فقرأ عليه هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا. . .﴾ [التوبة: ٦٠] إلى آخرها قال: نعم، فكيف تقسم بينهم؟

قال: أقسمها على ثمانية أجزاء، فاعطي كلّ جزء من الثمانية جزءاً.

فقال (عليه السلام): إن كان صنف منهم عشرة آلاف وصنف رجلاً واحداً أو رجلين أو ثلاثة، جعلت لهذا الواحد مثل ما جعلت للعشرة آلاف؟. قال: نعم.

قال: وما تصنع بين صدقات أهل الحضر وأهل البوادي فتجعلهم فيها سواء؟ قال: نعم.

قال: فخالفت رسول الله في كل ما أتى به، كان رسول الله يقسم صدقة البوادي في أهل البوادي، وصدقة الحضر في أهل الحضر، ولا يقسم بينهم بالسوية إنما يقسمه قدر ما يحضره منهم، وعلى قدر ما يحضره فإن كان في نفسك شيء مما قلت لك فإنَّ فقهاء أهل المدينة ومشيختهم كلهم، لا يختلفون في أنَّ رسول الله كذا كان يصنع، ثم أقبل على عمرو وقال:

اتق الله يا عمرو وأنتم أيضاً الرهط! فاتقوا الله، فإنَّ أبي حدثني وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله أنَّ رسول الله «ص» قال: «من ضرب الناس بسيفه، ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين من هو أعلم منه، فهو ضال متكلف».

* * *

وروي عن يونس بن يعقوب[1] قال: كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فورد عليه رجل من أهل الشام فقال: إنِّي رجل صاحب كلام وفقه وفرائض، وقد جئت لمناظرة أصحابك.

---

(١) قال العلامة في القسم الأول من خلاصته ص ١٨٥ يونس بن يعقوب أبو علي الجلاب البجلي الدهني اختلف علماؤنا فيه، فقال الشيخ الطبرسي رحمه الله: إنه ثقة مولى شهد له وعدّله في عدة مواضع، وقال النجاشي: إنه اختص بأبي عبد الله وأبي الحسن «ع» وكان يتوكل لأبي الحسن (ع) ومات في المدينة قريباً من الرضا (ع) وكان حظياً عندهم موثقاً وكان قد قال بعبد الله ثم رجع، وقال أبو جعفر ابن بابويه إنه فطحي هو وأخوه يوسف. قال الكشي: حدثني حمدويه عن بعض أصحابنا أن يونس بن يعقوب فطحي كوفي مات بالمدينة وكفنه الرضا (ع)، وروى الكشي أحاديث حسنة تدل على صحة عقيدة هذا الرجل.

فقال له أبو عبد الله: كلامك هذا من كلام رسول الله «ص» أو من عندك؟ فقال: من كلام رسول الله بعضه ومن عندي بعضه.

فقال أبو عبد الله: فأنت إذاً شريك رسول الله «ص»؟! قال: لا.

قال: فسمعت الوحي من الله تعالى؟ قال: لا.

قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله؟ قال: لا.

قال: فالتفت إليَّ أبو عبد الله (عليه السلام) فقال: يا يونس هذا خصم نفسه قبل أن يتكلم، ثم قال: يا يونس لو كنت تحسن الكلام كلّمته. قال يونس: فيالها من حسرة. فقلت: جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام، وتقول: ويل لأصحاب الكلام يقولون: هذا ينقاد وهذا ينساق وهذا لا ينساق وهذا نعقله وهذا لا نعقله!

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): إنما قلت ويل لقوم تركوا قولي بالكلام. وذهبوا إلى ما يريدون. ثم قال: اخرج إلى الباب فمن ترى من المتكلمين فأدخله!.

قال: فخرجت فوجدت حمران بن أعين وكان يحسن الكلام، ومحّمد بن نعمان الأحول وكان

متكلماً، وهشام بن سالم وقيس الماصر وكانا متكلمين وكان قيس عندي أحسنهم كلاماً، وكان قد تعلّم الكلام من عليٍّ بن الحسين، فأدخلتهم، فلما استقر بنا المجلس وكنا في خيمة لأبي عبد الله (عليه السلام)، في طرف جبل في طريق الحرم، وذلك قبل الحج بأيام، فأخرج أبو عبد الله رأسه من الخيمة فإذا هو ببعير يخب قال: هشام ورب الكعبة.

قال: وكنا ظننا أنَّ هشاماً رجل من ولد عقيل، وكان شديد المحبة لأبي عبد الله، فإذا هشام بن الحكم، وهو أول ما اختطت لحيته، وليس فينا إلا من هو أكبر منه سناً، فوسع له أبو عبد الله (عليه السلام) وقال: ناصرنا بقلبه ولسانه ويده ثم قال لحمران: كلم الرجل - يعني الشامي -.

فكلمه حمران وظهر عليه ثم قال: يا طاقي كلمه! فكلّمه فظهر عليه محّمد بن نعمان. ثم قال لهشام بن سالم: كلّمه! فتعارفا ثم قال لقيس الماصر: كلّمه! وأقبل أبو عبد الله (عليه السلام) يتبسم من كلامهما وقد استخذل الشامي في يده ثم قال للشامي: كلّم هذا الغلام! يعني: هشام بن الحكم فقال: نعم.

ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة هذا - يعني: أبا عبد الله (عليه السلام) -؟

فغضب هشام حتى ارتعد ثم قال له: أخبرني يا هذا أربك أنظر لخلقه، أم خلقه لأنفسهم؟

فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه!

قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟

قال: كلفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلفهم به، وأزاح في ذلك عللهم.

فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟

قال الشامي: هو رسول الله «ص».

قال هشام: فبعد رسول الله «ص» من؟

قال: الكتاب والسنة.

فقال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه، حتى رفع عنا الاختلاف، ومكننا من الاتفاق؟

فقال الشامي: نعم.

قال هشام: فلِمَ اختلفنا نحن وأنت، جئتنا من الشام تخالفنا، وتزعم أنَّ الرأي طريق الدين، وأنت

مقر بأنَّ الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين؟

فسكت الشامي كالمفكر. فقال أبو عبد الله (عليه السلام): مالك لا تتكلم؟

قال: إن قلت: إنا ما اختلفنا كابرت، وإن قلت: إنَّ الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك.

فقال له أبو عبد الله: سله تجده ملياً!

فقال الشامي لهشام: من أنظر للخلق ربهم أم أنفسهم؟ فقال: بل ربهم أنظر لهم.

فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ويبين لهم حقهم من باطلهم؟

فقال هشام: نعم.

قال الشامي: من هو؟

قال هشام: أما في ابتداء الشريعة فرسول الله «ص»، وأما بعد النبي فعترته.

قال الشامي: من هو عترة النبي القائم مقامه في حجته؟

قال هشام: في وقتنا هذا أم قبله؟

قال الشامي: بل في وقتنا هذا.

قال هشام: هذا الجالس يعني: أبا عبد الله (عليه السلام) الذي تشد إليه الرحال ويخبرنا بأخبار السماء وراثة عن جده.

قال الشامي: وكيف لي بعلم ذلك؟

فقال هشام: سله عما بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذري، فعليَّ السؤال.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): أنا أكفيك المسألة يا شامي: أخبرك عن مسيرك وسفرك، خرجت يوم كذا، وكان طريقك كذا، ومررت على كذا، ومر بك كذا، فأقبل الشامي كلما وصف له شيئاً من أمره يقول: صدقت والله، فقال الشامي: أسلمت لله الساعة!

فقال له أبو عبد الله (عليه السلام): بل آمنت بالله الساعة، إنَّ الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون.

قال: صدقت، فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمّداً رسول الله، وأنك وصي الأنبياء.

قال: فأقبل أبو عبد الله (عليه السلام) على حمران فقال: يا حمران تجري الكلام على الأثر فتصيب

فالتفت إلى هشام بن سالم فقال: تريد الأثر ولا تعرف! ثم التفت إلى الأحول فقال: قياس رواغ، تكسر باطلاً بباطل. إلا أنَّ باطلك أظهر ثم التفت إلى قيس الماصر فقال: تكلم وأقرب ما يكون من الخبر عن الرسول «ص» أبعد ما تكون منه تمزج الحق بالباطل، وقليل الحق يكفي من كثير الباطل أنت والأحول قفازان حاذقان.

قال يونس بن يعقوب: فظننت والله أنه يقول لهشام، قريباً مما قال لهما. فقال: يا هشام لا تكاد تقع تلوي رجليك إذ هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلم الناس اتق الزلّة، والشفاعة من ورائك.

* * *

وعن يونس بن يعقوب قال: كان عند أبي عبد الله (عليه السلام) جماعة من أصحابه فيهم حمران بن أعين ومؤمن الطاق وهشام بن سالم والطيار وجماعة من أصحابه، فيهم هشام بن الحكم وهو شاب فقال أبو عبد الله: يا هشام! قال: لبيك يا ابن رسول الله!

قال: ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته؟ قال هشام: جعلت فداك يا ابن رسول

الله، إنِّي أجلك وأستحييك، ولا يعمل لساني بين يديك.

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): إذا أمرتكم بشيء فافعلوه!

قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة، وعظم ذلك عليَّ فخرجت إليه، ودخلت البصرة يوم الجمعة وأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة كبيرة، وإذا بعمرو بن عبيد عليه شملة سوداء مؤتزر بها من صوف وشملة مرتدٍ بها، والناس يسألونه فاستفرجت الناس فأفرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي ثم قلت:

أيها العالم أنا رجل غريب، أتأذن لي فأسألك عن مسألة؟ قال: اسأل! قال له: ألك عين؟ قال: يا بني أي شيء هذا من السؤال، إذاً كيف تسأل عنه؟ فقلت: هذا مسألتي. فقال: يا بني! سل وإن كانت مسألتك، حمقى. قلت: أجبني فيها، قال: فقال لي: سل!

فقلت: ألك عين؟ قال: نعم. قال: قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص.

قال: قلت: ألك أنف؟ قال: نعم.

قال: قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الرائحة.

قال: قلت: ألك لسان؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أتكلم به.

قال: قلت: ألك أذن؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الأصوات.

قال: قلت: ألك يدان؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع بهما؟ قال: أبطش بهما، وأعرف بهما الليّن من الخشن.

قال: قلت: ألك رجلان؟ قال: نعم. قال: قلت: فما تصنع بهما؟ قال: أنتقل بهما من مكان إلى مكان.

قال: قلت: ألك فم؟ قال: نعم. قال: قلت: فما تصنع به؟ قال: أعرف به المطاعم والمشارب على اختلافها.

قال: قلت: ألك قلب؟ قال: نعم.

قال: قلت: فما تصنع به؟ قال: أميز به كلّ ما ورد على هذه الجوارح.

قال: قلت: أفليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ قال: لا.

قلت: وكيف ذاك وهي صحيحة سليمة؟

قال: يا بني إنَّ الجوارح إذا شكت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته ردته إلى القلب، فتيقن بها اليقين وأبطل الشك.

قال: فقلت فإنما أقام الله عز وجل القلب لشك الجوارح؟ قال: نعم.

قلت: لا بد من القلب وإلا لم يستيقن الجوارح. قال: نعم.

قلت: يا أبا مروان! إنَّ الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحكم حتى جعل لها إماماً، يصحح لها الصحيح وينفي ما شكت فيه، ويترك هذا الخلق كله في حيرتهم وشكهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم، وحيرتهم ويقيم لك إماماً لجوارحك، ترد إليه حيرتك وشكك؟؟!!

قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً. قال: ثم التفت إليَّ. فقال لي: أنت هشام؟ قال: قلت: لا. فقال لي: أجالسته؟ فقلت: لا.

قال: فمن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة.

قال: فأنت إذاً هو. ثم ضمني إليه وأقعدني في مجلسه وما نطق حتى قمت، فضحك أبو عبد الله، ثم قال: يا هشام من علمك هذا؟

قلت: يا ابن رسول الله جرى على لساني. قال: يا هشام هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى.

الحسنة بعشر والسيئة بمثلها

عن الصادق (عليه السلام) أنه قال: قوله عز وجل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الحمد: ٦] يقول: أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلِّغ إلى جنتك من أن نتبع أهواءنا فنعطب، ونأخذ بآرائنا فنهلك، فإنَّ من اتبع هواه وأعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء الناس تعظمه وتصفه، فأحببت لقاءه من حيث لا يعرفني لأنظر مقداره ومحله، فرأيته في موضع قد أحدقوا به جماعة من غثاء العامة فوقفت منتبذاً عنهم متغشياً بلثام أنظر إليه وإليهم، فما زال يراوغهم حتى خالف طريقهم وفارقهم، ولم يقر. فتفرقت جماعة العامة عنه لحوائجهم.

وتبعته أقتفي أثره فلم يلبث أن مر بخباز فتغفله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة، فتعجبت منه ثم قلت في نفسي: لعله معامله، ثم مر بعده بصاحب رمان فما زال به حتى تغفله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة فتعجبت منه، ثم قلت في نفسي: لعله معامله ثم أقول وما حاجته إذاً إلى المسارقة، ثم لم أزل أتبعه حتى مرّ بمريض، فوضع الرغيفين والرمانتين بين يديه، ومضى وتبعته حتى استقر في بقعة من صحراء، فقلت له:

يا أبا عبد الله لقد سمعت بك وأحببت لقاءك، فلقيتك لكني رأيت منك ما شغل قلبي، وإنّي سائلك عنه ليزول به شغل قلبي. قال: ما هو؟

قلت: رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين، ثم بصاحب الرمان فسرقت منه رمانتين. فقال لي: قبل كل شيء حدثني من أنت؟ قلت: رجل من ولد آدم من أُمة محّمد «ص» قال: حدثني ممن أنت؟ قلت: رجل من أهل بيت رسول الله «ص». قال: أين بلدك؟ قلت: المدينة.

قال: لعلك جعفر بن محّمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)؟ قلت: بلى.

قال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرفت به وتركك علم جدك وأبيك، لأنه لا ينكر ما يجب أن يحمد ويمدح فاعله.

قلت: وما هو؟ قال: القرآن كتاب الله. قلت: وما الذي جهلت؟

قال: قول الله عز وجل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وإنِّي لما سرقت الرغيفين كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين، فهذه أربع سيئات، فلما تصدقت بكل واحد منها كانت أربعين حسنة أنقص من أربعين حسنة أربع سيئات، بقي ست وثلاثون.

قلت: ثكلتك أمك! أنت الجاهل بكتاب الله! أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] إنك لما سرقت رغيفين كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين، ولما دفعتها إلى غيرها من غير رضا صاحبها كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع سيئات، ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات، فجعل يلاحيني فانصرفت وتركته.

التوريـة

عن أبي محّمد الحسن بن علي العسكري (عليه السلام) أنه قال: قال بعض المخالفين بحضرة الصادق (عليه السلام) لرجل من الشيعة: ما تقول في العشرة من الصحابة؟

قال: أقول فيهم القول الجميل الذي يحط الله به سيئاتي، ويرفع به درجاتي.

قال السائل: الحمد لله على ما أنقذني من بغضك، كنت أظنك رافضياً تبغض الصحابة. فقال الرجل: ألا من أبغض واحداً من الصحابة فعليه لعنة الله.

قال: لعلك تتأول ما تقول، فمن أبغض العشرة من الصحابة؟

فقال: من أبغض العشرة من الصحابة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فوثب فقبل رأسه فقال: اجعلني في حل مما قذفتك به من الرفض قبل اليوم.

قال: أنت في حلّ وأنت أخي ثم انصرف السائل

فقال له الصادق (عليه السلام): جودت لله درك! لقد عجبت الملائكة من حسن توريتك وتلفظك بما خلصك ولم تثلم دينك، زاد الله في قلوب مخالفينا غماً إلى غم وحجب عنهم مراد منتحلي مودتنا في تقيتهم.

فقال أصحاب الصادق (عليه السلام): يا ابن رسول الله «ص» ما عقلنا من كلام هذا إلا موافقته لهذا المتعنت الناصب.

فقال الصادق (عليه السلام): لئن كنتم لم تفهموا ما عنى فقد فهمنا نحن، فقد شكره الله له، إنَّ ولينا الموالي لأوليائنا المعادي لأعدائنا إذا ابتلاه الله بمن يمتحنه من مخالفيه، وفقه لجواب يسلم معه دينه وعرضه، ويعظم الله بالتقية ثوابه إنَّ صاحبكم هذا قال:

من عاب واحداً منهم فعليه لعنة الله أي: من عاب واحداً منهم، هو: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام).

وقال في الثانية: من عابهم وشتمهم فعليه لعنة الله، وقد صدق لأنَّ من عابهم فقد عاب علياً (عليه السلام) لأنه أحدهم، فإذا لم يعب علياً ولم يذمه فلم يعبهم جميعاً وإنما عاب بعضهم، ولقد كان لحزقيل المؤمن

مع قوم فرعون الذين وشوا به إلى فرعون مثل هذه التورية كان حزقيل يدعوهم إلى توحيد الله ونبوة موسى، وتفضيل محّمد رسول الله «ص» على جميع رسل الله وخلقه، وتفضيل عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) والخيار من الأئمة على سائر أوصياء النبيين، وإلى البراءة من فرعون، فوشى به واشون إلى فرعون وقالوا: إنَّ حزقيل يدعو إلى مخالفتك، ويعين أعداءك على مضادتك.

فقال لهم فرعون: ابن عمي وخليفتي في ملكي وولي عهدي إن كان قد فعل ما قلتم فقد استحق العذاب على كفره نعمتي، وإن كنتم عليه كاذبين فقد استحققتم أشد العذاب لا يثاركم الدخول في مساءته، فجاء بحزقيل وجاء بهم فكاشفوه وقالوا: أنت تجحد ربوبية فرعون الملك وتكفر نعماءه.

فقال حزقيل: أيها الملك هل جربت عليَّ كذباً قط. قال: لا.

قال: فسلهم من ربهم؟ قالوا: فرعون. قال: ومن خلقكم؟ قالوا: فرعون هذا.

قال: ومن رازقكم الكافل لمعايشكم، والدافع

عنكم مكارهكم؟ قالوا: فرعون هذا.

قال حزقيل: أيها الملك فأشهدك وكل من حضرك: أنَّ ربهم هو ربي، وخالقهم هو خالقي، ورازقهم هو رازقي، ومصلح معايشهم هو مصلح معايشي، لا ربَّ لي ولا خالق غير ربهم وخالقهم ورازقهم، وأشهدك ومن حضرك: أنَّ كل ربٍّ وخالق سوى ربهم وخالقهم ورازقهم فأنا بريء منه ومن ربوبيته وكافر بإلٰهيته.

يقول حزقيل هذا وهو يعني: أنَّ ربهم هو الله ربي ولم يقل أنَّ الذي قالوا: هم أنه ربهم هو ربي، وخفي هذا المعنى على فرعون ومن حضره، وتوهموا أنه يقول: فرعون ربي وخالقي ورازقي.

فقال لهم: يا رجال السوء ويا طلاب الفساد في ملكي ومريدي الفتنة بيني وبين ابن عمي وهو عضدي، أنتم المستحقون لعذابي، لإرادتكم فساد أمري وهلاك ابن عمي والفتّ في عضدي ثم أمر بالأوتاد فجعل في ساق كل واحد منهم وتد وفي صدره وتد، وأمر أصحاب أمشاط الحديد فشقوا بها لحومهم من أبدانهم، فذلك ما قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا

مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥] لما وشوا به إلى فرعون ليهلكوه وحاق بآل فرعون سوء العذاب، وهم الذين وشوا بحزقيل إليه لما أوتد فيهم الأوتاد، ومشط عن أبدانهم لحومها بالأمشاط.

ومثل هذه التورية قد كانت لأبي عبد الله (عليه السلام) في مواضع كثيرة.

الحكمة في غيبة الإمام المهدي (عج)

عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: سمعت الصادق (عليه السلام) يقول: إنَّ لصاحب هذا الأمر غيبة لا بد منها، يرتاب فيها كل مبطل، قلت له: ولِمَ جعلت فداك؟

قال: الأمر لا يؤذن لي في كشفه لكم. قلت: فما وجه الحكمة في غيبته؟

قال: وجه الحكمة في غيبته، وجه الحكمة في غيبات من تقدمه من حجج الله تعالى ذكره، إنَّ وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلا بعد ظهوره، كما لم ينكشف وجه الحكمة لما أتاه الخضر من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار لموسى (عليه السلام) إلا وقت

افتراقهما. يا ابن الفضل إنَّ هذا الأمر أمر من الله وسر من سر الله وغيب من غيب الله، ومتى علمنا أنه عز وجل حكيم صدقنا بأنّ أفعاله كلها حكمة، وإن كان وجهها غير منكشف.

احتجاج مؤمن الطاق على زيد بن علي

عن عليٍّ بن الحكم عن أبان قال: أخبرني الأحول أبو جعفر محّمد بن النعمان الملقب بمؤمن الطاق: أنَّ زيد بن عليٍّ بن الحسين بعث إليه وهو مختف قال: فأتيته فقال لي: يا أبا جعفر ما تقول إن طرقك طارق منا أتخرج معه؟

قال: قلت له: إن كان أبوك أو أخوك خرجت معه.

قال: فقال لي: فأنا أريد أن أخرج وأجاهد هؤلاء القوم فاخرج معي! قال: قلت: لا أفعل جعلت فداك!

قال: فقال لي: أترغب بنفسك عني؟ قال: فقلت له: إنما هي نفس واحدة، فإن كان لله تعالى في الأرض حجة فالمتخلف عنك ناج والخارج معك هالك، وإن

لم يكن لله في الأرض حجة فالمتخلف عنك والخارج معك سواء.

قال: فقال لي: يا أبا جعفر كنت أجلس مع أبي على الخوان، فيلقمني اللقمة السمينة، ويبرد لي اللقمة الحارة حتى تبرد شفقة عليَّ، ولم يشفق عليَّ من حر النار إذ أخبرك بالدين ولم يخبرني به.

قال: قلت له: من شفقته عليك من حر النار لم يخبرك، خاف عليك أن لا تقبله فتدخل النار وأخبرني، فإن قبلته نجوت وإن لم أقبل لم يبال أن أدخل النار ثم قلت له:

جعلت فداك أنتم أفضل أم الأنبياء؟ قال: بل الأنبياء.

قلت: يقول يعقوب ليوسف: (عليه السلام): ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف: ٥] لِـمَ لم يخبرهم حتى كانوا لا يكيدونه ولكن كتمه، وكذا أبوك كتمك لأنه خاف عليك.

قال: فقال: أما والله ولئن قلت ذلك فقد حدثني صاحبك بالمدينة أنّي أقتل وأصلب بالكناسة، وإنَّ عنده لصحيفة فيها قتلي وصلبي.

قال: فحججت وحدثت أبا عبد الله (عليه السلام) بمقالة زيد وما قلت له فقال لي: أخذته من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه، ولم تترك له مسلكاً يسلكه.

مناظرته (ع) مع الطبيب الهندي

عن الحسن بن عليّ العدويّ، عن عباد بن صهيب، عن أبيه، عن جدّه، عن الربيع صاحب المنصور قال: حضر أبو عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام مجلس المنصور يوماً وعنده رجل من الهند يقرأ كتب الطبّ، فجعل أبو عبد الله الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام ينصت لقراءته، فلمّا فرغ الهنديّ قال له: يا أبا عبد الله أتريد ممّا معي شيئاً؟

قال: لا، فإنّ ما معي خير ممّا معك.

قال: وما هو؟ قال: أداوي الحارّ بالبارد، والبارد بالحارّ، والرطب باليابس، واليابس بالرطب، وأردّ الأمر كلّه إلى الله عزَّ وجلَّ، وأستعمل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله: «واعلم أنّ المعدة بيت الداء والحمية هي الدواء» وأعوّد البدن ما اعتاد.

فقال الهنديّ: وهل الطبّ إلّا هذا؟

فقال الصادق عليه السلام: أفتراني عن كتب الطبّ أخذت؟

قال: نعم.

قال: لا والله ما أخذت إلّا عن الله سبحانه، فأخبرني أنا أعلم بالطبّ أم أنت؟

فقال الهنديّ: لا بل أنا.

قال الصادق عليه السلام: فأسألك شيئاً.

قال: سل.

قال: أخبرني يا هنديّ كم كان في الرأس شؤون؟

قال: لا أعلم.

قال: فلم جعل الشعر عليه من فوقه؟ قال: لا أعلم.

قال: فلم خلت الجبهة من الشعر؟ قال: لا أعلم.

قال: فلم كان لها تخطيط وأسارير؟ قال: لا أعلم.

قال: فلم كان الحاجبان من فوق العينين؟ قال: لا أعلم.

قال: فلم جعلت العينان كاللّوزتين؟ قال: لا أعلم.

قال: فلم جعل الأنف فيما بينهما؟ قال: لا أعلم.

قال: فلمَ كان ثقب الأنف في أسفله؟ قال: لا أعلم.

قال: فلمَ جعلت الشفة والشارب من فوق الفم؟ قال: لا أعلم.

قال: فلمَ احتد السنّ، وعرض الضرس، وطاب الناب؟ قال: لا أعلم.

قال: فلمَ جعلت اللّحية للرجال؟ قال: لا أعلم.

قال: فلمَ خلت الكفّان من الشعر؟ قال: لا أعلم.

قال: فلمَ خلا الظفر والشعر من الحياة؟ قال: لا أعلم.

قال: فلمَ كان القلب كحبّ الصنوبر؟ قال: لا أعلم.

قال: فلم كانت الرية قطعتين، وجعل حركتها في

موضعها؟ قال: لا أعلم.

قال: فلم كانت الكبد حدباء؟ قال: لا أعلم.

قال: فلمَ كانت الكلية كحبّ اللّوبيا؟ قال: لا أعلم.

قال: فلمَ جعل طيّ الركبتين إلى خلف؟ قال لا أعلم.

قال: فلمَ تخصّرت القدم؟ قال: لا أعلم.

فقال الصادق عليه السلام: لكّني أعلم، قال: فأجب.

قال الصادق عليه السلام: كان في الرأس شؤون لأنّ المجوَّف إذا كان بلا فصل أسرع إليه الصداع، فإذا جعل ذا فصول كان الصداع منه أبعد. وجعل الشعر من فوقه لتوصل بوصوله الأدهان إلى الدماغ، ويخرج بأطرافه البخار منه، ويردّ الحرّ والبرد الواردين عليه. وخلت الجبهة من الشعر لأنّها مصبُّ النور إلى العينين. وجعل فيها التخطيط والأسارير ليحتبس العرق الوارد من الرأس عن العين قدر ما يميطه[1] الإنسان عن نفسه، كالأنهار في الأرض التي تحبس المياه، وجعل الحاجبان من فوق العينان ليراد عليهما من النور قدر

الكفاف، ألا ترى يا هنديّ أنَّ من غلبه النور جعل يده على عينيه ليرد عليهما قدر كفايتهما منه؟

وجعل الأنف فيما بينهما ليقسّم النور قسمين إلى كلّ عين سواء. وكانت العين كاللّوزة ليجري فيها الميل بالدواء، ويخرج منها الداء، ولو كانت مربّعة أو مدوّرة ما جرى فيها الميل، وما وصل إليها دواء، ولا خرج منها داء. وجعل ثقب الأنف في أسفله لتنزل منه الأدواء المنحدرة من الدماغ، ويصعد فيه الأراييح إلى المشامّ، ولو كان في أعلاه لما أنزل داء، ولا وجد رائحة. وجعل الشارب والشفق فوق الفم لحبس ما ينزل من الدماغ عن الفم لئلا يتنغص[1] على الإنسان طعامه وشرابه فيميطه عن نفسه. وجعلت اللّحية للرجال ليستغني بها عن الكشف في المنظر ويعلم بها الذكر من الأنثى. وجعل السنّ حادًّا لأنّ به يقع العضّ. وجعل الضرس عريضاً لأنّ به يقع الطحن والمضغ. وكان الناب طويلاً ليسند الأضراس والأسنان كالاسطوانة في البناء.

---

(١) يميطه: أي ينحاه ويبعده عن نفسه.
(٢) يتنغص: أي لئلا يتكدر على الإنسان طعامه وشرابه.

وخلا الكفّان من الشعر لأنّ بهما يقع اللّمس، فلو كان فيهما شعر ما دري الإنسان ما يقابله ويلمسه. وخلا الشعر والظفر من الحياة لأنّ طولهما سمج وقصّهما حسن، فلو كان فيهما حياة لألم الإنسان لقصّهما. وكان القلب كحب الصنوبر لأنّه منكس فجعل رأسه دقيقاً ليدخل في الرية فتروّح عنه ببردها، لئلا يشيط الدماغ بحرّه.

وجعلت الرية قطعتين ليدخل بين مضاغطها فيتروّح عنه بحركتها. وكانت الكبد حدباء لتثقل المعدة ويقع جميعها عليها فيعصرها ليخرج ما فيها من البخار. وجعلت الكلية كحبّ اللّوبيا لأنّ عليها مصبّ المنيّ نقطةً بعد نقطة، فلو كانت مربّعةً أو مدوّرةً احتبست النقطة الأولى إلى الثانية فلا يلتذّ بخروجها الحيّ، إذ المنيُّ ينزل من فقار الظهر إلى الكلية، فهي كالدودة تنقبض وتنبسط، ترميه أوّلاً فأوّلاً إلى المثانة كالبندقة من القوس. وجعل طيّ الركبة إلى خلف لأنّ الإنسان يمشي إلى ما بين يديه فيعتدل الحركات، ولولا ذلك لسقط في المشي؛ وجعلت القدم مخصرَّة لأنّ الشيء إذا وقع على الأرض جميعه ثقل ثقل حجر الرحى، فإذا

كان على حرفه دفعه الصبيّ وإذا وقع على وجهه صعب نقله على الرجل.

فقال له الهنديّ: من أين لك هذا العلم؟

فقال عليه السلام: أخذته عن آبائي عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله، عن جبرائيل، عن ربّ العالمين جلّ جلاله الذي خلق الأجساد والأرواح. قال الهنديّ: صدقت وأنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله وعبده، وأنّك أعلم أهل زمانك.

احتجاجه على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق

روى الحسن بن علي بن شعبة الحلبي في تحف العقول خبر دخول سفيان الثوري على الصادق (ع) الذي مر في صفته في لباسه عليه السلام ثم قال: ثم أتاه قوم ممن يظهرون التزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف فقالوا: إن صاحبنا حصر عن كلامك ولم تحضره حجة، فقال لهم: هاتوا حججكم، فقالوا: إن حجتنا من كتاب الله،

قال لهم: فأدلوا بها فإنها أحق ما اتبع وعمل به، قالوا: يقول الله تبارك وتعالى يخبر عن قوم من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] فمدح فعلهم وقال في موضع آخر: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] فنحن نكتفي بهذا، فقال أبو عبد الله (ع): أخبروني أيها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضل من ضل وهلك من هلك من هذه الأمة؟ فقالوا: أو بعضه فأما كله فلا، فقال لهم: من ها هنا أتيتم وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ، أما ما ذكرتم من إخبار الله إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم فقد كان مباحاً جائزاً ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منه على الله وذلك أن الله جل وتقدس أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمره ناسخاً لفعلهم وكان نهى تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين ونظراً لكي لا يضروا بأنفسهم وعيالاتهم منهم الضعفة الصغار والولدان والشيخ الفان والعجوز الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع فإن تصدقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا

وهلكوا جوعاً فمن ثم قال رسول الله ﷺ: خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فافضلها ما أنفقه الإنسان على والديه ثم الثانية على نفسه وعياله ثم الثالثة على القرابة وإخوانه المؤمنين ثم الرابعة على جيرانه الفقراء ثم الخامسة في سبيل الله وهو أخسها أجراً ثم قال: حدثني أبي أن النبي ﷺ قال: ابدأ بمن تعول الأدنى ثم هذا ما نطق به الكتاب رداً لقولكم ونهياً عنه مفروض من الله العزيز الحكيم قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] أفلا ترون أن الله تبارك وتعالى غير ما أراكم تدعون إليه والمسرفين في غير آية من كتاب الله يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير لكن أمر بين أمرين لا يعطي جميع ما عنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له للحديث الذي جاء عن النبي ﷺ: إن أصنافاً من أمتي لا يستجاب لهم دعاؤهم: رجل يدعو على والديه ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال ولم يشهد عليه ورجل يدعو على امرأته وقد جعل الله تخلية سبيلها بيده ورجل يقعد في

البيت ويقول يا رب ارزقني ولا يخرج يطلب الرزق فيقول الله جل وعز عبدي أو لم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لا تباع أمري ولكيلا تكون كلاً على أهلك فإن شئت رزقتك وإن شئت قترت عليك وأنت معذور عندي، ورجل رزقه الله مالاً كثيراً فأنفقه ثم أقبل يدعو يا رب ارزقني فيقول الله: ألم أرزقك رزقاً واسعاً أفلا اقتصدت فيه كما أمرتك ولم تسرف وقد نهيتك ورجل يدعو في قطيعة رحم. ثم علم الله نبيه كيف ينفق وذلك أنه كان عنده أوقية من ذهب فكره أن تبيت عنده فتصدق بها وأصبح ليس عنده شيء وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل واغتم هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه وكان رحيماً رفيقاً فأدب الله نبيه بأمره إياه فقال ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] يقول إن الناس قد يسألونك ولا يعذرونك فإذا أعطيت جميع ما عندك كنت قد حسرت من المال.

فهذه أحاديث رسول الله ﷺ يصدقها الكتاب، والكتاب يصدقه أهله من المؤمنين ثم من قد علمتم في

فضله وزهده سلمان وأبو ذر فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنته حتى يحضره عطاؤه من قابل فقيل له: يا أبا عبد الله أنت في زهدك تصنع هذا وأنك لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم علي الفناء أو ما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت.

وأما أبو ذر فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ويذبح منها إذا اشتهى أهله اللحم أو نزل به ضيف أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشاء على قدر ما يذهب عنهم قرم اللحم فيقسمه بينهم ويأخذ كنصيب أحدهم لا يفضل عليهم، ومن أزهد من هؤلاء وقد قال فيهم رسول الله ﷺ ما قال ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم، وأخبروني عن القضاة، أَجَوْر منهم حيث يفرضون على الرجل منكم نفقة امرأته إذا قال أنا زاهد وأنه لا شيء لي؟ فإن قلتم جور ظلمتم أهل الإسلام وإن

قلتم بل عدل خصمتم أنفسكم.

أخبروني لو كان الناس كلهم كما تريدون زهاداً لا حاجة لهم في متاع غيرهم فعلى من كان يتصدق بكفارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزكاة إذا كان الأمر كما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدنيا إلا قدمه وإن كان به خصاصة فبئس ما ذهبتم إليه وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله وسنة نبيه وأحاديثه التي يصدقها الكتاب المنزل أو ردكم إياها بجهالتكم وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي. وأخبروني أنتم أعلم أم سليمان ابن داود عليهما السلام حيث سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه الله ذلك وكان يقول الحق ويعمل به ثم لم نجد الله عاب ذلك عليه ولا أحد من المؤمنين وداود قبله في ملكه وشدة سلطانه ثم يوسف النبي حيث قال لملك مصر: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥] فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن فكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحق ويعمل به ثم لم

نجد أحداً عاب ذلك عليه ثم ذو القرنين عبد أحب الله فأحبه طوى له الأسباب وملكه مشارق الأرض ومغاربها وكان يقول بالحق ويعمل به ثم لم نجد أحداً عاب ذلك عليه فتأدبوا أيها النفر بآداب الله للمؤمنين واقتصروا على أمر الله ونهيه ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم مما لا علم لكم به وردوا العلم إلى أهله تؤجروا وتعذروا عند الله وكونوا في طلب علم الناسخ من القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه وما أحل الله فيه مما حرم فإنه أقرب لكم من الله وأبعد لكم من الجهل ودعوا الجهالة لأهلها فإن أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل وقد قال الله عز وجل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

جوابه في بيان الكبائر

في مناقب ابن شهر أشوب: دخل عمرو بن عبيد على الصادق (ع) وقرأ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١] وقال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله(١) فقال نعم يا عمرو ثم فصلها بأن الكبائر:

---

(١) وهي ما ورد الذم والتهديد عليه في القرآن الكريم أو في السنة الشريفة.

(الشرك بالله) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

(واليأس من روح الله) ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

(وعقوق الوالدين) لأن العاق جبار شقي ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

(وقتل النفس) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

(وقذف المحصنات) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

(وأكل مال اليتيم) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

(والفرار من الزحف) ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

(وأكل الربا) ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

(والزنا) ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

(واليمين الغموس) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

(والغلول) ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

(ومنع الزكاة) ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ لِيَأْكُلُونَكَرِهِ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

(وشهادة الزور) ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

(وكتمان الشهادة) ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ

قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

(وشرب الخمر) لقوله عليه السلام: «شارب الخمر كعابد وثن».

(وترك الصلاة) لقوله ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد بريء من ذمة الله وذمة رسوله».

(ونقض العهد وقطيعة الرحم) ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

(وقول الزور) ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

(والجرأة على الله) ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

(وكفران النعمة) ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

(وبخس الكيل والوزن) ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

(واللواط) ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الشورى: ٣٧].

(والبدعة) لقوله عليه السلام: «من تبسم في وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه».

تم بحمد الله وتوفيقه
كتاب «احتجاجات الإمام الصادق»

توحيد المفضل

إملاء أبي عبد الله الصادق عليه السلام على المفضل بن عمر الجعفي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلام ابن أبي العوجاء مع صاحبه

روى محمد بن سنان[١]، قال: حدثني المفضل بن عمر[٢] قال؛ كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في

---

(١) هو أبو جعفر الزاهري. ذكر الكشي في شأنه ما يدل على مدح عظيم وعلى قدح أيضاً، وذكر أنه روى عنه جماعة من العدو والثقاة من أهل العلم والإنصاف، وجميع الروايات المجرحة له واهية ساقطة، فقد أشار الكثير إلى قوته والذب عنه، وتفنيد ما قيل فيه من الضعف. وأن اجتماع الأعيان على الرواية عنه أدل شيء على كمال قوته عده الشيخ المفيد من خاصة الإمام الكاظم وثقاته وأهل الورع والعلم والفقه من شيعته كما عده الشيخ في الغيبة من الوكلاء المرضيين الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، بل مضوا على منهاج الأئمة، وفي الخلافة كان مكفوف البصر أعمى توفي عام ٢٢٠هـ.

(٢) اختلف العلماء فيه فقال النجاشي: فاسد المذهب مضطرب الرواية. وروى الكشي أحاديث في ذمه والبراءة منه، وعده الشيخ المفيد في «الإرشاد» من شيوخ أصحاب الإمام الصادق (ع)، وقال السيد صدر الدين العاملي في حواشي رجال أبي علي: «وبالجملة من نظر إلى حديث المفضل المشهور عن الصادق (ع) علم أن ذلك الخطاب البليغ والمعاني العجيبة=

الروضة بين القبر والمنبر، وأنا مفكر فيما خص الله تعالى به سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله، من الشرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشرّفه وحباه، مما لا يعرفه الجمهور من الأمة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته، وخطير مرتبته، فإني لكذلك إذ أقبل (ابن أبي العوجاء)[1] فجلس بحيث اسمع كلامه فلما استقر به المجلس إذ رجل من أصحابه قد جاء فجلس إليه، فتكلم (ابن أبي العوجاء) فقال: لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله، وحاز الشرف بجميع خصاله، ونال الحظوة في كل أحواله، فقال له صاحبه: إنه كان فيلسوفاً ادعى المرتبة العظمى، والمنزلة الكبرى، وأتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول، وضلّت فيها الأحلام، وغاصت الألباب على طلب علمها في بحار الفكر، فرجعت خاسئات، وهي حسّر، فلما استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء، دخل الناس في

والألفاظ الغريبة لا يخاطب الإمام بها إلا رجلاً عظيماً جليلاً كثير العلم ذكي الحسن أهلاً لتحمل الأسرار الرفيعة والدقائق البديعة والرجل عندي من عظم الشأن وجلالة القدر بمكان».

(١) مضت ترجمته صفحة (٢٠).

دينه أفواجاً، فقرن اسمه باسم ناموسه[١]، فصار يهتف به على رؤوس الصوامع، في جميع البلدان والمواضع، التي انتهت إليها دعوته، وعلتها كلمته، وظهرت فيها حجته براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، في كل يوم وليلة خمس مرات مردداً في الأذان والإقامة، ليتجدد في كل ساعة ذكره، ولئلا يخمل أمره.

فقال ابن أبي العوجاء: دع ذكر محمد (صلى الله عليه وعلى آله) فقد تحيّر فيه عقلي، وضلّ في أمره فكري. وحدثنا في ذكر الأصل الذي نمشي له... ثم ذكر ابتداء الأشياء، وزعم أن ذلك بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، ولا صانع ولا مدبر، بل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبر، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال!.

---

(١) الناموس: الشريعة.

محاورة المفضل مع ابن أبي العوجاء

قال المفضل: فلم أملك نفسي غضباً وغيظاً وحنقاً، فقلت: يا عدو الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري جل قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم، وصورك في أتم صورة، ونقلك في أحوالك حتى بلغ إلى حيث انتهيت.

فلو تفكرت في نفسك وصدقك[١] لطيف حسك، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة، وشواهده جل وتقدس في خلقك واضحة، وبراهينه لك لائحة، فقال: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك، فإن ثبتت لك حجة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا تخاطبنا، ولا بمثل دليلك تجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدى في جوابنا وإنه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق[٢]، ولا طيش ولا

---

(١) صدقك: أي قال لك صدقاً.

(٢) الخرق: ضعف الرأي وسوء التصرف والحمق.

نزق[١] يسمع كلامنا، ويصغي إلينا ويتعرف حجتنا، حتى إذا استفرغنا[٢] ما عندنا، وظننا أنا قطعناه، دحض حجتنا بكلام يسير، وخطاب قصير، يلزمنا به الحجة، ويقطع العذر، ولا نستطيع العذر، ولا نستطيع لجوابه رداً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه.

---

(١) النزق: هو الطيش والخفة عند الغضب.

(٢) لعله من الإفراغ بمعنى الصب. يقال: استفرغ مجهوده، أي بذل طاقته.

سبب إملاء الكتاب على المفضل

قال المفضل: فخرجت من المسجد محزوناً مفكراً فيما بلي به الإسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها[١] فدخلت على مولاي عليه السلام فرآني منكسراً فقال: ما لك؟ فأخبرته بما سمعت من الدهريين[٢] وبما رددت عليهما. فقال: يا مفضل لألقين عليك من حكمة الباري جل وعلا وتقدس اسمه في خلق العالم، والسباع، والبهائم، والطير، والهوام، وكل ذي روح من الأنعام والنبات[٣]، والشجرة المثمرة، وغير ذات الثمر والحبوب، والبقول، المأكول من ذلك وغير المأكول، ما يعتبر به المعتبرون ويسكن إلى معرفته

---

(١) التعطيل: مصدر، وفي الاصطلاح الديني هو إنكار صفات الخالق الباري، والمعطلة: هم أصحاب مذهب التعطيل.

(٢) واحده الدهري، وهو الملحد الذي يزعم بأن العالم موجود أزلاً وأبداً.

(٣) العطف التشريكي هنا يكشف عن رأي الإمام الصادق في النبات وأن له روحاً، وبعبارة أخرى أن لديه حساً وحركة، ولم تكتشف هذه النظرية العلمية إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وأول من قال بأن في النبات حساً تشله السموم وتميته الكهربية هو «بيشا» العالم الفسيولوجي الفرنسي المتوفي عام ١٨٠٢م.

المؤمنون، ويتحير فيه الملحدون فبكِّر عليَّ غداً.

المجلس الأول

قال المفضل: فانصرفت من عنده فرحاً مسروراً، وطالت عليّ تلك الليلة انتظاراً لما وعدني به، فلما أصبحت غدوت فأستؤذن لي فدخلت، وقمت بين يديه، فأمرني بالجلوس فجلست، ثم نهض إلى حجرة كان يخلو فيها، ونهضت بنهوضه، فقال: اتبعني، فتبعته، فدخل ودخلت خلفه، فجلس وجلست بين يديه، فقال: يا مفضل كأني بك وقد طالت عليك هذه الليلة انتظاراً لما وعدتك، فقلت: أجل يا مولاي، فقال: يا مفضل إن الله تعالى كان ولا شيء قبله، وهو باقٍ ولا نهاية له، فله الحمد على ما ألهمنا، والشكر على ما منحنا، فقد خصنا من العلوم بأعلاها ومن المعالي بأسناها، واصطفانا على جميع الخلق بعلمه، وجعلنا مهيمنين[١] عليهم بحكمه، فقلت: يا مولاي أتأذن لي أن أكتب ما تشرحه ـ وكنت أعددت معي ما أكتب فيه ـ فقال لي:

---

(١) جمع مهيمن، وهو الأمين والمؤتمن والشاهد.

افعل يا مفضل.

جهل الشكاك بأسباب الخلقة ومعانيها

إن الشكاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة، وقصرت أفهامهم عن تأمل الصواب، والحكمة فيما ذرأ[١] الباري جل قدسه، وبرأ[٢] من صنوف خلقه في البر، والبحر، والسهل، والوعر، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود، حتى أنكروا خلق الأشياء، وادعوا أن تكوّنها بالإهمال، لا صنعة فيها ولا تقدير ولا حكمة من مدبر، ولا صانع، تعالى الله عما يصفون، وقاتلهم الله أنى يؤفكون[٣] فهم في ضلالهم وغيهم وتجبرهم بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء وأحسنه، وفُرشت بأحسن الفرش وأفخره، وأُعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب التي يحتاج إليها ولا يستغنى عنها، ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير، وحكمة من التدبير، فجعلوا

---

(١) ذرأ الله الخلق: خلقهم.

(٢) برأه: خلقه من العدم.

(٣) أي ينصرفون عن الحق.

يترددون فيها يميناً وشمالاً، ويطوفون بيوتها إدباراً وإقبالاً، محجوبة أبصارهم عنها، لا يبصرون بنية الدار، وما أعدّ فيها وربما عثر بعضهم بالشيء الذي قد وضع موضعه، وأُعد للحاجة إليه، وهو جاهل للمعنى فيه ولما أعد ولماذا جعل كذلك؟ فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها. فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة وثبات الصنعة. فإنهم لما غربت(١) أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء، صاروا يجولون في هذا العالم حيارى، فلا يفهمون ما هو عليه من إتقان خلقته، وحسن صنعته، وصواب هيئته. وربما وقف بعضهم على الشيء يجهل سببه، والإرب(٢) فيه، فيسرع إلى ذمه ووصفه بالإحالة والخطأ، كالذي أقدمت عليه المنانية الكفرة، وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة، وأشباههم من أهل الضلال المعللين أنفسهم بالمحال(٣) فيحق على من أنعم الله

---

(١) أي غابت.

(٢) الإرب: بالفتح ـ المهارة أو الحاجة.

(٣) أي الشاغلين أنفسهم عن طاعة ربهم بأمور يحكم العقل السليم باستحالتها.

عليه بمعرفته، وهداه لدينه، ووفقه لتأمل التدبير في صنعة الخلائق، والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التدبير وصواب التقدير، بالدلالة القائمة الدالة على صانعها. أن يكثر حمد الله مولاه على ذلك، ويرغب إليه في الثبات عليه والزيادة منه جل اسمه يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

تهيئة العالم وتأليف أجزائه

يا مفضل أول العبر والدلالة على الباري جل قدسه، تهيئة هذا العالم، وتأليف أجزائه ونظمها، على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وخبرته بعقلك، وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم مضيئة، كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيه لشأنه معد، والإنسان كالمالك ذلك البيت، والمخوّل جميع ما فيه. وضروب النبات مهيأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحة ومنافعه. ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملاءمة،

وأن الخالق له واحد، وهو الذي ألفه ونظمه بعضاً إلى بعض، جلَّ قدسه وتعالى جده وكرم وجهه ولا إله غيره تعالى عما يقول الجاحدون، وجلَّ وعظم عما ينتحله الملحدون.

خلق الإنسان وتدبير الجنين في الرحم

نبدأ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به..

فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[1]، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء، ولا دفع أذى. ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة، فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه، الماء والنبات، فلا يزال ذلك غذاؤه.

كيفية ولادة الجنين وغذائه وطلوع أسنانه وبلوغه

حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي أديمه[2] على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق بأمه فأزعجه أشد إزعاج وأعنفه حتى يولد. فإذا

---

(١) المشيمة: غشاء ولد الإنسان يخرج معه عند الولادة، جمعه مشيم ومشايم.

(٢) الأديم: الجلد المدبوغ.

ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها وانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشد موافقة للمولود من الدم فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمظ[١] وحرك شفتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثدي أمه كالأداوتين[٢] المعلقتين لحاجته فلا يزال يتغذى باللبن، ما دام رطب البدن رقيق الأمعاء لين الأعضاء. حتى إذا تحرك، واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه، طلعت له الطواحن[٣] من الأسنان والأضراس ليمضغ[٤] بها الطعام، فيلين عليه. ويسهل له إساغته، فلا يزال كذلك حتى يدرك، فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه، فكان ذلك علامة الذكر، وعز الرجل الذي يخرج به من جدة الصبا وشبه النساء. وإن كانت أنثى يبقى وجهها نقياً من الشعر، لتبقى لها البهجة،

---

(١) تلمظ: إذا أخرج لسانه فمسح به شفتيه.

(٢) الإداوة: بكسر ففتح ـ إناء صغير من جلد يتخذ للماء، جمعه أداوي.

(٣) الطواحن: الأضراس.

(٤) مضغ الطعام: لاكه بلسانه.

والنضارة التي تحرك الرجل لما فيه دوام النسل وبقاؤه.

اعتبر يا مفضل فيما يدبر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل ترى مثله يمكن أن يكون بالإهمال؟ أفرأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم، ألم يكن سيذوي ويجف كما يجف النبات إذا فقد الماء، ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن سيبقى في الرحم كالمؤود[١] في الأرض؟ ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً أو يغتذي بغذاء لا يلائمه، ولا يصلح عليه بدنه، ولو لم تطلع له الأسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام وإساغته. أو يقيمه على الرضاع فلا يشتد بدنه ولا يصلح لعمل؟ ثم كان يشغل أمه بنفسه عن تربية غيره من الأولاد.

حال من لا ينبت في وجهه الشعر وعلة ذلك

ولو لم يخرج الشعر في وجهه في وقته ألم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء، فلا ترى له جلالة ولا وقاراً؟

---

(١) الوأد: الدفن وهو حي.

قال المفضل فقلت له: يا مولاي فقد رأيت من يبقى على حالته ولا ينبت الشعر في وجهه وإن بلغ الكبر، فقال عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢] فمن هذا الذي يرصده[١] حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب إلا الذي أنشأه خلقاً، بعد أن لم يكن، ثم توكل له بمصلحته بعد أن كان، فإن كان الإهمال يأتي بمثل هذا التدبير، فقد يجب أن يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال، لأنهما ضد الإهمال وهذا فظيع من القول وجهل من قائله. لأن الإهمال لا يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالنظام تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً.

حال المولود لو ولد فهماً عاقلاً وتعليل ذلك

ولو كان المولود يولد فهماً[٢] عاقلاً، لأنكر العالم عند ولادته ولبقي حيراناً تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، وورد عليه ما لم يرَ مثله من اختلاف صور العالم من البهائم والطير، إلى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.

---

(١) يرصده: يرقبه.

(٢) الفهم: السريع الفهم.

واعتبر ذلك بأن من سبي من بلد وهو عاقل، يكون كالواله الحيران فلا يسرع إلى تعلم الكلام، وقبول الأدب، كما يسرع الذي سبي صغيراً غير عاقل، ثم لو ولد عاقلاً كان يجد غضاضة[١] إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً معصباً بالخرق مسجى[٢] في المهد لأنه لا يستغني عن هذا كله. لرقة بدنه ورطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل فصار يخرج إلى الدنيا غبياً غافلاً عما فيه أهله، فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة. ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً، وشيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، حتى يألف الأشياء، ويتمرن ويستمر عليها، فيخرج من حد التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرف، والاضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته، وإلى الاعتبار والطاعة والسهو والغفلة والمعصية، وفي هذا أيضاً وجوه أخر، فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالدين في الاشتغال بالولد من المصلحة وما

(١) الغضاضة: هي الذلة والمنقصة.
(٢) التسجية: هي التغطية بثوب يمد على الجسم.

يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبر، والعطف عليهم، عند حاجتهم إلى ذلك منهم ثم كان الأولاد لا يألفون آباءهم ولا يألف الآباء أبناءهم، لأن الأولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم، فيتفرقون عنهم حين يولدون، فلا يعرف الرجل أباه وأمه، ولا يمتنع عن نكاح أمه وأخته، وذوات المحارم منه، إذا كان لا يعرفهن. وأقل ما في ذلك من القباحة، بل هو أشنع وأعظم وأفظع وأقبح وأبشع، لو خرج المولود من بطن أمه وهو يعقل، أن يرى منها ما لا يحل له، ولا يحسن به أن يراه، أفلا ترى كيف أقيم كل شيء من الخلقة على غاية الصواب؟ وخلا من الخطأ دقيقه وجليله.

منفعة الأطفال في البكاء

اعرف يا مفضل ما للأطفال في البكاء من المنفعة. واعلم أن في أدمغة الأطفال رطوبة، إن بقيت فيها أحدثت عليهم أحداثاً جليلة وعللاً عظيمة، من ذهاب البصر وغيره، والبكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤوسهم فيعقبهم ذلك الصحة في أبدانهم والسلامة في أبصارهم. أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء

ووالداه لا يعرفان ذلك فهما دائبان[١] ليسكتانه ويتوخيان[٢] في الأمور مرضاته لئلا يبكي، وهما لا يعلمان أن البكاء أصلح له وأجمل عاقبة. فهكذا يجوز أن يكون في كثير من الأشياء منافع لا يعرفها القائلون بالإهمال ولو عرفوا ذلك لم يقضوا على الشيء أنه لا منفعة فيه، من أجل أنهم لا يعرفونه ولا يعلمون السبب فيه، فإن كل ما لا يعرفه المنكرون يعلمه العارفون وكثيراً ما يقصر عنه على المخلوقين محيط به علم الخالق جل قدسه وعلت كلمته.

فأما ما يسيل من أفواه الأطفال من الريق، ففي ذلك خروج الرطوبة التي لو بقيت في أبدانهم لأحدثت عليهم الأمور العظيمة، كمن تراه قد غلبت عليه الرطوبة، فأخرجته إلى حد البله والجنون والتخليط إلى غير ذلك من الأمراض المتلفة كالفالج[٣] .... واللقوة[٤] وما أشبههما، فجعل الله تلك الرطوبة تسيل

---

(١) الدأب: الجد والتعب.

(٢) التوخي: التحري والقصد.

(٣) الفالج: داء يحدث في أحد شقي البدن، فيبطل إحساسه وحركته.

من أفواههم في صغرهم، لما لهم في ذلك من الصحة في كبرهم، فتفضَّل على خلقه بما جهلوه ونظر بما لم يعرفوه، ولو عرفوا نعمه عليهم لشغلهم ذلك من التمادي في معصيته، فسبحانه ما أجل نعمته وأسبغها على المستحقين وغيرهم من خلقه، تعالى عما يقول المبطلون علواً كبيراً.

آلات الجماع وهيئتها

انظر الآن يا مفضل كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعاً على ما يشاكل ذلك عليه، فجعل للذكر آلة ناشرة تمتد حتى تصل النطفة إلى الرحم، إذ كان محتاجاً إلى أن يقذف ماءه في غيره، وخلق للأنثى وعاءً قعراً[١] ليشتمل على الماءين جميعاً. ويحتمل الولد ويتسع له ويصونه حتى يستحكم، أليس ذلك من تدبير حكيم لطيف سبحانه وتعالى عما يشركون!؟.

---

(١) اللقوة: ـ بفتح فسكون ـ داء يصيب الوجه، يعوج منه الشدق إلى أحد جانبي العنق، جمعه لقاء وإلقاء.

(٢) القعر من كل شيء: عمقه ونهاية أسفله.

أعضاء البدن وفوائد كل منها

فكر يا مفضل في أعضاء البدن أجمع، وتدبير كل منها للأرب فاليدان للعلاج، والرجلان للسعي، والعينان للاهتداء، والفم للاغتذاء والمعدة للهضم، والكبد للتخليص، والمنافذ[١] لتنفيذ الفضول، والأوعية لحملها، والفرج لإقامة النسل، وكذلك جميع الأعضاء، إذا ما تأملتها وأعملت فكرك فيها ونظرك، وجدت كل شيء منها قد قدر لشيء على صواب وحكمة.

زعم الطبيعيين وجوابه

قال المفضل فقلت: يا مولاي إن قوماً يزعمون أن هذا من فعل الطبيعة، فقال عليه السلام: سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال، أم ليست كذلك؟؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة فما يمنعهم من إثبات الخالق، فإن هذه

---

(١) المنافذ هنا بمعنى النوافذ من الإنسان، أي كل سم أو خرق فيه كالفهم والأنف، والظاهر أن المراد بها هنا محل خروج البول والغائط.

صنعته!![1]، وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد، وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم، فإن الذي سموه طبيعة هو سنته في خلقه، الجارية على ما أجراها عليه.

عملية الهضم وتكون الدم وجريانه في الشرايين والأوردة

فكر يا مفضل في وصول الغذاء إلى البدن، وما فيه من التدبير، فإن الطعام يصير إلى المعدة فتطبخه، وتبعث بصفوه إلى الكبد، في عروق دقاق واشجة[2] بينهما، وقد جعلت كالمصفى للغذاء، لكيلا يصل إلى الكبد منه شيء فينكأها[3] وذلك أن الكبد رقيقة لا تحتمل العنف، ثم أن الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً، وينفذه إلى البدن كله في مجاري مهيئة

---

(١) لعل المراد أنهم إذا قالوا بذلك فقد أثبتوا الصانع، فلم يسمونه بالطبيعة، وهي ليست بذات علم ولا إرادة ولا قدرة؟.

(٢) الواشجة: مؤنث الواشج اسم فاعل بمعنى المشتبك، والمراد بالواشجة هنا الموصلة أو الواصلة.

(٣) نكأ القرحة قشرها قبل أن تبرأ فندبت.

لذلك، بمنزلة المجاري التي تهيأ للماء ليطرد في الأرض وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول إلى مفائض[١] قد أعدت لذلك فما كان منه من جنس المرة[٢] الصفراء جرى إلى المرارة وما كان من جنس السوداء جرى إلى الطحال، وما كان من البلة والرطوبة جرى إلى المثانة[٣].

فتأمل حكمة التدبير في تركيب البدن، ووضع هذه الأعضاء منه مواضعها، وإعداد هذه الأوعية فيه، لتحمل تلك الفضول، لئلا تنتشر في البدن فتسقمه وتنهكه، فتبارك من أحسن التقدير، وأحكم التدبير، وله الحمد كما هو أهله ومستحقه.

أول نشوء الأبدان: تصوير الجنين في الرحم

قال المفضل فقلت: صف نشوء الأبدان ونموها حالاً بعد حال حتى تبلغ التمام والكمال، قال عليه

---

(١) المفائض: المجاري، مأخوذة من فاض الماء.

(٢) المرة: بكسر ففتح ـ خلط من أخلاط البدن وهو الصفراء أو السوداء، جمعه مرار.

(٣) في كلام الإمام عليه السلام هنا معانٍ صريحة عن الدورة الدموية ـ التي اكتشفها العالم الإنكليزي وليم هارفي (١٥٧٨ـ ١٧٥٦).

السلام: أول ذلك تصوير الجنين في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد، ويدبره حتى يخرج سوياً مستوفياً جميع ما فيه قوامه وصلاحه من الأحشاء والجوارح والعوامل، إلى ما في تركيب أعضائه من العظام، واللحم، والشحم، والعصب، إلخ، والعروق والغضاريف[1]. فإذا خرج إلى العالم تراه كيف ينمو بجميع أعضائه وهو ثابت على شكل وهيئة لا تتزايد ولا تنقص إلى أن يبلغ أشده إن مد في عمره أو يستوفي مدته قبل ذلك، هل هذا إلا من لطيف التدبير والحكمة.

اختصاص الإنسان بالإنتصاب والجلوس دون البهائم

انظر يا مفضل ما خص به الإنسان في خلقه تشرفاً، وتفضلاً على البهائم، فإنه خلق ينتصب قائماً، ويستوي جالساً، ليستقبل الأشياء بيديه وجوارحه، ويمكنه العلاج والعمل بهما فلو كان مكبوباً على وجهه كذوات الأربع، لما استطاع أن يعمل شيئاً من الأعمال.

(١) الغضاريف: جمع غضروف وهو كل عظم رخص لين.

تخصص الإنسان بالحواس وتشربها دون غيره

انظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس التي خص بها الإنسان في خلقه، وشرف بها على غيره، كيف جعلت العينان في الرأس، كالمصابيح فوق المنارة؟ ليتمكن من مطالعة الأشياء، ولم تجعل في الأعضاء التي تحتهن، كاليدين والرجلين، فتعترضها الآفات ويصيبها من مباشرة العمل والحركة، ما يعللها ويؤثر فيها وينقص منها، ولا في الأعضاء التي وسط البدن، كالبطن، والظهر، فيعسر تقلبها، واطلاعها نحو الأشياء.

الحواس الخمس وأعمالها وما في ذلك من الأسرار

فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع، كان الرأس أسنى المواضع للحواس، وهو بمنزلة الصومعة لها. فجعل الحواس خمساً تلقي خمساً لكي لا يفوتها شيء من المحسوسات. . فخلق البصر ليدرك الألوان فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها. لم تكن فيها منفعة. وخلق السمع ليدرك الأصوات، فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها، لم يكن

فيها إرب، وكذلك سائر الحواس، ثم هذا يرجع متكافياً، فلو كان بصر ولم تكن الألوان، لما كان للبصر معنى، ولو كان سمع ولم تكن أصوات، لم يكن للسمع موضع.

تقدير الحواس بعضها يلقى بعضاً

فانظر كيف قدر بعضها يلقى بعضاً، فجعل لكل حاسة محسوساً يعمل فيه. ولكل محسوس حاسة تدركه، ومع هذا فقد جعلت أشياء متوسطة بين الحواس والمحسوسات، لا تتم الحواس إلا بها، كمثل الضياء والهواء، فإنه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر، لم يكن البصر يدرك اللون، ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع، لم يكن السمع يدرك الصوت. فهل يخفى عليه من صح نظره وأعمل فكره، أن مثل هذا الذي وصفت من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها يلقي بعضاً، وتهيئة أشياء أخر بها تتم الحواس، لا يكون إلا بعمل وتقدير من لطيف خبير.

فيمن عدم البصر والسمع والعقل وما في ذلك من الموعظة

فكر يا مفضل فيمن عدم البصر من الناس. وما يناله من الخلل في أموره، فإنه لا يعرف موضع قدميه، ولا يبصر ما بين يديه، فلا يفرق بين الألوان، وبين المنظر الحسن والقبيح، ولا يرى حفرة إن هجم عليها ولا عدواً إن أهوى إليه بسيف، ولا يكون له سبيل إلى أن يعمل شيئاً من هذه الصناعات مثل الكتابة والتجارة والصياغة. حتى أنه لولا نفاذ ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقى.

وكذلك من عدم السمع، يختل في أمور كثيرة، فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة، ويعدم لذة الأصوات واللحون المشجية والمطربة، وتعظم المؤنة على الناس في محاورته. حتى يتبرموا به، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم، حتى يكون كالغائب وهو شاهد، أو كالميت وهو حي.

فأما من عدم العقل، فإنه يلحق بمنزلة البهائم، بل يجهل كثيراً مما تهتدي إليه البهائم، أفلا ترى كيف

صارت الجوارح والعقل، وسائر الخلال[1] التي بها صلاح الإنسان، والتي لو فقد منها شيئاً لعظم ما يناله في ذلك من الخلل، يوافي خلقه على التمام حتى لا يفقد شيئاً منها، فلمَ كان كذلك؟ إلا أنه خلق بعلم وتقدير.

قال المفضل: فقلت: فلمَ صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح فيناله من ذلك مثل ما وصفته يا مولاي؟ قال عليه السلام: ذلك للتأديب والموعظة لمن يحل ذلك به ولغيره بسببه كما يؤدب الملوك الناس للتنكيل والموعظة، فلا ينكر ذلك عليهم، بل يحمد من رأيهم، ويتصوب من تدبيرهم. ثم إن للذين تنزل بهم هذه البلايا من الثواب بعد الموت ـ إن شكروا وأنابوا ـ ما يستصغرون معه ما ينالهم منها، حتى أنهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا أن يردوا إلى البلايا ليزدادوا من الثواب.

---

(١) الخلال: جمع خلة وهي الخصلة.

الأعضاء المخلوقة أفراداً وأزواجاً وكيفية ذلك

فكر يا مفضل في الأعضاء التي خلقت أفراداً وأزواجاً، وما في ذلك من الحكمة والتقدير، والصواب في التدبير.

فالرأس مما خلق فرداً، ولم يكن للإنسان صلاح في أن يكون له أكثر من واحد. ألا ترى أنه لو أضيف إلى رأس الإنسان رأس آخر لكان ثقلاً عليه، من غير حاجة إليه، لأن الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد. ثم كان الإنسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان، فإن تكلم من أحدهما كان الآخر معطلاً لا إرب فيه ولا حاجة إليه، وإن تكلم منهما جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلاً لا يحتاج إليه، وإن تكلم بأحدهما بغير الذي تكلم به من الآخر، لم يدر السامع بأي ذلك يأخذ وأشباه هذا من الأخلاط.

واليدان مما خلق أزواجاً، ولم يكن للإنسان خير في أن يكون له يد واحدة لأن ذلك كان يخل به[1] فيما يحتاج إلى معالجته من الأشياء ألا ترى أن النجار

---

(١) يقال: أخل بالشيء إذا قصر فيه.

والبناء لو شلت إحدى يديه لا يستطيع أن يعالج صناعته، وإن تكلف ذلك لم يحكمه، ولم يبلغ منه ما يبلغه إذا كانت يداه تتعاونان على العمل.

الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الإنسان وعمل كل منها

أطل الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الإنسان فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغم، ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم السين، ومن سقطت شفته لم يصحح الفاء، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء، وأشبه شيء بذلك المزمار الأعظم، فالحنجرة تشبه قصبة المزمار، والرئة تشبه الزق[1] الذي ينفخ فيه لتدخل الريح، والعضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت كالأصابع التي تقبض على الزق حتى تجري الريح في المزامير والشفتان والأسنان التي تصوغ الصوت حروفاً ونغماً كالأصابع التي تختلف في فم المزمار فتصوغ صفيره ألحاناً غير أنه وإن كان مخرج

---

(١) المراد بالزق هنا الجلد الذي يستعمل في المزمار.

الصوت يشبه المزمار بالآلة والتعريف فإن المزمار ـ في الحقيقة ـ هو المشبه بمخرج الصوت.

ما في الأعضاء من المآرب الأخرى

قد أنبأتك بما في الأعضاء من الغناء في صنعة الكلام وإقامة الحروف وفيها مع الذي ذكرت لك مآرب أخرى. فالحنجرة ليسلك فيها هذا النسيم إلى الرئة، فتروح على الفؤاد بالنَّفَس الدائم المتتابع الذي لو حبس شيئاً يسيراً لهلك الإنسان، وباللسان تذاق الطعوم، فيميز بينها، ويعرف كل واحد منها حلوها من مرها وحامضها منَ مرّها ومالحها من عذبها وطيبها من خبيثها، وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام والشراب والإنسان لمضغ الطعام حتى يلين وتسهل إساغته، وهي مع ذلك كالسند للشفتين تمسكهما وتدعمهما من داخل الفم واعتبر ذلك فإنك ترى من سقطت أسنانه مسترخي الشفة ومضطربها، وبالشفتين يترشف[1] الشراب، حتى يكون الذي يصل إلى الجوف

---

(١) ترشف الشراب أي بالغ في مصه.

منه بقصد وقدر، لا يثج[١] ثجاً، فيغص به الشارب، أو ينكأ[٢] في الجوف، ثم همى[٣] بعد ذلك كالباب المطبق على الفم يفتحها الإنسان إذا شاء ويطبقها إذا شاء. وفيما وصفنا من هذا بيان.

إن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف، وينقسم إلى وجوه من المنافع كما تتصرف الأداة الواحدة في أعمال شتى، وذلك كالفأس تستعمل في النجارة والحفر وغيرهما من الأعمال.

الدماغ وأغشيته والجمجمة وفائدتها

ولو رأيت الدماغ إذا كشف عنه لرأيته قد لُف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الأعراض، وتمسكه فلا يضطرب. ولرأيت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة، كيما تقيه هدّ الصدمة، والصكة التي ربما وقعت في الرأس ثم قد جللت الجمجمة بالشعر، حتى صارت بمنزلة الفرو للرأس يستره من شدة الحر والبرد، فمن حصن الدماغ هذا التحصين، إلا الذي خلقه

---

(١) ثج يثج ثجاً: أساله.

(٢) لعله أراد أنه يقع في غير ما حاجة.

(٣) همى الماء سال لا يثنيه شيء.

وجعله ينبوع الحس، والمستحق للحيطة والصيانة، بعلو منزلته من البدن، وارتفاع درجته، وخطير مرتبته.

الجفن وأشفاره

تأمل يا مفضل: الجفن على العين كيف جعل كالغشاء والأشفار[١] كالأشراح[٢] وأولجها[٣] في هذا الغار، وأظلها بالحجاب. وما عليه من الشعر.

الفؤاد ومدرعته

يا مفضل: من غيب الفؤاد في جوف الصدر، وكساه المدرعة[٤] التي غشاؤه، وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب، لئلا يصل إليه ما ينكأه[٥].

---

(١) الأشفار جمع شفر وهو أصل منبت الشعر في الجفن.

(٢) الأشراح: العرى.

(٣) أولجها: أدخلها.

(٤) كأن المراد بالمدرعة هنا ثوب الحديد فالمدرعة في الأصل جبة مشقوقة المقدم أو كما عند اليهود ثوب من كتان يلبسه عظيم أحبارهم ولكن الذي يريده الإمام من حد قولهم درع، إذا لبس درع الحديد.

(٥) نكأه: جرحه وآذاه.

الحلق والمريء

من جعل في الحلق منفذين أحدهما لمخرج الصوت وهو الحلقوم المتصل بالرئة، والآخر منفذاً للغذاء، وهو المريء[١] المتصل بالمعدة الموصل الغذاء إليها، وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل إلى الرئة فيقتل.

الرئة وعملها... أشراج منافذ البول والغائط

من جعل الرئة مروحة الفؤاد لا تفتر ولا تختل لكيلا تتحير[٢] الحرارة في الفؤاد، فتؤدي إلى التلف؟. من جعل لمنافذ البول والغائط أشراجاً[٣]. تضبطهما، لئلا يجريا جرياناً دائماً، فيفسد على الإنسان عيشه فكم عسى أن يحصي المحصي من هذا، بل الذي لا يحصى منه ولا يعلمه الناس أكثر.

---

(١) المري: هو العرق الذي يمتلىء ويدر باللبن جمعه مرايا، وقد أبان الإمام وظيفة المري وعمله بتعبير لطيف.

(٢) تحيرت الحرارة: ترددت كأنها لا تدري كيف تجري فتجمعت وفي نسخة تتحيز وليس لها معنى مستقيم.

(٣) الأشراج جمع شرج وهو في الأصل الشقاق في القوس، وقد استعار الإمام منها معنى لمنافذ البول والغائط.

المعدة عصبانية والكبد

من جعل المعدة عصبانية شديدة وقدرها لهضم الطعام الغليظ؟ ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لقبول الصفو[١] اللطيف من الغذاء، ولتهضم وتعمل ما هو ألطف من عمل المعدة إلا الله القادر؟ أترى الإهمال يأتي بشيء من ذلك؟ كلا! بل هو تدبير مدبر حكيم قادر، عليم بالأشياء قبل خلقه إياها، لا يعجزه شيء وهو اللطيف الخبير.

المخ والدم والأظفار والأذن ولحم الإليتين والفخذين

فكر يا مفضل لِمَ صار المخ الرقيق محصناً في أنابيب العظام؟ وهل ذلك إلا ليحفظه ويصونه؟. لم صار الدم السائل محصوراً في العروق بمنزلة الماء في الظروف[٢]. إلا لتضبطه فلا يفيض؟. لم صارت

---

(١) الصفو من كل شيء: خالصه وخياره.

(٢) الظروف جمع ظرف وهو كل ما يستقر فيه غيره ويغلب استعماله للقربة والسقاء.

الأظفار على أطراف الأصابع إلا وقاية لها ومعونة على العمل؟ لم صار داخل الأذن ملتوياً كهيأة اللولب[١] إلا ليطرد فيه الصوت، حتى ينتهي إلى السمع، وليكسر حمة الريح، فلا ينكأ في السمع؟ لم حمل الإنسان على فخذيه وإليتيه هذا اللحم، إلا ليقيه من الأرض، فلا يتألم من الجلوس عليها، كما يألم من نحل جسمه وقل لحمه، إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل يقيه صلابتها.

الإنسان ذكر وأنثى وتناسله وآلات العمل وحاجته وحيلته وإلزامه بالحجة

من جعل الإنسان ذكراً وأنثى إلا من خلقه متناسلاً؟ ومن خلقه متناسلاً إلا من خلقه مؤملاً؟ ومن أعطاه آلات العمل إلا من خلقه عاملاً؟ ومن خلقه عاملاً إلا من جعله محتاجاً؟ ومن جعله محتاجاً إلا من ضربه بالحاجة[٢]؟. ومن ضربه بالحاجة إلا من توكل

(١) اللولب: آلة من خشب أو حديد ذات محور ذي دوائر ناتئة وهو الذكر أو داخله وهو الأنثى جمعه لوالب.

(٢) أي سبب له أسباب الاحتياج أو خلقه بحيث يحتاج.

بتقويمه[١]؟ ومن خصه بالفهم إلا من أوجب الجزاء؟ ومن وهب له الحيلة إلا من ملكه الحول[٢] ومن ملكه الحول إلا من ألزمه الحجة؟ ومن يكفيه ما لا تبلغه حيلته إلا من لم يبلغ مدى شكره.

فكر وتدبر ما وصفته. هل تجد الإهمال يأتي على مثل هذا النظام والترتيب تبارك الله تعالى عما يصفون.

الفؤاد وثقبه المتصلة بالرئة

أصف لك الآن يا مفضل الفؤاد... اعلم أن فيه ثُقباً موجهة نحو الثقب التي في الرئة تروح عن الفؤاد، حتى لو اختلفت تلك الثقب وتزايل بعضها عن بعض، لما وصل الروح إلى الفؤاد، ولهلك الإنسان افيستجيز ذو فكرة وروية أن يزعم أن مثل هذا يكون بالإهمال، ولا يجد شاهداً من نفسه يزعه[٣] عن هذا القول؟ لو رأيت فرداً من مصراعين فيه كلوب[٤] أكنت تتوهم أنه

---

(١) أي تكفل برفع حاجته وتقويم أوده.

(٢) الحول مصدر بمعنى القدرة والقوة على التصرف وجودة النظر والحذق.

(٣) يزعه: يكفه ويمنعه.

(٤) الكلوب ـ بفتح الأول ـ وتشديد الثاني ـ المهماز أو حديدة

جعل كذلك بلا معنى؟ بل كنت تعلم ضرورة أنه مصنوع يلقى فرداً آخر، فيبرزه ليكون في اجتماعهما ضرب من المصلحة. وهكذا تجد الذكر من الحيوان، كأنه فرد من زوج مهيأ من فرد أنثى، فيلتقيان لما فيه من دوام النسل وبقائه، فتباً[١] وخيبة وتعساً لمنتحلي الفلسفة كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى أنكروا التدبير والعمد فيها؟.

فرج الرجل والحكمة فيه

لو كان فرج الرجل مسترخياً، كيف كان يصل إلى قعر الرحم، حتى يفرغ النطفة فيه؟ ولو كان منعضاً[٢] أبداً كيف كان الرجل يتقلب في الفراش، أو يمشي بين الناس وشيء شاخص أمامه، ثم يكون في ذلك مع قبح المنظر. تحريك الشهوة في كل وقت من الرجال والنساء جميعاً، فقدر الله جل اسمه أن يكون أكثر ذلك لا يبدو للبصر في كل وقت، ولا يكون على الرجال منه

معطوفة الرأس يجربها الجمر أو خشبة في رأسها عقافة منها أو من حديد والجمع كلاليب.

(١) التب: الهلاك والخسران.

(٢) المنعض كأنه مأخوذ من العض وهو القرن يريد أنه صلب شديد.

مؤنة، بل جعل فيه قوة الانتصاب وقت الحاجة إلى ذلك، لما قدر أن يكون فيه من دوام النسل وبقائه.

منفذ الغائط ووصفه

اعتبر الآن يا مفضل بعظم النعمة على الإنسان في مطعمه ومشربه وتسهيل خروج الأذى. أليس من حسن التقدير في بناء الدار أن يكون الخلاء في أستر موضع منها، فكذا جعل الله سبحانه المنفذ المهيأ للخلاء من الإنسان في أستر موضع منه، فلم يجعله بارزاً من خلفه، ولا ناشزاً من يديه، بل هو منيب في موضع غامض من البدن، مستور محجوب، يلتقي عليه الفخذان، وتحجبه الإليتان عليهما من اللحم فتواريانه، فإذا احتاج الإنسان إلى الخلاء، وجلس تلك الجلسة ألفى ذلك المنفذ منه منصباً، مهيأ لانحدار الثفل[1]. فتبارك من تظاهرت آلاؤه ولا تحصى نعماؤه.

الطواحن من أسنان الإنسان

فكر يا مفضل في هذه الطواحن، التي جعلت للإنسان،

---

(١) الثفل ـ بالضم ـ ما يستقر في أسفل الشيء من كدرة.

فبعضها حداد[١] لقطع الطعام وقرضه، وبعضها عِراض[٢] لمضغه ورضه، فلم ينقص واحد من الصفتين، إذ كان محتاجاً إليهما جميعاً.

الشعر والأظفار وفائدة قصهما

تأمل واعتبر بحسن التدبير في حلق الشعر والأظفار، فإنهما لما كانا مما يطول ويكثر، حتى يحتاج إلى تخفيفه أولاً فأولاً، جعلا عديما الحس، لئلا يؤلم الإنسان الأخذ منهما. ولو كان قص الشعر وتقليم الأظفار مما يوجد له ألم، وقع من ذلك بين مكروهين، إما أن يدع كل واحد منهما حتى يطول فيثقل عليه. وأما أن يخففه بوجع وألم يتألم منه.

قال المفضل فقلت: فلم لم يجعل ذلك خلقة لا تزيد فيحتاج الإنسان إلى النقصان منه، فقال عليه السلام: إن لله تبارك اسمه في ذلك على العبد نعماً لا يعرفها، فيحمده عليها.. اعلم أن آلام البدن وأدواءه[٣]

---

(١) حداد أي قاطعة.

(٢) عراض جمع عريض ضد طويل.

(٣) الأدواء جمع داء وهو المرض والعلة.

تخرج بخروج الشعر في مسامه[1] وبخروج الأظفار من أناملها، ولذلك أمر الإنسان بالنورة، وحلق الرأس، وقص الأظفار، في كل أسبوع ليسرع الشعر والأظفار في النبات، فتخرج الآلام والأدواء بخروجهما... وإذا طالا تحيرا، وقل خروجهما، فاحتبست الآلام والأدواء في البدن فأحدثت عللاً وأوجاعاً، ومنع ـ مع ذلك ـ الشعر من المواضع التي تضر بالإنسان، وتحدث عليه الفساد والضر لو نبت الشعر في العين، ألم يكن سيعمي البصر؟ ولو نبت في الفم، ألم يكن سينغص على الإنسان طعامه وشرابه؟ ولو نبت في باطن الكف، ألم يكن سيعوقه عن صحة اللمس وبعض الأعمال؟ ولو نبت في فرج المرأة وعلى ذكر الرجل، ألم يكن سيفسد عليهما لذة الجماع؟... فانظر كيف تنكب[2] الشعر عن هذه المواضع، لما في ذلك من المصلحة، ثم ليس هذا في الإنسان فقط، بل تجده في البهائم والسباع وسائر المتناسلات، فإنك ترى أجسامها مجللة بالشعر وترى هذه المواضع خالية منه لهذا السبب بعينه..

---

(١) المسام من الجلد ثقبه ومنافذه كمنابت الشعر.

(٢) تنكب عليه: عدل عنه وتجنبه.

فتأمل الخلقة كيف تتحرز[١] وجوه الخطأ والمضرة، وتأتي بالصواب والمنفعة.

شعر الركب والإبطين

إن المنانية[٢] وأشباههم، حين أجهدوا في عيب الخلقة والعمد عابوا الشعر النابت على الركب والإبطين، ولم يعلموا أن ذلك من رطوبة تنصب إلى هذه المواضع، فينبت فيها الشعر كما ينبت العشب في مستنقع المياه أفلا ترى إلى هذه المواضع أستر وأهيأ لقبول تلك الفضلة من غيرها؟... ثم إن هذه تعد مما يحمل الإنسان من مؤنة هذا البدن وتكاليفه، لما له في ذلك من المصلحة، فإن اهتمامه بتنظيف بدنه. وأخذ ما يعلوه من الشعر، مما يكسر به شِرَّته[٣] ويكفّ عاديته[٤] ويشغله عن بعض ما يخرجه إليه الفراغ من الأشر[٥] والبطالة.

---

(١) احترز منه وتحرز أي تحفظه وتوقاه كأنه جعل نفسه في حرز منه.

(٢) المنانية هي المانوية

(٣) الشرة ـ بكسر فتشديد الحدة والنشاط أو الشر.

(٤) العادية: الحدة والغضب أو الشغل أو الظلم والشر.

(٥) الأشر ـ بفتحتين ـ البطر وشدة.

الريق وما فيه من المنفعة

تأمل الريق وما فيه من المنفعة، فإنه جعل يجري جرياناً دائماً إلى الفم، ليبل الحلق واللهوات[١] فلا يجف، فإن هذه المواضيع لو جعلت كذلك، كان فيه هلاك الأسنان ثم كان لا يستطيع أن يسيغ[٢] طعاماً، إذا لم يكن في الفم بلة تنفذه، تشهد بذلك المشاهدة، واعلم أن الرطوبة مطية الغذاء وقد تجري من هذه البلة إلى مواضع أخر من المرة فيكون في ذلك صلاح تام للإنسان، ولو يبست المرة لهلك الإنسان.

محاذير كون بطن الإنسان كهيئة القباء

ولقد قال قوم من جهلة المتكلمين وضعفة المتفلسفين بقلة التمييز وقصور العلم: لو كان بطن الإنسان كهيئة القباء[٣] يفتحه الطبيب إذا شاء فيعاين ما فيه، ويدخل يده فيعالج ما أراد علاجه ألم يكن أصلح

---

(١) اللهوات جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.

(٢) سهل مطعمه.

(٣) القباء ـ بالفتح ـ ثوب يلبس فوق الثياب جمعه أقبية.

من أن يكون مُصمتاً[١] محجوباً عن البصر واليد، لا يعرف ما فيه إلا بدلالات غامضة، كمطل النظر إلى البول، وجس العرق، وما أشبه ذلك مما يكثر فيه الغلط والشبهة، حتى ربما كان ذلك سبباً للموت، فلو علم هؤلاء الجهلة أن هذا لو كان هكذا، كان أول ما فيه أن كان يسقط عن الإنسان الوجل من الأمراض والموت وكان يستشعر البقاء ويغتر بالسلامة فيخرجه ذلك إلى العتو[٢] والأشر. ثم كانت الرطوبات التي في البطن تترشح وتتحلب[٣] فيفسد على الإنسان مقعده ومرقده وثياب بدلته وزينته، بل كان يفسد عليه عيشه، ثم أن المعدة والكبد والفؤاد إنما تفعل أفعالها بالحرارة الغريزية التي جعلها الله محتبسة في الجوف، فلو كان في البطن فرج ينفتح حتى يصل البصر إلى رؤيته، واليد إلى علاجه، لوصل برد الهواء إلى الجوف، فمازج الحرارة الغريزية، وبطل عمل الأحشاء، فكان في ذلك هلاك الإنسان، أفلا ترى أن كل ما تذهب إليه الأوهام

---

(١) مصمت اسم مفعول الذي لا جوف له.

(٢) العتو: الاستكبار وتجاوز الحد.

(٣) ترشح وتحلب بمعنى واحد وهو السيلان.

ـ سوى ما جاءت به الخلقة ـ خطأ وخطل[١].

أفعال الإنسان في الطعم والنوم والجماع وشرح ذلك

فكر يا مفضل في الأفعال التي جعلت في الإنسان من الطعم والنوم والجماع وما دبر فيها... فإنه جعل لكل واحد منها في الطباع نفسه محرك يقتضيه ويستحث به، فالجوع يقتضي الطعم الذي فيه راحة البدن وقوامه والكرى[٢] يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن وإجمام[٣] قواه، والشبق[٤] يقتضي الجماع الذي فيه دوام النسل وبقاؤه.. ولو كان الإنسان إنما يصير إلى أكل الطعام، لمعرفته بحاجة بدنه إليه، ولم يجد من طباعه شيئاً يضطره إلى ذلك، كان خليقاً أن يتوانى[٥] عنه أحياناً بالثقل والكسل، حتى ينتهي بدنه فيهلك، كما يحتاج الواحد إلى الدواء لشيء مما يصلح به بدنه فيدافع به

---

(١) الخطل: المنطق الفاسد المضطرب.

(٢) الكرى: النعاس.

(٣) الإجمام من الجمام وهو الراحة.

(٤) يتوانى: يقصر.

(٥) الشبق بفتحتين شدة الشهوة.

حتى يؤديه ذلك إلى المرض والموت، وكذلك لو كان إنما يصير إلى النوم بالفكر في حاجته إلى راحة البدن وإجمام قواه كان عسى أن يتثاقل عن ذلك، فيدفعه حتى ينهك بدنه. ولو كان إنما يتحرك للجماع بالرغبة في الولد كان غير بعيد أن يفتر عنه، حتى يقل النسل أو ينقطع فإن من الناس من لا يرغب في الولد، ولا يحفل به.

فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التي بها قوام الإنسان وصلاحه، محركاً من نفس الطبع يحركه لذلك، ويحدوه عليه.

واعلم أن في الإنسان قوى أربعاً قوة جاذبة تقبل الغذاء وتورده على المعدة. وقوة ماسكة تحبس الطعام، حتى تفعل فيه الطبيعة فعلها، وقوة هاضمة، وهي التي تطبخه، وتستخرج صفوه، وتبثه في البدن، وقوة دافعة تدفعه وتحدر الثفل[١] الفاضل، بعد أخذ الهاضمة حاجتها. . ففكر في تقدير هذه القوى الأربع التي في البدن وأفعالها وتقديرها للحاجة إليها والإرب

---

(١) الثفل هو ما يستقر في أسفل الشيء من كدرة.

فيها، وما في ذلك من التدبير والحكمة، فلولا الجاذبة كيف كان يتحرك الإنسان لطلب الغذاء الذي به قوام البدن؟ ولولا الماسكة كيف كان يلبث الطعام في الجوف حتى تهضمه المعدة؟ ولولا الهاضمة كيف كان ينطبخ[١] حتى يخلص منه الصفو الذي يغذو البدن ويسد خلله[٢] ولولا الدافعة كيف كان الثفل الذي تخلفه الهاضمة يندفع ويخرج أولاً فأولاً؟ أفلا ترى كيف وَكل الله سبحانه ـ بلطف صنعه وحسن تقديره ـ هذه القوى بالبدن، والقيام بما فيه صلاحه. . . وسأمثل لك في ذلك مثالاً: أن ذلك بمنزلة دار الملك، له فيها حشم[٣] وصبية وقوام[٤] موكلون بالدار، فواحد لقضاء حوائج الحشم وإيرادها[٥] عليهم، وآخر لقبض ما يرد وخزنه، إلى أن يعالج ويهيأ، وآخر لعلاج ذلك وتهيئته وتفريقه، وآخر لتنظيف ما في الدار من الأقذار وإخراجه منها،

---

(١) انطبخ أي أنضجه.
(٢) الخلل جمع خلة ـ بالفتح ـ وهي القبة.
(٣) الحشم: الخدم والعيال أو من يغضبون له أو يغضب لهم من أهل وعبيد وجيرة.
(٤) لعل القوام جمع قيم إذ القيم على الأمر هو المتولي عليه.
(٥) أورده إيراد أي أحضره المورد.

فالملك في هذا هو الخلاق الحكيم ملك العالمين، والدار هي البدن، والحشم هم الأعضاء، والقوم هم هذه القوى الأربع. ولعلك ترى ذكرنا هذه القوى الأربع وأفعالها ـ بعد الذي وصفت ـ فضلاً وتزداداً وليس ما ذكرته من هذه القوى على الجهة التي ذكرت في كتب الأطباء ولا قولنا فيه كقولهم، لأنهم ذكروها على ما يحتاج إليه في صناعة الطب وتصحيح الأبدان، وذكرناها على ما يحتاج في صلاح الدين وشفاء النفوس من الغي[١] كالذي أوضحته بالوصف الشافي والمثل المضروب من التدبير والحكمة فيها.

قوى النفس وموقعها من الإنسان

تأمل يا مفضل هذه القوى التي في النفس، وموقعها من الإنسان، أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك، أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال[٢] الحفظ وحده، كيف كانت تكون حاله، وكم من خلل كان يدخل عليه في أموره ومعاشه وتجاربه، إذا لم يحفظ ما له وما عليه وما أخذه وما أعطى وما رأى

(١) الغي: الضلال والهلاك والخيبة.

(٢) الخلال: جمع خلة بالفتح ـ وهي الخصلة والصفة.

وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ممن أساء به، وما نفعه مما ضره ثم كان لا يهتدي لطريق لو سلكه ما لا يحصى؛ ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره ولا يعتقد ديناً، ولا ينتفع بتجربة، ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان حقيقاً أن ينسلخ من الإنسانية.

النعمة على الإنسان في الحفظ والنسيان

فانظر إلى النعمة على الإنسان في هذه الخلال، وكيف موقع الواحدة منها دون الجميع، وأعظم من النعمة على الإنسان، في الحفظ النعمة في النسيان، فإنه لولا النسيان لما سلا[1] أحد عن مصيبة، ولا انقضت له حسرة، ولا مات له حقد، ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات، ولا رجاء غفلة من سلطان، ولا فترة من حاسد، أفلا ترى كيف جعل في الإنسان الحفظ والنسيان وهما مختلفان متضادان، وجعل له في كل منهما ضرباً من المصلحة. وما عسى أن يقول الذين قسموا الأشياء بين خالقين متضادين في هذه الأشياء

---

(١) سلا الشيء وسلا عنه: نسيه وهجره وطابت نفسه عنه وذهل عن ذكره.

المتضادة المتباينة، وقد تراها تجتمع على ما فيه الصلاح والمنفعة[١].

اختصاص الإنسان بالحياء دون بقية الحيوانات

انظر يا مفضل إلى ما خص به الإنسان دون جميع الحيوان من هذا الخلق، الجليل قدره العظيم غناؤه، أعني: الحياء. فلولاه لم يُقر ضيف[٢] ولم يوف بالعداة، ولم تقض الحوائج، ولم يتحر الجميل، ولم يتنكب[٣] القبيح في شيء من الأشياء، حتى أن كثيراً من الأمور المفترضة أيضاً إنما يفعل للحياء فإن من الناس من لولا الحياء لم يرع حق والديه ولم يصل ذا رحم، ولم يؤد أمانة، ولم يعف عن فاحشة... أفلا ترى كيف وفى الإنسان جميع الخلال التي فيها صلاحه وتمام أمره.

---

(١) قرى الضيف: أضافه.

(٢) يتنكب: يتجنب.

اختصاص الإنسان بالمنطق والكتابة

تأمل يا مفضل ما أنعم الله ـ تقدست أسماؤه ـ به على الإنسان، من هذا المنطق الذي يعبر به عما في ضميره، وما يخطر بقلبه، وينتجه فكره وبه يفهم عن غيره ما في نفسه، ولولا ذلك كان بمنزلة البهائم المهملة، التي لا تخبر عن نفسها بشيء، ولا تفهم عن مخبر شيئاً، وكذلك الكتابة التي بها تقيد أخبار الماضين للباقين وأخبار الباقين للآتين، وبها تخلد الكتب في العلوم والآداب وغيرها، وبها يحفظ الإنسان ذكر ما يجري بينه وبين غيره من المعاملات والحساب ولولاه لانقطع أخبار بعض الأزمنة عن بعض، وأخبار الغائبين عن أوطانهم، ودرست العلوم، وضاعت الآداب وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في أمورهم ومعاملاتهم، وما يحتاجون إلى النظر فيه من أمر دينهم، وما روي لهم، مما لا يسعهم جهله، ولعلك تظن أنها مما يخلص إليه بالحيلة والفطنة، وليست مما أعطيه الإنسان من خلقه وطباعه.

وكذلك الكلام، إنما هو شيء يصطلح عليه الناس، فيجري بينهم ولهذا صار يختلف في الأمم

المختلفة، وكذلك لكتابة العربي والسرياني والعبراني والرومي، وغيرها من سائر الكتابة، التي هي متفرقة في الأمم إنما اصطلحوا عليها، كما اصطلحوا على الكلام، فيقال لمن ادعى ذلك: إن الإنسان وإن كان له في الأمرين جميعاً فعل أو حيلة، فإن الشيء الذي يبلغ به ذلك الفعل والحيلة، عطية وهبة من الله عز وجل له في خلقه، فإنه لو لم يكن له لسان مهيأ للكلام، وذهن يهتدي به للأمور، لم يكن ليتكلم أبداً ولو لم تكن له كف مهيئة وأصابع للكتابة، لم يكن ليكتب أبداً.

واعتبر ذلك من البهائم التي لا كلام لها ولا كتابة، فأصل ذلك فطرة الباري جل وعز، وما تفضل به على خلقه، فمن شكر أُثيب، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

إعطاء الإنسان ما يصلح دينه ودنياه ومنعه مما سوى ذلك

فكر يا مفضل فيما أعطي الإنسان علمه وما منع، فإنه أُعطي جميع علم ما فيه صلاح دينه ودنياه فمما فيه صلاح دينه معرفة الخالق تبارك وتعالى بالدلائل والشواهد القائمة في الخلق، ومعرفة الواجب عليه، من

العدل على الناس كافة. وبر الوالدين، وأداء الأمانة، ومواساة أهل الخلة، وأشباه ذلك، مما قد توجد معرفته، والإقرار، والاعتراف به في الطبع والفطرة، من كل أمة موافقة أو مخالفة، وكذلك أُعطي علم ما فيه صلاح دنياه، كالزراعة والغراس، واستخراج الأرضين، واقتناء الأغنام والأنعام، واستنباط المياه، ومعرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الأسقام، والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر، وركوب السفن، والغوص في البحر، وضروب الحيل في صيد الوحش والطير والحيتان، والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب، وغير ذلك مما يطول شرحه ويكثر تعداده، مما فيه صلاح أمره في هذه الدار. فأعطي علم ما يصلح به دينه ودنياه، ومنع ما سوى ذلك، مما ليس في شأنه ولا طاقته أن يعلم. كعلم الغيب وما هو كائن. وبعض ما قد كان أيضاً، كعلم ما فوق السماء وما تحت الأرض. وما في لجج البحار وأقطار العالم، وما في قلوب الناس وما في الأرحام وأشباه هذا مما حجب عن الناس علمه.

وقد ادعت طائفة من الناس هذه الأمور، فأبطل دعواهم ما يبين من خطئهم، فيما يقصون عليه ويحكمون به فيما ادعوا عليه.

فانظر كيف أعطي الإنسان علم جميع ما يحتاج إليه لدينه ودنياه، وحجب عنه ما سوى ذلك، ليعرف قدره ونقصه وكلا الأمرين فيها صلاحه.

ما ستر عن الإنسان علمه من مدة حياته

تأمل الآن يا مفضل ما ستر عن الإنسان علمه من مدة حياته، فإنه لو عرف مقدار عمره ـ وكان قصير العمر ـ لم يتهنأ بالعيش، مع ترقب الموت وتوقعه، لوقت قد عرفه، بل كان يكون بمنزلة من قد فني ماله، أو قارب الفناء، فقد استشعر الفقر، والوجل من فناء ماله وخوف الفقر على أن الذي يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال، لأن من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه، فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس وإن كان طويل العمر، ثم عرف ذلك، وثق بالبقاء، وانهمك في اللذات والمعاصي، وعمل على أنه يبلغ من ذلك شهوته، ثم يتوب في آخر عمره، وهذا مذهب لا يرضاه

الله من عباده ولا يقبله، ألا ترى لو أن عبداً لك عمل على أنه يسخطك سنة ويرضيك يوماً أو شهراً، لم تقبل ذلك منه، ولم يحل عندك محل العبد الصالح دون أن يضمر طاعتك ونصحك في كل الأمور؟ وفي كل الأوقات، على تصرف الحالات فإن قلت: أو ليس قد يقيم الإنسان على المعصية حيناً ثم يتوب فتقبل توبته؟ قلنا: إن ذلك شيء يكون من الإنسان لغلبة الشهوات له وتركه مخالفتها. من غير أن يقدرّها في نفسه، ويبني عليه أمره، فيصفح الله عنه، ويتفضل عليه بالمغفرة. فأما من قدر أمره على أن يعصي ما بدا له، ثم يتوب آخر ذلك، فإنما يحاول خديعة من لا يخادع، بأن يتسلف[1] التلذذ في العاجل، ويعد ويمني نفسه التوبة في الآجل، ولأنه لا يفي بما يعد من ذلك، فإن النزوع من الترفه والتلذذ ومعاناة[2] التوبة، ولا سيما عند الكبر وضعف البدن، أمر صعب، ولا يؤمن على الإنسان، مع مدافعته بالتوبة أن يرهقه الموت، فيخرج من الدنيا

---

(١) التسلف: الاقتراض كأنه يجري معاملة مع ربه، بأن يتصرف في اللذات عاجلاً ويعد ربه في عوضها التوبة ليؤدي إليه آجلاً.

(٢) المعاناة: مقاساة العناء والمشقة.

غير تائب، كما قد يكون على الواحد دَيْن إلى أجل، وقد يقدر على قضائه، فلا يزال يدافع بذلك حتى يحل الأجل، وقد نفذ المال، فيبقى الدَّيْن قائماً عليه. فكان خير الأشياء للإنسان أن يستر عنه مبلغ عمره، فيكون طول عمره يترقب الموت، فيترك المعاصي، ويؤثر العمل الصالح فإن قلت: وها هو الآن قد ستر عنه مقدار حياته، وصار يترقب الموت في كل ساعة يقارف الفواحش وينتهك المحارم قلنا: إن وجه التدبير في هذا الباب، هو الذي جرى عليه الأمر فيه فإن كان الإنسان مع ذلك لا يرعوي[1] ولا ينصرف عن المساوي، فإنما ذلك من مرحه ومن قساوة قلبه، لا من خطأ في التدبير، كما أن الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به، فإن كان المريض مخالفاً لقول الطبيب، لا يعمل بما يأمره ولا ينتهي عما ينهاه عنه، لم ينتفع بصفته، ولم تكن الإساءة في ذلك للطبيب بل للمريض، حيث لم يقبل منه. ولئن كان الإنسان مع ترقبه للموت كل ساعة لا يمتنع عن المعاصي، فإنه لو وثق بطول البقاء كان

---

(١) الارعواء: الكف عن الشيء، أو الندم على الشيء والإنصراف عنه وتركه.

أحرى بأن يخرج إلى الكبائر الفظيعة. . فترقب الموت على كل حال خير له من الثقة بالبقاء ثم أن ترقب الموت وإن كان صنف من الناس يلهون عنه، ولا يتعظون به فقد يتعظ به صنف آخر منهم، وينزعون عن المعاصي، ويؤثرون العمل الصالح، ويجودون بالأموال والعقائل[١] النفيسة في الصدقة على الفقراء والمساكين فلم يكن من العدل أن يحرم هؤلاء الانتفاع بهذه الخصلة لتضييع أولئك حظهم منها.

الأحلام وامتزاج صادقها بكاذبها وسر ذلك

فكر يا مفضل في الأحلام كيف دبر الأمر فيها فمزج صادقها بكاذبها، فإنها لو كانت كلها تصدق لكان الناس كلهم أنبياء، ولو كانت كلها تكذب، لم يكن فيها منفعة، بل كانت فضلاً لا معنى له، فصارت تصدق أحياناً، فينتفع بها الناس في مصلحة يهتدي لها، أو مضرة يتحذر منها، وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد.

---

(١) العقائل جميع عقيلة والعقيلة من كل شيء هي الكريمة.

الأشياء المخلوقة لمآرب الإنسان وإيضاح ذلك

فكر يا مفضل في هذه الأشياء التي تراها موجودة معدة في العالم من مآربهم، فالتراب للبناء. والحديد للصناعات، والخشب للسفن وغيرها والحجارة للأرحاء[١] وغيرها، والنحاس للأواني. والذهب والفضة للمعاملة والذخيرة، والحبوب للغذاء، والثمار للتفكه، واللحم للمآكل، والطيب للتلذذ، والأدوية للتصحح[٢] والدواب للحمولة. والحطب للتوقد والرماد للكلس[٣]، والرمل للأرض، وكم عسى أن يحصي المحصي من هذا وشبهه... أرأيت لو أن داخلاً دخل داراً، فنظر إلى خزائن مملوءة من كل ما يحتاج إليه الناس، ورأى كل ما فيها مجموعاً معداً لأسباب معروفة أكان يتوهم أن مثل هذا يكون بالإهمال، ومن غير عمد؟ فكيف يستجيز قائل أن يقول هذا من صنع

---

(١) الأرحاء جمع رحى وهي الطاحونة.

(٢) التصحح من صحح المريض: أزال مرضه.

(٣) الكلس: ـ بالكسر ـ ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها بإحراقها.

الطبيعة في العالم، وما أعد فيه من هذه الأشياء.

اعتبر يا مفضل بأشياء خلقت لمآرب الإنسان، وما فيها من التدبير فإنه خلق له الحب لطعامه، وكلف طحنه وعجنه وخبزه، وخلق له الوبر لكسوته، فكلف ندفه وغزله ونسجه، وخلق له الشجر، فكلف غرسها وسقيها والقيام عليها، وخلقت له العقاقير لأدويته، فكلف لقطها[(١)] وخلطها وصنعها، وكذلك تجد سائر الأشياء على هذا المثال.

فانظر كيف كفى الخلقة التي لم يكن عنده فيها حيلة. وترك عليه في كل شيء من الأشياء موضع عمل وحركة، لما له في ذلك من الصلاح، لأنه لو كفى هذا كله، حتى لا يكون له في الأشياء موضع شغل وعمل، لما حملته الأرض أشراً وبطراً ولبلغ به ذلك إلى أن يتعاطى أموراً فيها تلف نفسه، ولو كفى الناس كل ما يحتاجون إليه لما تهنأوا بالعيش ولا وجدوا له لذة... ألا ترى لو أن أمرءاً نزل بقوم، فأقام حيناً بلغ جميع ما يحتاج إليه من مطعم ومشرب وخدمة، لتبرم بالفراغ

---

(١) اللقط مصدر من لقط الشيء: أخذه من الأرض بلا تعب. ولقط الطائر الحب: أخذه بمنقاره.

ونازعته نفسه إلى التشاغل بشيء، فكيف لو كان طول عمره مكفياً لا يحتاج إلى شيء؟ فكان من صواب التدبير في هذه الأشياء التي خلقت للإنسان: أن جعل له فيها موضع شغل، لكيلا تبرمه البطالة، ولتكفه عن تعاطي ما لا يناله، ولا خير فيه إن ناله.

الخبز والماء رأس معاش الإنسان وحياته

واعلم يا مفضل أن رأس معاش الإنسان وحياته: الخبز والماء... فانظر كيف دبر الأمر فيهما، فإن حاجة الإنسان إلى الماء أشد من حاجته إلى الخبز، وذلك أن صبره على الجوع أكثر من صبره على العطش، والذي يحتاج إليه من الماء أكثر مما يحتاج إليه من الخبز، لأنه يحتاج إليه لشربه ووضوئه وغسله وغسل ثيابه وسقي أنعامه وزرعه فجعل الماء مبذولاً لا يشترى لتسقط عن الإنسان المؤنة في طلبه وتكلفه، وجعل الخبز متعذراً لا ينال إلا بالحيلة والحركة، ليكون للإنسان في ذلك شغل يكفه عما يخرجه إليه الفراغ من الأشر والعبث... ألا ترى أن الصبي يُدفع إلى المؤدب، وهو طفل لم تكمل ذاته للتعليم، كل ذلك ليشتغل عن اللعب والعبث الذين ربما جنيا عليه

وعلى أهله المكروه العظيم. وهكذا الإنسان لو خلا من الشغل، لخرج من الأشر والعبث والبطر، إلى ما يعظم ضرره عليه وعلى من قرب منه. واعتبر ذلك بمن نشأ في الجدة[١] ورفاهية العيش والترفه والكفاية، وما يخرجه ذلك إليه.

اختلاف صور الناس وتشابه الوحوش والطير وغيرها من الحكمة في ذلك

اعتبر لِمَ لا يتشابه الناس واحد بالآخر، كما تتشابه الوحوش والطير وغير ذلك، فإنك ترى السرب من الظباء والقطا تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الأخرى، وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم، حتى لا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة. والعلة في ذلك أن الناس محتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم، لما يجري بينهم من المعاملات وليس يجري بين البهائم مثل ذلك، فيحتاج إلى معرفة كل واحد منها بعينه وحليته. ألا ترى أن التشابه في الطير والوحش لا يضرها شيئاً، وليس كذلك الإنسان،

---

(١) الجدة ـ بالتخفيف ـ الغنى.

فإنه ربما تشابه التوأم تشابهاً شديداً فتعظم المؤنة على الناس في معاملتهما، حتى يعطي أحدهما بالآخر، ويؤخذ أحدهما بذنب الآخر[١]، وقد يحدث مثل هذا في تشابه الأشياء. فضلاً عن تشابه الصور، فمن لطف بعباده بهذه الدقائق التي لا تكاد تخطر بالبال، حتى وقف بها على الصواب، إلا من وسعت رحمته كل شيء.

لو رأيت تمثال الإنسان مصوراً على حائط، وقال لك قائل: إن هذا ظهر هنا من تلقاء نفسه لم يصنعه صانع!... أكنت تقبل ذلك، بل كنت تستهزىء به، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور جماد، ولا تنكر في الإنسان الحي الناطق.

نمو أبدان الحيوان وتوقفها وسبب ذلك

لِمَ صارت أبدان الحيوان ـ وهي تغتذي أبداً ـ لا تنمي، بل تنتهي إلى غاية من النمو، ثم تقف ولا تتجاوزها، لولا التدبير، في ذلك، فإن تدبير الحكيم فيها أن تكون أبدان كل صنف منها على مقدار معلوم

---

(١) أي لم يعرف غاية ما ينتهي إليه مقداره، فيشتبه الأمر عليه، فيما يريد أن يهيئه لنفسه من دار وثياب وزوجة.

غير متفاوت في الكبير والصغير، وصارت تنمي حتى تصل إلى غايتها، ثم تقف ثم لا تزيد، والغذاء مع ذلك دائم لا ينقطع ولو تنمي نمواً دائماً لعظمت أبدانها، واشتبهت مقاديرها[١] حتى لا يكون لشيء منها حد يعرف.

ما يعتري أجسام الإنس من ثقل الحركة والمشيء لو لم يصبها ألم

لِمَ صارت أجسام الإنس خاصة تثقل عن الحركة والمشي، وتجفو عن الصناعات اللطيفة[٢]، إلا لتعظيم المؤنة فيما يحتاج إليه الناس للملبس والمضجع والتكفين وغير ذلك، لو كان الإنسان لا يصيبه ألم ولا وجع، بم كان يرتدع عن الفواحش، ويتواضع لله، ويتعطف على الناس. . . أما ترى الإنسان إذا عرض له وجع خضع واستكان ورغب إلى ربه في العافية، وبسط

---

(١) أي يبتعد ويجتنب ولا يداوم على الصناعات اللطيفة أي التي فيها دقة ولطافة. والمراد أن الله تعالى جعل أجسام الإنسان بحيث تثقل عن الحركة والمشي قبل سائر الحيوانات، وتكل عن الأعمال الدقيقة لتعظم عليه مؤونة تحصيل ما يحتاج إليه، فلا يبطر ولا يطمع، أو ليكون لهذه الأعمال أجر، فيصير سبباً لمعائش أقوام يزاولونها.

يده بالصدقة، ولو كان لا يألم من الضرب بم كان السلطان يعاقب الدعار[1] ويذل العصاة المردة، وبم كان الصبيان يتعلمون العلوم والصناعات، وبم كان العبيد يذلون لأربابهم، ويذعنون لطاعتهم. أفليس هذا توبيخ (ابن أبي العوجاء) وذويه الذين جحدوا التدبير.

(والمانوية) الذين أنكروا الوجع والألم.

انقراض الحيوان لو لم يلد ذكوراً وإناثاً

ولو لم يولد من الحيوان إلا ذكر فقط أو أنثى فقط ألم يكن النسل منقطعاً وباد مع أجناس الحيوان، فصار بعض الأولاد يأتي ذكوراً وبعضها يأتي إناثاً ليدوم التناسل ولا ينقطع.

(١) الدعار جمع داعر وهو الخبيث.

ظهور شعر العانة عند البلوغ ونبات اللحية للرجل دون المرأة وما في ذلك من التدبير

لِمَ صار الرجل والمرأة إذا أدركا تنبت لهما العانة، ثم تنبت اللحية للرجل، وتتخلف عن المرأة. لولا التدبير في ذلك، فإنه لما جعل الله تبارك وتعالى الرجل قيماً ورقيباً على المرأة، وجعل المرأة عِرساً وخولاً(١) للرجل، أعطى الرجل اللحية، لما له من العز والجلالة والهيبة، ومنعها المرأة، لتبقى لها نضارة الوجه والبهجة التي تشاكل المفاكهة(٢) والمضاجعة أفلا ترى الخلقة وكيف تأتي بالصواب في الأشياء، وتتخلل مواضع الخطأ فتعطي وتمنع على قدر الإرب والمصلحة بتدبير الحكيم عز وجل.

قال المفضل: ثم حان وقت الزوال، فقام مولاي إلى الصلاة، وقال: بَكِّر إليَّ غداً إن شاء الله تعالى.. فانصرفت من عنده مسروراً بما عرفته، مبتهجاً بما أوتيته،

---

(١) الخول ـ بفتحتين ـ العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية.

(٢) المفاكهة: هي الممازحة والمضاحكة.

حامداً الله تعالى عز وجل على ما أنعم به عليَّ شاكراً لأنعمه على ما منحني بما عرفنيه مولاي، وتفضل به عليَّ، فبت في ليلتي مسروراً بما منحنيه، محبور بما علمنيه.

المجلس الثاني

قال المفضل: فلما كان اليوم الثاني بكرَّت إلى مولاي فاستؤذن لي فدخلت، فأمرني بالجلوس فجلست فقال: ـ.

الحمد لله مدبِّر الأدوار[١]، ومعيد الأكوار[٢]، طبقاً عن طبق[٣]، وعالماً بعد عالم، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، عدلاً منه، تقدست أسماؤه، وجلت آلاؤه، لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، يشهد بذلك

(١) الأدوار جمع دور مصدر بمعنى الحركة.

(٢) الأكوار جمع كور ـ بالفتح ـ مصدر بمعنى الجماعة الكثيرة أو القطيع من الإبل والبقر ويقال كل دور كور والمراد إما استيناف قرن بعد قرن وزمان بعد زمان.

(٣) الطبق: وجه الأرض ولعل المراد به معنى الحال يقال: الدهر أطباق ـ أي أحوال تختلف.

قوله جل قدمه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ خَشِيَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] في نظائر لها في كتابه الذي فيه تبيان كل شيء ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (تنزيل من حكيم حميد) ولذلك قال سيدنا محمد صلوات الله عليه وعلى آله. «إنما هي أعمالكم ترد إليكم».

ثم أطرق الإمام هنيئة وقال: يا مفضل الخلق حيارى عمهون[١] سكارى في طغيانهم يترددون، وبشياطينهم وطواغيتهم يقتدون، بصراء عمي لا يبصرون، نطقاء بكم[٢] لا يعقلون، سمعاء[٣] صم[٤] لا يسمعون، رضوا بالدون[٥]، وحسبوا، أنهم مهتدون، حادوا[٦] . . . .

---

(١) عمهون: جمع عمه - بفتح فكسر - وهو المتردد في الضلال والمتحير في أمره أو طريقه.

(٢) بكم: جمع أبكم وهو الأخرس.

(٣) سمعاء: جمع سميع بمعنى السامع والمسمع وهو للمبالغة.

(٤) الصم: جمع أصم وهو الذي أنسدت أذنه وثقل سمعه أو ذهب عنه بتاتاً.

(٥) الدون: أريد به هنا معنى الخسيس الحقير السافل.

(٦) حادوا: مالوا.

عن مدرجة[١] الأكياس[٢] ورتعوا في مرعى الأرجاس[٣] الأنجاس، كأنهم من مفاجآت الموت آمنون، وعن المجازات مزحزحون، يا ويلهم ما أشقاهم، وأطول عناءهم وأشد بلاءهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ [الدخان: ٤١، ٤٢].

قال المفضل: فبكيت لما سمعت منه!... فقال: لا تبكِ تخلصت إذ قبلت، ونجوت إذ عرفت.

أبنية أبدان الحيوان وتهيئتها وإيضاح ذلك

ثم قال: أبتدىء لك بذكر الحيوان ليتضح لك من أمره ما وضح لك من غيره. فكر في أبنية أبدان الحيوان، وتهيئتها على ما هي عليه فلا هي صلاب

---

(١) مدرجة جمع مدارج، ما يساعد على التوصل إلى ما هو أفضل أو أعلى منه.

(٢) الأكياس: جمع كيس بتشديد الياء ـ أي الفطن الحسن الفهم والأدب.

(٣) الأرجاس لعله جمع رجس ـ بالكسر ـ القذر والمأثم أو كل ما استقذر من العمل والعمل المؤدي إلى العذاب.

كالحجارة. ولو كانت كذلك لا تنثني[1]، ولا تتصرف في الأعمال، ولا هي على غاية اللين والرخاوة، فكانت لا تتحامل، ولا تستقل بأنفسها، فجعلت من لحم رخو ينثني، تتداخله عظام صلاب يمسكه عصب وعروق تشده، وتضم بعضه إلى بعض، وغلفت فوق ذلك بجلد يشتمل على البدن كله وأشباه ذلك، هذه التماثيل التي تعمل من العيدان، وتلف بالخرق وتشد بالخيوط، وتطلى فوق ذلك بالصمغ فتكون العيدان بمنزلة العظام، والخرق بمنزلة اللحم، والخيوط بمنزلة العصب والعروق، والطلاء بمنزلة الجلد، فإن جاز أن يكون الحيوان المتحرك حدث بالإهمال من غير صانع جاز أن يكون ذلك في هذه التماثيل الميتة، فإن كان هذا غير جائز في التماثيل فبالحري أن لا يجوز في الحيوان.

أجساد الأنعام وما أعطيت وما منعت وسبب ذلك

وفكر يا مفضل ـ بعد هذا ـ في أجساد الأنعام[2]

---

(١) لا تنثني: لا تنعطف ولا تميل.

(٢) الأنعام: جمع نعام ـ بفتحتين ـ الإبل وتطلق على البقر والغنم.

فإنها حين خلقت على أبدان الإنس من اللحم والعظم والعصب، أعطيت أيضاً السمع والبصر ليبلغ الإنسان حاجته، فإنها لو كانت عمياً صماً لما انتفع بها الإنسان ولا تصرفت في شيء من مآربه، ثم منعت الذهن والعقل لتذل للإنسان، فلا تمتنع عليه، إذا كدها الكد الشديد، وحمّلها الحمل الثقيل. فإن قال قائل إنه قد يكون للإنسان عبيد من الإنس، يذلون ويذعنون بالكد الشديد، وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن. فيقال في جواب ذلك أن هذا الصنف من الناس قليل، فأما أكثر الناس فلا يذعنون بما تذعن به الدواب من الحمل والطحن وما أشبه ذلك، ولا يغرون[١] بما يحتاج إليه منه.. ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذه الأعمال بأبدانهم لشغلوا بذلك عن سائر الأعمال، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد إلى عدة أناسي، فكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم عنه فضل لشيء من الصناعات مع ما يلحقه من

---

(١) لا يغرون ـ بالغين على بناء المفعول ـ أي لا يؤثر فيهم الإغراء والتحريض على جميع الأعمال التي يحتاج إليها الخلق من ذلك العمل الذي تأتي به الدواب.

التعب الفادح في أبدانهم والضيق والكد في معاشهم.

خلق الأصناف الثلاثة من الحيوان

فكر يا مفضل في هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان وفي خلقها، على ما هي عليه مما فيه صلاح كل واحد منها. فالإنس لما قدروا أن يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء والتجارة والصياغة والخياطة، وغير ذلك خلقت لهم أكف كبار ذوات أصابع غلاظ ليتمكنوا من القبض على الأشياء، وأوكدها هذه الصناعات.

آكلات اللحم من الحيوان والتدبير في خلقها

وآكلات اللحم لما قدر أن تكون معائشها من الصيد، خلقت لهم أكف لطاف مدمجة(١) ذوات براثن(٢) ومخالب(٣) تصلح لأخذ الصيد ولا تصلح

---

(١) مدمجة أي مستقيمة محكمة متداخلة.

(٢) البراثن جمع برثن بالضم ـ من السباع والطير بمنزلة الأصبع من الإنسان.

(٣) المخالب جمع مخلب ـ بالكسر ـ وهو الظفر خصوصاً من السباع.

للصناعات، وآكلات النبات لما قدر أن يكونوا، لا ذوات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها أظلاف تقيها خشونة الأرض إذا حاولت طلب المرعى، ولبعضها حوافر ملململة[١] ذوات قعر كأخمص القدم تنطبق على الأرض عند تهيئها للركوب والحمولة.

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان، حين خلقت ذوات أسنان حداد، وبراثن شداد، وأشداق[٢] وأفواه واسعة، فإنه لما قدر أن يكون طعمها[٣] اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك وأعينت بسلاح، وأدوات تصلح للصيد، وكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخالب مهيئة لفعلها، ولو كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد أعطيت ما لا تحتاج إليه، لأنها لا تصيد ولا تأكل اللحم، ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه، أعني السلاح الذي تصيد به وتتعيش. أفلا ترى كيف أعطي

---

(١) ململمة أي مجموعة بعضها إلى بعض.

(٢) الأشداق جمع شدق ـ بالفتح أو الكسرة ـ زاوية الفم من باطن الخدين.

(٣) الطعم ـ بالضم ـ الطعام.

كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنفه وطبقته. بل ما فيه بقاؤه وصلاحه.

ذوات الأربع واستقلال أولادها

انظر الآن إلى ذوات الأربع كيف تراها تتبع أماتها[١] مستقلة بأنفسها لا تحتاج إلى الحمل والتربية كما تحتاج أولاد الإنس، فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من الرفق والعلم بالتربية، والقوة عليها بالأكف والأصابع المهيأة لذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها وكذلك ترى كثيراً من الطير كمثل الدجاج والدرّاج[٢] والقبج[٣]، تدرج وتلقط حين تنقاب عنها البيضة. فأما ما كان منها ضعيفاً لا

---

(١) الأمات جمع أم وقيل إنها تستعمل في البهائم، وأما في الناس فهي أمهات.

(٢) الدراج ـ بضم فتشديد ـ طائر شبيه بالحجل وأكبر منه أرقط بسواد وبياض قصير المنقار يطلق على الذكر والأنثى، جمعه دراريج وواحدته دراجة والتاء للوحدة لا للتأنيث.

(٣) القبج ـ بفتحتين ـ طائر يشبه الحجل وفي القاموس هو الحجل والواحدة قبجة تقع على الذكر والأنثى.

نهوض فيه، كمثل فراخ الحمام واليمام[١] والحمرّ[٢] فقد جعل في الأمهات فضل عطف عليها، فصارت تمج[٣] الطعام في أفواهها بعد ما توعيه[٤] حواصلها[٥] فلا تزال تغذوها حتى تستقل بأنفسها، ولذلك لم ترزق الحمام فراخاً كثيرة مثل ما ترزق الدجاج، لتقوى الأم على تربية فراخها فلا تفسد ولا تموت فكلا أعطى بقسط من تدبير الحكيم اللطيف الخبير.

قوائم الحيوان وكيفية حركتها

انظر إلى قوائم الحيوان كيف تأتي أزواجاً، لتتهيأ للمشي، ولو كانت أفراداً لم تصلح لذلك، لأن الماشي ينقل قوائمه يعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على واحدة، وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف، لأن ذا الأربع لو كان

---

(١) اليمام: الحمام الوحشي.

(٢) الحمر ـ بضم فتشديد ـ طائر أحمر اللون والواحدة حمرة.

(٣) تمج الطعام أي ترمي به.

(٤) توعيه من أوعى الزاد ونحوه ـ أي جعله في الوعاء.

(٥) الحواصل جمع حوصلة وهي من الطير بمنزلة المعدة من الإنسان.

ينقل قائمتين من أحد جانبيه، ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر، لم يثبت على الأرض، كما يثبت السرير وما أشبهه، فصار ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسرى من مآخيره، وينقل الأخريين أيضاً من خلاف، فيثبت على الأرض، ولا يسقط إذا مشى.

انقياد الحيوانات المسخرة للإنسان وسببه

أما ترى الحمار كيف يذل للطحن والحمولة وهو يرى الفرس مودعاً منعماً، والبعير لا يطيقه عدة رجال لو استعصى كيف كان ينقاد للصبي؟ والثور الشديد كيف كان يذعن لصاحبه، حتى يضع النير[1] على عنقه، ويحرث به؟ والفرس الكريم يركب[2] السيوف والأسنة بالمواتاة لفارسه والقطيع من الغنم يرعاه واحد، ولو تفرقت الغنم فأخذ كل واحد منها في ناحية لم يلحقها. وكذلك جميع الأصناف المسخرة للإنسان. . كانت كذلك؟ إلا بأنها عدمت العقل والروية، فإنها لو كانت تعقل وتتروى في الأمور كانت خليقة أن تلتوي على الإنسان في كثير من مآربه حتى يمتنع الجمل على قائده

---

(١) النير ـ بالكسر ـ الخشبة المعترضة في عنقي الثورين بأدائها.

(٢) يركب السيوف والأسنة أي يلقي نفسه عليها.

والثور على صاحبه، وتتفرق الغنم عن راعيها وأشباه هذا من الأمور.

افتقاد السباع للعقل والروية وفائدة ذلك

وكذلك هذه السباع لو كانت ذات عقل وروية فتوازرت[١] على الناس، كانت خليقة أن تجتاحهم، فمن كان يقوم للأسد والذئاب والنمور والدببة، لو تعاونت وتظاهرت على الناس؟... أفلا ترى كيف حجر[٢] ذلك عليها وصارت مكان ما كان يخاف من أقدامها ونكايتها، تهاب مساكن الناس وتحجم عنها، ثم لا تظهر ولا تنتشر لطلب قوتها إلا بالليل، فهي مع صولتها كالخائف من الإنس بل مقموعة[٣] ممنوعة منهم، إلا ولو كان ذلك لساورتهم في مساكنهم وضيّقت عليهم.

---

(١) توازرت أي اجتمعت واتحدت.

(٢) حجر عليه الأمر: حرّمه ومنعه.

(٣) مقموعة: مقهورة ذليلة.

عطف الكلب على الإنسان ومحاماته عنه

ثم جعل الكلب من بين هذه السباع عطف على مالكه ومحاماة عنه، وحافظ له، ينتقل على الحيطان والسطوح في ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه وذب الذعار عنه، ويبلغ من محبته لصاحبه أن يبذل نفسه للموت دونه ودون ماشيته وماله ويألفه غاية الألف حتى يصبر معه على الجوع والجفوة... فلمَ طُبع الكلب على هذه الألفة والمحبة؟ إلا ليكون حارساً للإنسان له عين[١] بأنياب[٢] ومخالب، ونباح هائل، ليذعر منه السارق، ويتجنب المواضع التي يحميها ويخفرها[٣].

وجه الدابة وفمها وذنبها وشرح ذلك

يا مفضل تأمل وجه الدابة كيف هو...؟ فإنك ترى العينين شاخصتين أمامها لتبصر ما بين يديها، لئلا تصدم حائطاً، أو تتردى حفرة وترى الفم مشقوقاً شقاً

---

(١) العين ـ بالفتح ـ الغلظة في الجسم والخشونة.

(٢) الأنياب جمع ناب وهو السن خلف الرباعية مؤنث.

(٣) يخفرها: يجيرها ويؤمنها.

في أسفل الخطم[١] ولو شق كمكان الفم من الإنسان في مقدم الذقن، لما استطاع أن يتناول به شيئاً من الأرض ألا ترى أن الإنسان لا يتناول الطعام بفيه ولكن بيده، تكرمة له على سائر الآكلات، فلما لم يكن للدابة يد تتناول بها العلف جُعل خرطومها[٢] مشقوقاً من أسفله، لتقبض على العلف ثم تقضمه، وأعينت بالجحفلة[٣] لتتناول بها ما قرب وما بعد. . . اعتبر بذنبها والمنفعة لها فيه، فإنه بمنزلة الطبق[٤] على الدبر والحياء جميعاً، يواريهما ويسترهما، ومن منافعها فيه أن ما يبين الدبر ومراقي البطن منها وضر[٥] يجتمع عليها الذباب والبعوض فجعل لها الذنب كالمذبة[٦] تذب بها عن تلك المواضع، ومنها أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة، فإنه لما كان قيامها

(١) خطم الدابة: مقدم أنفها وفمها.
(٢) الخرطوم: الأنف أو مقدمه أو ما ضممت عليه الحنكين.
(٣) الجحفلة هي لذات الحافر كالشفة للإنسان.
(٤) الطبق ـ بفتحتين ـ مصدر الغطاء جمعه أطباق.
(٥) الوضر ـ بفتحتين ـ مصدر الوسخ.
(٦) المذبة ـ بالكسر ـ ما يذب به الذباب.

على الأربع بأسرها، وشغلت المقدمتان بحمل البدن عن التصرف والتقلب، كان لها في تحريك الذنب راحة، وفيه منافع أخرى يقصر عنها الوهم، فيعرف موقعها في وقت الحاجة إليها، فمن ذلك أن الدابة ترتطم في الوحل[١]، فلا يكون شيء أعون على نهوضها، من الأخذ بذنبها، وفي شعر الذنب منافع للناس كثيرة يستعملونها في مآربهم، ثم جعل ظهرها مسطحاً مبطوحاً على قوائم أربع ليتمكن من ركوبها، وجعل حياها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضربها، ولو كان أسفل البطن كما كان الفرج من المرأة لم يتمكن الفحل منها . . . ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحاً[٢] كما يأتي الرجل المرأة.

الفيل ومشفره

تأمل مشفر[٣] الفيل وما فيه من لطيف التدبير، فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف والماء،

---

(١) الوحل - بفتحتين - الطين الرقيق جمعه وحول وأوحال.

(٢) الكفاح - بالكسر - الملاقاة وجهاً لوجه.

(٣) المشفر - بكسر فسكون ففتح - الشفة وتستعمل للبعير إلا أن الإمام الصادق عدل المعنى إلى خرطوم الفيل.

وازدرادهما إلى جوفه، ولولا ذلك لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض، لأنه ليست له رقبة يمدها كسائر الأنعام، فلما عدم العنق أُعين مكان ذلك بالخرطوم الطويل ليسد له، فيتناول به حاجته. . . فمن ذا الذي عوضه مكان العضو الذي عدم ما يقوم مقامه إلا الرؤوف بخلقه؟ وكيف يكون هذا بالإهمال ـ كما قالت الظلمة ـ ؟ فإن قال قائل: فما باله لم يُخلق ذا عنق كسائر الأنعام؟ قيل: إن رأس الفيل وأذنيه أمر عظيم، وثقل ثقيل، فلو كان ذلك على عنق عظيم، لهدها وأوهنها، فجعل رأسه ملصقاً بجسمه لكيلا يناله منه ما وصفناه، وخلق له مكان العنق هذا المشفر ليتناول غذاءه، فصار مع عدم العنق ـ مستوفياً ما فيه بلوغ حاجته.

حياء الأنثى من الفيلة

انظر الآن كيف جعل حياء الأنثى من الفيلة في أسفل بطنها؟ فإذا هاجت للضراب ارتفع وبرز، حتى يتمكن الفحل من ضربها. . فاعتبر كيف جعل حياء الأنثى من الفيلة على خلاف ما عليه في غيرها من الأنعام ثم جعلت فيه هذه الخلة ليتهيأ للأمر الذي فيه

قوام النسل ودوامه.

الزرافة وخلقتها وكونها ليست من لقاح أصناف شتى

فكر في خلق الزرافة، واختلاف أعضائها، وشبهها بأعضاء أصناف من الحيوان، فرأسها رأس فرس، وعنقها عنق جمل، وأظلافها أظلاف بقرة، وجلدها جلد نمر.

وزعم ناس من الجهال بالله عز وجل: أن نتاجها من فحول شتى، قالوا: وسبب ذلك أن أصنافاً من حيوان البر إذا وردت الماء تنزو على بعض السائمة، وينتج مثل هذا الشخص الذي هو كالملتقط من أصناف شتى وهذا جهل من قائله، وقلة معرفة بالباري جل قدسه، وليس كل صنف من الحيوان يلقح كل صنف، فلا الفرس يلقح الجمل، ولا الجمل يلقح البقر، وإنما يكون التلقيح من بعض الحيوان فيما يشاكله ويقرب من خلقه، كما يلقح الفرس الحمار، فيخرج بينهما البغل، ويلقح الذئب الضبع، فيخرج من بينهما السمع[١]. على

---

(١) السمع ـ بكسر فسكون ـ ولد الذئب من الضبع والأنثى سمعة.

أنه ليس يكون في الذي يخرج من بينهما عضو كل واحد منهما، كما في الزرافة، عضو من الفرس وعضو من الجمل، وأظلاف من البقرة، بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما، كالذي تراه في البغل، فإنك ترى رأسه وأذنيه وكفله[١]، وذنبه وحوافره وسطاً بين هذه الأعضاء من الفرس والحمار وشحيجة[٢]، كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار، فهذا دليل على أنه ليست الزرافة من لقاح أصناف شتى من الحيوان، كما زعم الجاهلون، بل هي خلق عجيب من خلق الله للدلالة على قدرته التي لا يعجزها شيء، وليعلم أنه خالق أصناف الحيوان كلها، يجمع بين ما يشاء من أعضائها، في أيها شاء ويفرق ما شاء منها في أيها شاء، ويزيد في الخلقة ما شاء. وينقص منها ما شاء، دلالة على قدرته على الأشياء، وأنه لا يعجز شيء أراده جل وتعالى. . . فأما طول عنقها والمنفعة لها في ذلك فإن منشأها ومرعاها في غياطل[٣] ذوات

---

(١) الكفل ـ بفتحتين ـ من الدابة: العجز أو الردف والجمع أكفال.

(٢) الشحيج من شحج البغل: صوّت وغلظ صوته.

(٣) الغياطل جمع غيطل وهو الشجر الكثير الملتف.

أشجار شاهقة، ذاهبة طولاً في الهواء. فهي تحتاج إلى طول العنق لتتناول بفيها أطراف تلك الأشجار فتقوت من ثمارها.

القرد وخلقته والفرق بينه وبين الإنسان

تأمل خلقة القرد وشبهه بالإنسان في كثير من أعضائه أعني الرأس والوجه والمنكبين والصدر، وكذلك أحشاؤه شبيهة أيضاً بأحشاء الإنسان وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم عن سائسه ما يؤمي إليه ويحكي كثيراً مما يرى الإنسان يفعله، حتى أنه يقرب من خلق الإنسان وشمائله في التدبير في خلقته على ما هي عليه. أن يكون عبرة للإنسان في نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم وسنخها[١] إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب. وأنه لولا فضيلة فضله بها في الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم على أن في جسم القرد فضولاً أخرى تفرق بينه وبين الإنسان كالخطم[٢] والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله. وهذا لم

---

(١) السنخ ـ بالكسر ـ الأصل والجمع أسناخ وسنوخ.

(٢) الخطم من الدابة: مقدم أنفها وفمها.

يكن مانعاً للقرد أن يلحق بالإنسان لو أعطي مثل ذهن الإنسان وعقله ونطقه والفصل الفاصل بينه وبين الإنسان ـ في الحقيقة ـ هو النقص في العقل والذهن والنطق.

أكساء أجسام الحيوانات وخلقة أقدامها بعكس الإنسان وأسباب ذلك

انظر يا مفضل إلى لطف الله جل اسمه بالبهائم كيف كسيت أجسامها هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف لتقيها من البرد وكثرة الآفات ألبست الأظلاف والحافر والأخفاف لتقيها من الحفاء[1] إذ كانت لا أيدي لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للغزل والنسج فكفوا بأن جعل كسوتهم في خلقهم باقية عليهم ما بقوا لا يحتاجون إلى تجديدها واستبدال بها.

فأما الإنسان فإنه ذو حيلة وكف مهيأة للعمل. فهو ينسج ويغزل ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال. وله في ذلك صلاح من جهات. من ذلك أنه يشتغل بصنعة اللباس عن العبث وما تخرجه إليه الكفاية. ومنها أنه يستريح إلى خلع كسوته إذشاء

(١) الحفاء هو المشي بلا خف ولا نعل.

ولبسها إذا شاء منها أن يتخذ لنفسه من الكسوة ضروباً لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها وكذلك يتخذ بالرفق من الصنعة ضروباً من الخفاف[١] والنعال يقي بها قدميه. وفي ذلك معائش لمن يعمله من الناس ومكاسب يكون فيها معائشهم ومنها أقواتهم وأقوات عيالهم. فصار الشعر والوبر والصوف يقوم للبهائم مقام الكسوة والأظلاف[٢] والحوافر والأخفاف مقام الحذاء.

موارات البهائم عند إحساسها بالموت

فكر يا مفضل في خلقة عجيبة جعلت في البهائم، فإنهم يوارون[٣] أنفسهم إذا ماتوا، كما يواري الناس موتاهم، وإلا فأين جيف هذه الوحوش والسباع وغيرها، لا يرى منها شيء، وليست قليلة فتخفى لقلتها؟ بل لو قال قائل: إنها أكثر من الناس لصدق.

فاعتبر في ذلك بما تراه في الصحاري والجبال

---

(١) الخفاف جمع خف ـ بالضم ـ وهو ما يلبس بالرجل.

(٢) الأظلاف ـ بالكسر ـ وهو لما اجتر من الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر للفرس.

(٣) يوارون أنفسهم: يخفونها.

من أسراب الظباء[١] والمها[٢] والحمير الوحش والوعول[٣] والأيائل[٤] وغير ذلك من الوحوش وأصناف السباع من الأسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها، وضروب الهوام والحشرات ودواب الأرض، وكذلك أسراب الطير من الغربان والقطا والأوز والكراكي[٥] والحمام وسباع الطير جميعاً، وكلها لا يرى منها إذا ماتت إلا الواحد بعد الواحد يصيده قانص أو يفترسه سبع، فإذا أحسوا بالموت كمنوا في مواضع خفية فيموتون فيها، ولولا ذلك لامتلأت الصحاري منها حتى تفسد رائحة الهواء وتحدث الأمراض والوباء.

---

(١) الظباء جمع ظبية وهي أنثى الغزال.

(٢) المها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية.

(٣) الوعول جمع وعل وهو تيس الجبل له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدبين.

(٤) الأيائل جمع أيل - بفتح فتشديد - حيوان من ذوات الظلف للذكور منه قرون متشعبة لا تجويف فيها، أما الإناث فلا قرون لها.

(٥) الكراكي جمع كركي - بضم فسكون فكسر - طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أبتر الذنب قليل اللحم.

فانظر إلى هذا بالذي يخلص إليه الناس، وعملوه بالتمثيل[١] الأول الذي مثل لهم كيف جعل طبعاً وأذكاراً في البهائم وغيرها، ليسلم الناس من معرَّة[٢] ما يحدث عليهم من الأمراض والفساد.

الفطن التي جعلت في البهائم: الأيل والثعلب والدلفين

فكر يا مفضل في الفطن التي جعلت في البهائم لمصلحتها، بالطبع والخلقة، لطفاً من الله عز وجل لهم، لئلا يخلو من نعمة جل وعز أحد من خلقه لا بعقل وروية، فإن الأيل يأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً فيمتنع عن شرب الماء، خوفاً من أن يدب السم في جسمه فيقتله، ويقف على الغدير وهو مجهود عطشاً، فيعج عجيجاً عالياً، ولا يشرب منه، ولو شرب لمات من ساعته.

فانظر إلى ما جعل من طباع هذه البهيمة، من تحمل الظمأ الغالب الشديد خوفاً من المضرة في

(١) المراد بالتمثيل ما ذكره الله تعالى في قصة قابيل.
(٢) المعرة: الأمر القبيح والمساءة.

الشرب، وذلك مما لا يكاد الإنسان العاقل المميز يضبطه من نفسه.

والثعلب إذا أعوزه الطعم، تماوت ونفخ بطنه، حتى يحسبه الطير ميتاً، فإذا وقعت عليه لتنهشه، وثب عليها فأخذها. فمن أعان الثعلب العديم النطق والروية بهذه الحيلة، إلا من توكل بتوجيه الرزق له من هذه وشبهه. فإنه لما كان الثعلب يضعف عن كثير مما تقوى عليه السباع من مساورة الصيد، أعين بالدهاء والفطنة والاحتيال لمعاشه.

والدلفين[١] يلتمس صيد الطير، فيكون حيلته في ذلك أن يأخذ السمك فيقتله ويسرحه حتى يطفوا على الماء ثم يكمن تحته ويثور الماء الذي عليه حتى لا يتبين شخصه، فإذا وقع الطير على السمك الطافي وثب إليها فاصطادها.

فانظر إلى هذه الحيلة كيف جعلت طبعاً في هذه البهيمة لبعض المصلحة.

---

(١) الدلفين ـ بضم فسكون دابة بحرية كبيرة والجمع دلافين.

التنين والسحاب

قال المفضل فقلت: أخبرني يا مولاي عن التنين[١] والسحاب، فقال عليه السلام، إن السحاب كالموكل به، يختطفه حيثما ثقفه[٢]، كما يختطف حجر المغناطيس الحديد، فهو لا يطلع رأسه في الأرض خوفاً من السحاب، ولا يخرج إلا في القيظ[٣] مرة إذا صحت السماء فلم يكن فيها نكتة[٤] من غيمة قلت فلمَ وكِّل السحاب بالتنين يرصده ويختطفه إذا وجده؟ قال: ليدفع عن الناس مضرته.

في الذرة والنمل وأسد الذباب والعنكبوت وطبائع كل منهما

قال المفضل فقلت: قد وصفت لي يا مولاي من أمر البهائم ما فيه معتبر لمن اعتبر، فصف لي الذرة والنملة والطير، فقال عليه السلام: يا مفضل تأمل وجه

---

(١) التنين ـ بالكسر ـ الحية العظيمة.

(٢) ثقفه: أدركه وظفر به.

(٣) القيظ: حميم الصيف وشدة الحر.

(٤) النكتة: النقطة السوداء في الأبيض أو البيضاء في الأسود والجمع نكت ونكات.

الذرة الحقيرة الصغيرة هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها، فمن أين هذا التقدير والصواب في خلق الذرة؟ إلا من التدبير القائم في صغير الخلق وكبيره.

انظر إلى النمل واحتشاده في جمع القوت وإعداده، فإنك ترى الجماعة منها إذا نقلت الحب إلى زبيتها[١] بمنزلة جماعة من الناس ينقلون الطعام أو غيره، بل للنمل في ذلك من الجد والتشمير ما ليس للناس مثله. . أما تراهم يتعاونون على النقل كما يتعاون الناس على العمل، ثم يعمدون إلى الحب فيضمونه قطعاً. لكيلا ينبت فيفسد عليهم، فإن أصابه ندى أخرجوه فنشروه حتى يجف، ثم لا يتخذ النمل الزبية إلا في نشز[٢] من الأرض كيلا يفيض السيل فيغرقها، ولك هذا منه بلا عقل ولا روية، بل خلقة خلق عليها لمصلحة من الله جل وعز.

انظر إلى هذا الذي يقال له الليث[٣] وتسميه العامة (أسد الذباب) وما أُعطي من الحيلة والرفق في

---

(١) الزبية ـ بضم فسكون ـ: الرابية لا يعلوها ماء جمعها زبى.

(٢) النشز ـ بفتحتين ـ اللمكان المرتفع جمعه نشاز وأنشاز.

(٣) الليث: ضرب من العناكب والجمع ليوث ومليثة.

معاشه، فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه. تركه ملياً حتى كأنه موات لا حراك به، فإذا رأى الذباب قد أطمأن وغفل عنه، دب دبيباً دقيقاً، حتى يكون منه بحيث تناله وثبته، ثم يثب عليه فيأخذه، فإذا أخذه اشتمل عليه بجسمه كله، مخافة أن ينجو منه، فلا يزال قبضاً عليه، حتى يحس بأنه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيفترسه، ويحيى بذلك منه.

فأما العنكبوت فإنه ينسج ذلك النسج، فيتخذه ـ شركاً ومصيدة للذباب، ثم يكمن في جوفه، فإذا نشب فيه الذباب أحال[١] عليه يلدغه ساعة بعد ساعة، ليعيش بذلك منه.

فذلك[٢] يحكي صيد الكلاب والفهود، وهذا[٣] يحكي صيد الأشراك والحبائل.

فانظر إلى هذه الدويبة الضعيفة، كيف جعل في طبعها ما لا يبلغه الإنسان إلا بالحيلة واستعمال الآلات فيها، فلا تزدري بالشيء إذا كانت العبرة فيه واضحة

---

(١) أحال: أقبل ووثب.

(٢) يعني به أسد الذباب.

(٣) يعني به العنكبوت.

كالذرة والنملة وما أشبه ذلك فإن المعنى النفيس قد يمثل بالشيء الحقير، فلا يضع منه ذلك[١] كما لا يضع من الدينار ـ وهو من ذهب أن يوزن بمثقال من حديد.

جسم الطائر وخلقته

تأمل يا مفضل جسم الطائر وخلقته، فإنه حين قدر أن يكون طائراً في الجو، خفف جسمه وأدمج[٢] خلقه، واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين، ومن الأصابع الخمس على أربع، ومن منفذين المزبل والبول على واحد يجمعهما، ثم خلق ذا جؤجؤ[٣] محدد، ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه، كما جعلت السفينة بهذه الهيئة، لتشق الماء وتنفذ فيه، وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان، لينهض بها للطيران، وكسا كله الريش، ليتداخله الهواء فيقله[٤]، ولما قدر أن يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ، نقص من خلقة الإنسان وخلق له منقار صلب

---

(١) أي لا ينقص من قدر المعنى النفيس تمثيله بالشيء الحقير.

(٢) أدمج خلقه: لفه وأحسنه.

(٣) الجؤجؤ من الطائر والسفينة: الصدر والجمع جآجيء.

(٤) يقله: يحمله ويرفعه.

جاسي يتناول به طعمه، فلا ينسحج[١] من لفظ الحب، ولا يتقصف[٢] من نهش اللحم، ولما عدم الأسنان، وصار يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً[٣] أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعم طحناً يستغني به عن المضغ، واعتبر ذلك بأن عجم العنب[٤] وغيره، يخرج من أجواف الإنس صحيحاً، ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر، ثم جعل مما يبيض بيضاً، ولا يلد ولادة، لكيلا يثقل عن الطيران، فإنه لو كانت الفراخ في جوفه تمكث حتى تستحكم، لأثقلته وعاقته عن النهوض والطيران، فجعل كل شيء من خلقه مشاكلاً للأمر الذي قدر أن يكون عليه ثم صار الطائر السائح في هذا الجو يقعد على بيضه فيحضنه أسبوعاً وبعضها أسبوعين وبعضها ثلاثة أسابيع، حتى يخرج الفرخ من البيضة، ثم يقبل عليه فيزقه الريح لتتسع حوصلته للغذاء، ثم يربيه ويغذيه بما يعيش به. فمن كلفه أن

---

(١) ينسحج: أي ينتشر.
(٢) يتقصف: أي يتكسر.
(٣) الغريض: كل أبيض طريء.
(٤) عجم العنب: النوى الصغير في جوف العنب.

يلقط الطعم والحب يستخرجه، بعد أن يستقر في حوصلته، ويغذو به فراخه..؟ ولأي معنى يحتمل هذه المشقة. وليس بذي روية ولا تفكر، ولا يأمل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العز والرفد[1] وبقاء الذكر...؟ فهذا من فعله يشهد أنه معطوف على فراخه، لعله لا يعرفها ولا يفكر فيها، وهي دوام النسل وبقاؤه لطفاً من الله تعالى ذكره.

الدجاجة وتهيجها لحضن البيض والتفريخ

انظر إلى الدجاجة كيف تهيج لحضن البيض والتفريخ، وليس لها بيض مجتمع ولا وكر موطى، بل تنبعث وتنتفخ وتقوى[2] وتمتنع من الطعم، حتى يجمع لها البيض، فتحضنه وتفرخ.. فلِمَ كان ذلك منها إلا لإقامة النسل؟ ومن أخذها بإقامة النسل ولا روية لها ولا تفكير، لولا أنها مجبولة على ذلك؟.

---

(١) الرفد ـ بالكسر ـ المعونة والعطاء والجمع أرفاد ورفود.

(٢) تقوى من القوى أي الجوع فكأن الدجاجة تبيت جائعة.

خلق البيضة والتدبير في ذلك

اعتبر بخلق البيضة، وما فيها من المح[١] الأصفر الخائر[٢] والماء الأبيض الرقيق، فبعضه ينشو منه الفرخ، وبعضه ليغتذي به، إلى أن تنقاب عنه البيضة، وما في ذلك من التدبير، فإنه لو كان نشوء[٣] الفرخ في تلك القشرة المستحفظة[٤] التي لا مساغ لشيء إليها، جعل معه في جوفها من الغذاء ما يكتفي به إلى وقت خروجه منها، كمن يُحبس في حبس حصين لا يوصل إلى من فيه، فيجعل معه من القوت ما يكتفي به إلى وقت خروجه منه.

حوصلة الطائر

فكر يا مفضل في حوصلة الطائر، وما قدر له، فإن مسلك الطعم إلى القانصة[٥] ضيق، لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلاً قليلاً، فلو كان الطائر لا يلقط حبة

---

(١) المح - بالضم - صفر البيض.

(٢) خثر اللبن: ثخن واشتد فهو خاثر.

(٣) المستحفظة من استحفظه السر أو المال: سأله أن يحفظه.

(٤) القانصة للطير كالمعدة للإنسان جمعها قوانص.

ثانية، حتى تصل الأولى إلى القانصة، لطال عليه، ومتى كان يستوفي طعمه؟. فإنما يختلسه اختلاساً، لشدة الحذر، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة[1] المعلقة أمامه، ليوعى فيها ما أدرك من الطعم بسرعة، ثم تنفذه إلى القانصة على مهل، وفي الحوصلة أيضاً خلة أخرى، فإن من الطائر ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده للطعم من قرب أسهل عليه.

اختلاف ألوان الطير وعلة ذلك

قال المفضل فقلت: إن قوماً من المعطلة يزعمون أن اختلاف الألوان والأشكال في الطير إنما يكون من قبل امتزاج الأخلاط، واختلاف مقاديرها المرج[2] والإهمال.

قال: يا مفضل هذا الوشي الذي تراه في الطواويس والدراج والتدارج على استواء ومقابلة، كنحو ما يخط بالأقلام، كيف يأتي به الامتزاج المهمل

---

(١) المخلاة: ما يجعل فيه العلف ويعلق في عنق الدابة والجمع مخال.

(٢) المرج ـ بالتحريك ـ الاضطراب واللبس والفساد والاختلاط.

على شكل واحد لا يختلف، ولو كان بالإهمال لعدم الاستواء ولكان مختلفاً.

ريش الطائر ووصفه

تأمل ريش الطير وكيف هو...؟ فإنك تراه منسوجاً كنسج الثوب من سلوك[١] دقاق، قد أُلّف بعضه إلى بعض، كتأليف الخيط إلى الخيط والشعرة إلى الشعرة، ثم ترى ذلك النسج إذا مددته ينفتح قليلاً ولا ينشق لتداخله الريح، فيقل الطائر إذا طار، وترى في وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه الذي هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته، وهو القصبة التي في وسط الريشة، وهو مع ذلك أجوف، ليخف على الطائر ولا يعوقه عن الطيران.

الطائر الطويل الساقين والتدبير في ذلك

هل رأيت يا مفضل هذا الطائر الطويل الساقين[٢] وعرفت ما له من المنفعة في طول ساقيه، فإنه أكثر ذلك في ضحضاح[٣] من الماء فتراه بساقين طويلين، كأنه

---

(١) السلوك جمع سلك وهو الخيط ينظم فيه الخرز ونحوه.

(٢) ينطبق الوصف الذي ذكره الإمام الصادق للطائر الطويل الساقين على بعض الطيور المائية كالنحام والأنيس.

ربيئة[١] فوق مرقب[٢] وهو يتأمل ما يدب في الماء، فإذا رأى شيئاً مما يتقوت به، خطا خطوات رقيقاً حتى يتناوله، ولو كان قصير الساقين وكان يخطو نحو الصيد ليأخذه، يصيب بطنه الماء، فيثور ويذعر منه، فيفرق عنه، فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه.

تأمل ضروب التدبير في خلق الطائر، فإنك تجد كل طائر طويل الساقين طويل العنق، وذلك ليتمكن من تناول طعمه من الأرض ولو كان طويل الساقين قصير العنق، لما استطاع أن يتناول شيئاً من الأرض وربما أُعين مع العنق بطول المناقير، ليزداد الأمر عليه سهولة وإمكاناً أفلا ترى أنك لا تفتش شيئاً من الخلقة إلا وجدته على غاية الصواب والحكمة.

---

(١) الضحضاح: الماء اليسير أو القريب القعر.

(٢) الربيئة: العين التي ترقب، أو الطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل.

(٣) المرقب: الموضع المرتفع يعلوه الرقيب جمعه مراقب.

العصافير وطلبها للأكل

انظر إلى العصافير، كيف تطلب أكلها بالنهار فهي لا تفقده ولا تجده مجموعاً معداً، بل تناله بالحركة والطلب، وكذلك الخلق كله فسبحان من قدر الرزق كيف فرقه. فلم يجعل مما لا يقدر عليه، إذ جعل بالخلق حاجة إليه، ولم يجعل مبذولاً ينال بالهوينا[١] إذ كان لا صلاح في ذلك فإنه لو كان يوجد مجموعاً معداً كانت البهائم تنقلب عليه، ولا تنقطع عنه حتى تبشم[٢] فتهلك. وكان الناس أيضاً يصيرون بالفراغ إلى غاية الأشر والبطر، حتى يكثر الفساد وتظهر الفواحش.

معاش البوم والهام والخفاش

أعلمت ما طعم هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا بالليل، كمثل البوم والهام[٣] والخفاش؟..

---

(١) الهوينا: التؤدة والرفق.

(٢) تبشم أي تتخم من الطعام.

(٣) الهام جمع هامة: نوع من البوم الصغير تألف القبور والأماكن الخربة وتنظر من كل مكان أينما درت أدارت رأسها، وتسمى أيضاً الصدى.

قلت: لا يا مولاي.

قال: إن معاشها من ضروب تنتشر في الجو من البعوض والفراش وأشباه الجراد واليعاسيب[١]. وذلك أن هذه الضروب مبثوثة في الجو لا يخلو منها موضع.. واعتبر ذلك بأنك إذا وضعت سراجاً بالليل في سطح أو عرصة دار، اجتمع عليه من هذه الضروب شيء كثير.. فمن أين يأتي ذلك كله، إلا من القرب؟ فإن قال قائل: إنه يأتي من الصحاري والبراري، قيل له: كيف يوافي تلك الساعة من موضع بعيد، وكيف يبصر من ذلك البعد سراجاً في دار محفوفة بالدور فيقصد إليه، مع أن هذه عياناً تتهافت على السراج من قرب، فيدل ذلك على أنها منتشرة في كل موضع من الجو، فهذه الأصناف من الطير تلتمسها إذا خرجت فتتقوت بها.

فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطيور التي لا تخرج إلا بالليل من هذه الضروب المنتشرة في الجو، واعرف ذلك المعنى في خلق هذه الضروب المنتشرة، التي

---

(١) اليعاسيب جمع يعسوب وهو ذكر النحل وأميرها.

عسى أن يظن ظان أنها فضل لا معنى له.

خلقة الخفاش

خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير وذوات الأربع، هو إلى ذوات الأربع أقرب، وذلك أنه ذو أذنين ناشزتين(١) وأسنان ووبر وهو يلد ولاداً ويرضع ويبول، ويمشي إذا مشى على أربع، وكل هذا خلاف صفة للطير، ثم هو أيضاً مما يخرج بالليل، ويتقوت بما يسري(٢) في الجو من الفراش وما أشبهه، وقد قال قائلون أنه لا طعم للخفاش وأن غذاؤه من النسيم وحده، وذلك يفسد ويبطل من جهتين: أحدهما خروج الثفل والبول منه، فإن هذا لا يكون من غير طعم، والأخرى أنه ذو أسنان، ولو كان لا يطعم شيئاً لم يكن للأسنان فيه معنى، وليس في الخلقة شيء لا معنى له، وأما المآرب فيه فمعروفة، حتى أن زبله يدخل في بعض الأعمال، ومن أعظم الأرب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناؤه، وتصرفها فيما شاء

---

(١) الناشز: ما كان ناتئاً مرتفعاً عن مكانه.

(٢) يسري: يسير في الليل.

كيف شاء لضرب من المصلحة.

حيلة الطائر أبو نمرة بالحسكة ومنفعتها

فأما الطائر الصغير الذي يقال له (ابن نُمّرة) فقد عشش في بعض الأوقات في بعض الشجر، فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه فاغرة فاها، تبغيه لتبتلعه، فبينما هو يتقلب ويضطرب في طلب حيلة منها إذ وجد حسكة، فحملها فألقاها في فم الحية فلم تزل الحية تلتوي وتتقلب حتى ماتت. أفرأيت لو لم أخبرك بذلك، كان يخطر ببالك أو ببال غيرك أنه يكون من حسكة مثل هذه المنفعة، أو يكون من طائر صغير أو كبير مثل هذه الحيلة.. اعتبر بهذا وكثير من الأشياء يكون فيها منافع لا تعرف بحادث يحدث أو خبر يسمع به.

النحل: عسله وبيوته

انظر إلى النحل واحتشاده في صنعة العسل، وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى في ذلك من دقائق الفطنة، فإنك إذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً، وإذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الناس،

وإذا رجعت إلى الفاعل ألفيته غبياً جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك، ففي هذا أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها، وسخره فيها لمصلحة الناس.

الجراد وبلاؤه

انظر إلى هذا الجراد ما أضعفه وأقواه!. فإنك إذا تأملت خلقه رأيته كأضعف الأشياء وإن دلفت[1] عساكره نحو بلد من بلدان لم يستطع أحد أن يحميه منه.. ألا ترى أن ملكاً من ملوك الأرض لو جمع خيله ورجله[2] ليحمي بلاده من الجراد لم يقدر على ذلك. أفليس من الدلائل على قدرة الخالق أن يبعث أضعف خلقه إلى أقوى خلقه، فلا يستطيع دفعه.

كثرة الجراد

انظر إليه كيف ينساب على وجه الأرض مثل السيل، فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر، حتى

---

(١) دلف دلفاً ودلفاناً: مشى كالمقيد وقارب الخطو في مشيه.

(٢) الرجل ـ بالفتح ـ جمع راجل وهو من يمشي على رجليه لا راكباً.

يستر نور الشمس بكثرته، فلو كان هذا مما يصنع بالأيدي، متى كان تجتمع منه هذه الكثرة؟ وفي كم سنة كان يرتفع؟ فاستدل بذلك على القدرة التي لا يؤدها شيء، ولا يكثر عليها.

وصف السمك

تأمل خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه، فإنه خلق غير ذي قوائم، لأنه لا يحتاج إلى المشي، إذ كان مسكنه الماء وخلق غير ذي رية، لأنه لا يستطيع أن يتنفس وهو منغمس في اللجة، وجعلت له مكان القوائم أجنحة شداد يضرب بها في جانبيه، كما يضرب الملاح بالمجاذيف من جانبي السفينة، وكسا جسمه قشوراً متاناً متداخلة كتداخل الدروع والجواشن[١] لتقيه من الآفات، فأعين بفضل حس في الشم، لأن بصره ضعيف، والماء يحجبه، فصار يشم الطعم من البعد البعيد، فينتجعه[٢] فيتبعه، وإلا فكيف يعلم به وبموضعه؟ واعلم أن من فيه إلى

---

(١) الجواشن جمع جوشن وهو الدرع أو الصدر.

(٢) ينتجع: يطلب الكلأ في موضعه.

صماخه[١] منافذ، فهو يعب الماء بفيه، ويرسله من صماخيه فيتروح إلى ذلك، كما يتروح غيره من الحيوان إلى تنسم هذا النسيم.

كثرة نسل السمك وعلة ذلك

فكر الآن في كثرة نسله وما خُصّ به من ذلك، فإنك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة، والعلة في ذلك أن يتسع لما يغتذي به من أصناف الحيوان، فإن أكثرها يأكل السمك، حتى أن السباع أيضاً في حافات الآجام[٢] عاكفة على الماء أيضاً كي ترصد السمك، فإذا مر بها خطفته، فلما كانت السباع تأكل السمك، والطير يأكل السمك، والناس يأكلون السمك، والسمك يأكل السمك كان من التدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة.

---

(١) الصماخ ـ بالكسر ـ خرق الأذن الباطن الماضي إلى الرأس، والجمع صمخ وأصمخة.

(٢) الآجام جمع الجمع للأجمة: الشجر الكثير الملتف.

سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين

فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق، وقصر علم المخلوقين، فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك ودواب الماء والأصداف والأصناف التي لا تحصى، ولا تعرف منافعها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث، مثل القرمز[١] فإنه لما عرف الناس صبغه، بأن كلبة تجول على شاطىء البحر فوجدت شيئاً من الصنف الذي يسمى الحلزون[٢]، فأكلته فاختضب خطمها[٣] بدمه فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغاً، وأشباه هذا مما يقف الناس عليه حالاً بعد حال وزماناً بعد زمان.

قال المفضل: وحان وقت الزوال، فقام مولاي عليه السلام إلى الصلاة وقال: بكِّر إليَّ غداً إن شاء الله تعالى... فانصرفت وقد تضاعفت سروري بما عرفنيه، مبتهجاً بما منحنيه، حامداً لله على ما آتانيه، فبت ليلتي مسروراً مبتهجاً.

---

(١) القرمز صبغ أحمر.
(٢) الحلزون: دويبة تكون في صدف وهي المعروفة بالبزاق.
(٣) الخطم: مقدم أنف الدابة وفمها.

المجلس الثالث

فلما كان اليوم الثالث بكرَّت إلى مولاي فاستؤذن لي فدخلت فأذن لي بالجلوس فجلست، فقال عليه السلام:

الحمد لله الذي اصطفانا ولم يصطف علينا، اصطفانا بعلمه(١)، وأيدنا بحلمه(٢) من شذّ عنا(٣) فالنار مأواه، ومن تفيأ بظل دوحتنا فالجنة مثواه.. قد شرحت لك يا مفضل خلق الإنسان، وما دبر به، وتنقله في أحواله، وما فيه من الاعتبار، وشرحت لك أمر الحيوان... وأنا أبتدىء الآن بذكر السماء والشمس والقمر والنجوم والفلك والليل. والنهار والحر والبرد والرياح والجواهر الأربعة الأرض والماء والهواء والنار والمطر والصخر والجبال والطين والحجارة والنخل

---

(١) اصطفانا أي اختارنا وفضلنا على الخلق، بأن أعطانا من علمه ما لم يعطه أحداً.

(٢) أيدنا بحلمه أي قوانا على تبليغ الرسالة بما حلانا به من حلمه لنصبر على ما يلقانا من أذى الناس وتكذيبهم.

(٣) شذ عنا: ندر عنا وانفرد.

والشجر وما في ذلك من الأدلة والعبر.

لون السماء وما فيه من صواب التدبير

فكر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير، فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة وتقوية للبصر، حتى أن من صفات الأطباء لمن أصابه شيء أضر ببصره إدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد وقد وصف الحذاق منهم لمن كلَّ بصره الاطلاع في إجانة[١] خضراء مملوءة ماءً، فانظر كيف جعل الله جل وتعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد ليمسك الأبصار المتقلبة عليه، فلا ينكأ فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذي أدركه الناس بالفكر والروية والتجارب، يوجد مفروغاً منه في الخلقة حكمة بالغة ليعتبر بها المعتبرون، ويفكر فيها الملحدون، قاتلهم الله أنى يؤفكون[٢].

طلوع الشمس وغروبها والمنافع في ذلك

فكر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها، لإقامة

---

(١) الإجانة ـ بكسر فتشديد ـ إناء تغسل فيه الثياب.

(٢) يؤفكون: يكذبون.

دولتي النهار والليل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فلم يكن الناس يسعون في معائشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم، ولم يكونوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه... والأرب في طلوعها ظاهر مستغنى بظهوره عن الأطناب في ذكره، والزيادة في شرحه... بل تأمل المنفعة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة لسكون أبدانهم، وجموم حواسهم[١] وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل، ومطاولته على ما يعظم نكايته في أبدانهم، فإن كثيراً من الناس لولا جثوم[٢] هذا الليل بظلمته عليهم، لم يكن لهم هدوء ولا قرار، حرصاً على الكسب والجمع والادخار، ثم كانت الأرض تستحمي بدوام الشمس بضيائها، ويحمي كل ما عليها من حيوان ونبات، فقدرها الله بحكمته وتدبيره، تطلع

---

(١) الجموم مصدر جم تقول جم القوم: استراحوا وكثروا.

(٢) الجثوم مصدر من قولهم: جثم الليل.

(٣) يريد بذلك الإمام عليه السلام الفصول الأربعة.

وقتاً وتغرب وقتاً، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقروا، فصار النور والظلمة، مع تضادهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه.

التدبير والمصلحة في الفصول الأربعة من السنة

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة[١] من السنة وما في ذلك من التدبير والمصلحة، ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيهما مواد الثمار، ويتكثف[٢] الهواء فينشأ منه السحاب والمطر، وتشتد أبدان الحيوان وتقوى، وفي الربيع تتحرك وتظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيطلع النبات، وتنور[٣] الأشجار ويهيج الحيوان للسفاد، وفي الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار، وتتحلل فضول الأبدان، ويجف وجه الأرض، فتهيأ للبناء والأعمال، وفي الخريف يصفو الهواء، وترتفع الأمراض، وتصح الأبدان، ويمتد الليل فيمكن

---

(١) يتكثف الهواء ـ أي يغلظ ويكثر.

(٢) تنور الأشجار أي تخرج نورها ـ بفتح فسكون ـ أي زهرها أو الأبيض منه.

فيه بعض الأعمال لطوله، ويطيب الهواء فيه إلى مصالح أخرى لو تقصيت لذكرها لطال فيها الكلام.

معرفة الأزمنة والفصول الأربعة عن طريق حركة الشمس

فكر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر[١] لإقامة دور السنة وما في ذلك من التدبير. فهو الدور الذي تصح به الأزمنة الأربعة من السنة (الشتاء والربيع والصيف والخريف) تستوفيها على التمام، وفي هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار، وتنتهي إلى غاياتهم ثم تعود فيستأنف النشو والنمو.. ألا ترى أن السنة مقدار مسير الشمس من الحمل إلى الحمل. فبالسنة وأخواتها يكال الزمان من لدن خلق الله تعالى العالم، إلى كل وقت وعصر من غابر الأيام، وبها يحسب الناس الأعمار والأوقات المؤقتة للديون والإجازات والمعاملات، وغير ذلك من أمورهم،

---

(١) بروج السماء الاثني عشر هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

وبمسير الشمس تكمل السنة، ويقوم حساب الزمان على الصحة.

انظر إلى شروقها على العالم كيف دبر أن يكون؟ فإنها لو كانت تبزغ في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى كثير من الجهات، لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها، فجعلت تطلع أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة، حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة منها، والأرب التي قدرت له. ولو تخلفت مقدار عام أو بعض عام كيف كان يكون حالهم؟ بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء؟ أفلا ترى كيف كان يكون للناس هذه الأمور الجليلة التي لم يكن عندهم فيها حيلة، فصارت تجري على مجاريها لا تفتل[1] ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه.

---

(١) لا تفتل ـ أي لا تنصرف ولا تزول.

الاستدلال بالقمر في معرفة الشهور

استدل بالقمر ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة في معرفة الشهور، ولا يقوم عليه حساب السنة، لأن دوره لا يستوفي الأزمنة الأربعة ونشوء الثمار وتصرمها، ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها، وصار الشهر من شهور القمر ينتقل، فيكون مرة بالشتاء ومرة بالصيف.

ضوء القمر وما فيه من المنافع

فكر في إنارته في ظلمة الليل والإرب في ذلك فإنه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيه شيء من العمل، لأنه ربما احتاج الناس إلى العمل بالليل، لضيق الوقت عليهم في بعض الأعمال في النهار، ولشدة الحر وإفراطه، فيعمل في ضوء القمر أعمالاً شتى، محرث الأرض، وضرب اللبن، وقطع الخشب، وما أشبه ذلك، فجعل ضوء القمر معونة للناس على معائشهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وأنساً للسائرين وجعل طلوعه في

بعض الليل دون بعض. ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضيائها، لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم بالنهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار، فيهلكهم ذلك، وفي تصرف القمر خاصة في مهله[١] ومحاقه[٢] وزيادته ونقصانه وكسوفه، من التنبيه على قدرة الله تعالى خالقه المصرف له هذا التصريف لصلاح العالم ما يعتبر به المعتبرون.

النجوم واختلاف مسيرها والسبب في أن بعضها راتبة والأخرى متنقلة

فكر يا مفضل في النجوم واختلاف مسيرها، فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك[٣] ولا تسير إلا مجتمعة، وبعضها مطلقة تنتقل في البروج وتفترق في مسيرها، فكل واحد منها يسير سيرين مختلفين،

---

(١) مهله: أي ظهوره.

(٢) المحاق: ـ بكسر الأول أو ضمه أو فتحه ـ هو آخر الشهر القمري وقيل ثلاث ليالٍ من آخره.

(٣) لعل المراد أنه ليس لها حركة بيّنة ظاهرة كما في النجوم السيارة.

أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق كالنملة التي تدور على الرحى، فالرحى تدور ذات اليمين، والنملة تدور ذات الشمال والنملة في ذلك تتحرك حركتين مختلفتين: إحداهما بنفسها فتتوجه أمامها، والأخرى مستكرهة مع الرحى تجذبها إلى خلفها.. فاسأل الزاعمين أن النجوم صارت على ما هي عليه بالإهمال، من غير عمد ولا صانع لها ما منعها أن تكون كلها راتبة أو تكون كلها منتقلة، فإن الإهمال معنى واحد فكيف صار يأتي بحركتين مختلفتين على وزن وتقدير؟ ففي هذا بيان أن مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير وحكمة وتقدير، وليس بإهمال كما يزعم المعطلة، فإن قال قائل: ولم صار بعض النجوم راتباً وبعضها منتقلاً؟ قلنا: إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التي يستدل بها من تنقل المنتقلة، ومسيرها في كل برج من البروج، كما يستدل بها على أشياء مما يحدث في العالم، بتنقل الشمس والنجوم في منازلها، ولو كانت كلها منتقلة، لم يكن لمسيرها منازل تعرف، ولا رسم يوقف عليه، لأنه يوقف عليه بمسير المنتقلة منها بتنقلها

في البروج الراتبة[١] كما يستدل على سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها أو لو كان تنقلها بحال واحد لاختلاط نظامها، وبطلت المآرب فيها، ولساغ القائل أن يقول أن كينونتها على حال واحدة توجب عليها الإهمال من الجهة التي وصفنا، ففي اختلاف سيرها وتصرفها وما في ذلك من المآرب والمصلحة، أبين دليل على العمد والتدبير فيها.

فوائد بعض النجوم

فكر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها كمثل الثريا[٢] والجوزاء[٣] والشعريين[٤] وسهيل[٥]، فإنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حياله دلالات

---

(١) راتبة أي ثابتة غير متحركة.

(٢) الثريا: مجموع كواكب في عنق الثور.

(٣) الجوزاء: برج في السماء، سميت بذلك لاعتراضها في جوز السماء أي وسطه.

(٤) الشعريان: تثنية الشعرى ـ بالكسر ـ وهو الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدة الحر.

(٥) سهيل ـ بالتصغير ـ نجم بهي طلوعه على بلاد العرب في أواخر القيظ.

يعرفها الناس، ويهتدون بها لبعض أمورهم، كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثور[١] والجوزاء إذا طلعت، واحتجابها إذا احتجبت، فصار ظهور كل واحد واحتجابه في وقت غير الوقت الآخر، لينتفع الناس بما يدل عليه كل واحد منها على حدته، وما جعلت الثريا وأشباهها تظهر حيناً وتحتجب حيناً إلا لضرب من المصلحة، وكذلك جعلت بنات نعش[٢] ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة، فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في البر والبحر للطرق المجهولة، وكذلك أنها لا تغيب ولا تتوارى فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث شاؤوا، وصار الأمران جميعاً على اختلافهما موجهين نحو الأرب والمصلحة، وفيهما مآرب أخرى علامات ودلالات على أوقات كثيرة من الأعمال، كالزراعة والغراس والسفر في البر والبحر، وأشياء مما يحدث في الأزمنة من الأمطار

---

(١) الثور: برج في السماء من البروج الاثني عشر.

(٢) بنات نعش الكبرى: سبعة كواكب تشاهدها جهة القطب الشمالي، وبقربها سبعة أخرى تسمى بنات نعش الصغرى، والنجمة التي رسمت كبيرة هي النجمة التي يستدل بها على نقطة القطب الشمالي.

والرياح والحر والبرد، وبها يهتدي السائرون في ظلمة الليل، لقطع القفار الموحشة واللجج[١] الهائلة، مع ما في ترددها في كبد السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من العبر، فإنها تسير أسرع وأحثه[٢]. أرأيت لو كانت الشمس والقمر والنجوم بالقرب منا، حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه، ألم تكن تستخطف الأبصار بوهجها وشعاعها كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالت واضطرمت في الجو؟ وكذلك أيضاً لو أن أناساً كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً لحارت أبصارهم حتى يخروا لوجوههم.

فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها في البعد البعيد، لكيلا تضر في الأبصار، وتنكأ فيها، وبأسرع السرعة. لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة في مسيرها، وجعل فيها جزءاً يسيراً من الضوء، ليسد مسد الأضواء إذا لم يكن قمر، ويمكن فيه الحركة إذا حدثت ضرورة، كما قد يحدث الحادث على المرء فيحتاج إلى

---

(١) اللجج جمع لجة: معظم الماء.
(٢) أسرع السير وأحثه كلاهما بمعنى واحد.

التجافي[١] في جوف الليل، فإن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع أن يبرح مكانه.

فتأمل اللطف والحكمة في هذا التقدير، حين جعل للظلمة دولة ومدة لحاجة إليها، وجعل خلالها شيء من الضوء للمارب التي وصفنا.

الشمس والقمر والنجوم والبروج تدل على الخالق

فكر في هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على العالم هذا الدوران الدائم، بهذا التقدير والوزن لما في اختلاف الليل والنهار وهذه الأزمان الأربعة المتوالية من التنبيه على الأرض وما عليها من أصناف الحيوان والنبات من ضروب المصلحة، كالذي بينت وشخصت لك آنفاً وهل يخفى على ذي لب أن هذا تقدير مقدر وصواب وحكمة من مقدر حكيم، فإن قال قائل: إن هذا شيء اتفق أن يكون هكذا؟ فما منعه أن يقول مثل هذا في دولاب[٢] يراه يدور ويسقي حديقة

---

(١) التجافي من تجافى أي لم يلزم مكانه.

(٢) الدولاب ـ بالفتح ـ كل آلة تدور على محور والجمع دواليب، والكلمة من الدخيل.

فيها شجر ونبات فيرى كل شيء من آلاته مقدراً بعضه يلقي بعضاً على ما فيه صلاح تلك الحديقة وما فيها. وبم كان يثبت هذا القول لو قاله. وما ترى الناس كانوا قائلين له لو سمعوه منه؟ أفينكر أن يقول في دولاب خشب مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الأرض، إنه كان بلا صانع ومقدر، ويقدر أن يقول في هذا الدولاب الأعظم، المخلوق بحكمة تقصر عنها أذهان البشر، لصلاح جميع الأرض وما عليها إنه شيء اتفق أن يكون بلا صنعة ولا تقدير لو اعتل هذا الفلك، كما تعتل الآلات التي تتخذ للصناعات وغيرها، أي شيء كان عند الناس من الحيلة في إصلاحه.

مقادير الليل والنهار

فكر يا مفضل في مقادير النهار والليل، كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق، فصار منتهى كل واحد منهما إذا امتد إلى خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك أفرأيت لو كان النهار يكون مقداره مائة ساعة أو مائتي ساعة؟ ألم يكن في ذلك بوار كل ما في الأرض من حيوان ونبات؟ أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة، ولا البهائم كانت تمسك عن الرعي لو

دام لها ضوء النهار، ولا الإنسان كان يفتر عن العمل والحركة، وكان ذلك ينهكها أجمع، ويؤديها إلى التلف، وأما النبات فكان يطول عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يجف ويحترق كذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش، حتى تموت جوعاً، وتخمد الحرارة الطبيعية عن النبات، حتى يعفن ويفسد، كالذي تراه يحدث على النبات إذا كان في موضع لا تطلع عليه الشمس.

الحر والبرد وفوائدهما

اعتبر بهذا الحر والبرد كيف يتعاوران[١] العالم، ويتصرفان هذا التصرف في الزيادة والنقصان والاعتدال، لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فيهما من المصالح، ثم هما بعد دباغ الأبدان التي عليها بقاؤها وفيهما صلاحها، فإنه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت وأخوت[٢] وانتكثت[٣].

---

(١) يتعاوران: يتداولان.

(٢) أخوت: جاعت.

(٣) انتكثت: انتقضت وانتبذت.

فكر في دخول أحدهما[1] على الآخر بهذا التدريج والترسل، فإنك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك، حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجأة، لأضر ذلك بالأبدان وأسقمها. كما أن أحدكم لو خرج من حمام حار إلى موضع البرودة، لضره ذلك وأسقم بدنه فلم يجعل الله عز وجل هذا الترسل في الحر والبرد، إلا للسلامة من ضرر المفاجأة ولما جرى الأمر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجأة لولا التدبير في ذلك؟ فإن زعم زاعم: أن هذا الترسل في دخول الحر والبرد إنما يكون لإبطاء مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها، سئل عن العلة في إبطاء مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها، فإن اعتل في الإبطاء ببعد ما بين المشرقين[2] سئل عن العلة في ذلك، فلا تزال هذه المسألة ترقى معه إلى حيث رقي من هذا القول، حتى استقر عن العمد والتدبير...

---

(١) أحدهما أي الحر والبرد.

(٢) المراد بالمشرقين هنا هما المشرق والمغرب من باب تغليب أحدهما على الآخر.

لولا الحر لما كانت الثمار الجاسية[١] المرة تنضج فتلين وتعذب، حتى يتفكه بها رطبة ويابسة.. ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ[٢] هكذا، ويريع الريع[٣] الكثير الذي يتسع للقوت، وما يرد في الأرض للبذر... أفلا ترى ما في الحر والبرد، من عظيم الغناء والمنفعة، وكلاهما مع غنائه والمنفعة فيه يؤلم الأبدان ويمضها[٤] وفي ذلك عبرة لمن فكر، ودلالة على أنه من تدبير الحكيم، في مصلحة العالم وما فيه.

الريح وما فيها

وأنبهك يا مفضل على الريح وما فيها، ألست ترى ركودها إذا ركدت كيف يحدث الكرب، الذي يكاد أن يأتي على النفوس، ويمرض الأصحاء، وينهك المرضى، ويفسد الثمار، ويعفن البقول، ويعقب الوباء في الأبدان، والآفة في الغلات. ففي هذا بيان أن

---

(١) الجاسية: أي الصلبة.

(٢) يفرخ الزرع: أي تنبت أفراخه وهي ما يخرج في أصوله من صغاره.

(٣) يريع الريع أي تنمو الغلة وتزداد.

(٤) يمضها: يوجعها ويؤلمها.

هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق.

الهواء والأصوات

وأنبئك عن الهواء بخلَّة أخرى، فإن الصوت أثر يؤثره اصطكاك الأجسام في الهواء، والهواء يؤديه إلى المسامع والناس يتكلمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم، فلو كان أثر هذا الكلام يبقى في الهواء. كما يبقى الكتاب في القرطاس، لامتلأ العالم منه، فكان يكربهم ويفدحهم، وكانوا يحتاجون في تجديده والاستبدال به، إلى أكثر مما يحتاج إليه في تجديد القراطيس، لأن ما يلفظ من الكلام أكثر مما يكتب، فجعل الخلاق الحكيم جل قدسه هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام ريثما يبلغ العالم حاجتهم، ثم يمحى فيعود جديداً نقياً، ويحمل ما حمل أبداً بلا انقطاع، وحسبك بهذا النسيم المسمى هواء عبرة، وما فيه من المصالح، فإنه حياة هذه الأبدان، والممسك لها من داخل، بما يستنشق منه من خارج بما يباشر من روحه، وفيه تطرد هذه الأصوات فيؤدي البعد البعيد.. وهو الحامل لهذه الأرواح ينقلها من موضع إلى موضع... ألا ترى كيف تأتيك الرائحة

من حيث تهب الريح، فكذلك الصوت، وهو القابل لهذا الحر والبرد، اللذين يتعاقبان على العالم لصلاحه، ومنه هذه الريح الهابة فالريح تروح عن الأجسام وتزجي السحاب من موضع إلى موضع، ليعم نفعه، حتى يستكثف فيمطر، وتفضه حتى يستخف فيتفشى وتلقح الشجر، وتسير السفن، وترخى الأطعمة، وتبرد الماء، وتشب النار، وتجفف الأشياء الندية، وبالجملة أنها تحيي كل ما في الأرض... فلولا الريح لذوى النبات، ولمات الحيوان، وحمت الأشياء وفسدت.

هيئة الأرض

فكر يا مفضل فيما خلق الله عز وجل عليه هذه الجواهر الأربعة[1] ليتسع ما يحتاج إليه منها.. فمن ذلك سعة هذه الأرض وامتدادها، فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الناس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت أخشابهم وأحطابهم والعقاقير العظيمة والمعادن الجسيم غناؤها. ولعل من ينكر هذه الفلوات[2] الخاوية والقفار

---

(١) المراد بالجواهر الأربعة هي التراب والماء والهواء والنار

(٢) الفلوات جمع فلات وهي الصحراء الواسعة.

الموحشة. فيقول: ما المنفعة فيها؟ فهي مأوى هذه الوحوش ومحالها ومراعيها، ثم فيها بعد تنفس، ومضطرب للناس إذا احتاجوا إلى الاستبدال بأوطانهم، فكم بيداء وكم فدفد[١] حالت قصوراً وجناناً، بانتقال الناس إليها وحلولهم فيها، ولولا سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن هو في حصار ضيق لا يجد مندوحة عن وطنه إذا أحزنه أمر يضطره إلى الانتقال عنه.

ثم فكر في خلق هذه الأرض على ما هي عليه حين خلقت راتبة راكنة، فتكون موطناً مستقراً للأشياء، فيتمكن الناس من السعي عليها في مآربهم، والجلوس عليها لراحتهم، والنوم لهدوئهم، والإتقان لأعمالهم فإنها لو كانت رجراجة منكفئة، لم يكونوا يستطيعون أن يتقنوا البناء والنجارة والصناعة وما أشبه ذلك، بل كانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيب الناس حين الزلازل ـ على قلة مكثها ـ حتى يصيروا إلى ترك منازلهم، والهرب عنها.. فإن قال قائل: فلمَ صارت هذه الأرض تزلزل؟ قيل له: إن

---

(١) الفدفد: الفلاة والجمع فدافد.

الزلزلة وما أشبهها موعظة وترهيب يرهب لها الناس ليرعوا، وينتزعوا عن المعاصي، وكذلك ما ينزل بهم من البلاء في أبدانهم وأموالهم، يجري في التدبير على ما فيه صلاحهم واستقامتهم، ويدخر لهم إن صلحوا من الثواب والعوض في الآخرة ما لا يعد له شيء من أمور الدنيا، وربما عجل ذلك في الدنيا إذا كان ذلك في الدنيا صلاحاً للعامة والخاصة، . . ثم أن الأرض في طباعها الذي طبعها الله عليه باردة يابسة، وكذلك الحجارة، وإنما الفرق بينها وبين الحجارة فضل يبس في الحجارة، أفرأيت لو أن اليبس أفرط على الأرض قليلاً، حتى تكون حجراً صلداً، أكانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوان، وكان يمكن بها حرث أو بناء؟؟ أفلا ترى كيف نقصت من يبس الحجارة وجعلت على ما هي عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ للاعتماد.

فوائد الماء والسبب في كثرته

ومن تدبير الحكيم جل وعلا في خلقه الأرض أن مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب[1] فلم جعل الله

---

(١) أي بعدما خرجت الأرض من الكروية الحقيقية، صار ما يلي=

عز وجل كذلك إلا لتنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها، ثم تفيض آخر ذلك إلى البحر، فكما يرفع أحد جانبي السطح، ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولا يقوم عليه كذلك جعل مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب لهذه العلة بعينها، ولولا ذلك لبقي الماء متحيراً على وجه الأرض، فكان يمنع الناس من أعمالها، ويقطع الطرق والمسالك، ثم الماء لولا كثرته، وتدفقه في العيون والأودية والأنهار، لضاق عما يحتاج إليه الناس، لشربهم وشرب أنعامهم ومواشيهم، وسقي زروعهم وأشجارهم وأصناف غلاتهم، وشرب ما يرده من الوحوش والطير والسباع، وتتقلب فيه الحيتان ودواب الماء، وفيه منافع أخر أنت بها عارف وعن عظيم موقعها غافل فإنه[1] سوّى الأمر الجليل

الشمال منها في أكثر المعمورة أرفع مما يلي الجنوب، ولذا ترى أكثر الأنهار كدجلة والفرات وغيرهما تجري من الشمال إلى الجنوب، لأن الماء الساكن في جوف الأرض تابع للأرض في ارتفاع وانخفاضه، ولذا ـ أيضاً صارت العيون المتفجرة تجري هكذا من الشمال إلى الجنوب. . ومن أجل ذلك حكموا بفوقية الشمال على الجنوب. ويظهر لك مما بينه الإمام عليه السلام أنه لا ينافي كروية الأرض (من تعليقات البحار).

(١) الضمير راجع إلى الماء وهو اسم أن ويمزج خبرها. . أي للماء

المعروف من عظيم غنائه في إحياء جميع ما على الأرض من الحيوان والنبات يمزج الأشربة فتلذ وتطيب لشاربها، وبه تنظف الأبدان والأمتعة من الدرن[١] الذي يغشاها، وبه يبل[٢] التراب فيصلح للأعمال وبه يكف عادية النار إذا اضطرمت، وأشرف الناس على المكروه، وبه يستحم المتعب الكال[٣] فيجد الراحة من أوصابه، إلى أشباه هذا من المآرب التي تعرف عظم موقعها في وقت الحاجة إليها، فإن شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار، وقلت: ما الأرب فيه؟ فعلم أنه مكتنف ومضطرب ما لا يحصى من أصناف السمك ودواب البحر ومعدن اللؤلؤ والياقوت والعنبر[٤] وأصناف شتى تستخرج من البحر، وفي سواحله منابت العود اليلنجوج[٥] وضروب من الطيب

سوى النفع الجليل المعروف وهو كونه سبباً لحياة كل شيء ومنافع أخرى منها أنه يمزج مع الأشربة.

(١) الدرن ـ بفتحتين ـ هو الوسخ جمعه أدران.

(٢) بله الماء: نداه.

(٣) الكال اسم فاعل من كلّ: تعب واعياً.

(٤) العنبر هو الطيب والزعفران، أو حوت قد يبلغ طوله نحواً من ٦٠ قدماً ضخم الرأس وله أسنان بخلاف البال والجمع عنابر.

(٥) اليلنجوج: العود الطيب الرائحة.

والعقاقير، ثم هو بعد مركب للناس، ومحمل لهذه التجارات التي تجلب من البلدان البعيدة، كمثل ما يجلب من الصين إلى العراق، ومن العراق إلى الصين فإن هذه التجارات، لو لم يكن لها محمل إلا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وأيدي أهلها، لأن أجر حملها يجاوز أثمانها، فلا يتعرض أحد لحملها وكان يجتمع في ذلك أمران: أحدهما فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها والآخر انقطاع معاش من يحملها ويتعيش بفضلها.

فوائد الهواء والسبب في كثرته

وهكذا الهواء لولا كثرته وسعته لاختنق هذا الأنام من الدخان والبخار الذي يتحير فيه، ويعجز عما يحول إلى السحاب والضباب أولاً أولاً، فقد تقدم من صفته ما فيه كفاية.

منافع النار وجعلها كالمخزونة في الأجسام

والنار أيضاً كذلك، فإنها لو كانت مبثوثة كالنسيم والماء كانت تحرق العالم وما فيه، ولما لم يكن بد من ظهورها في الأحايين، لغنائها في كثير من المصالح، جعلت كالمخزونة في الأجسام، فتلتمس عند الحاجة

إليها، وتمسك بالمادة والحطب ما احتيج إلى بقائها لئة تخبو فلا هي تمسك بالمادة والحطب، فتعظم المؤونة في ذلك، ولا هي تظهر مبثوثة، فتحرق كل ما هي فيه، بل هي على تهيئة وتقدير، اجتمع فيها الاستمتاع لمنافعها والسلامة من ضررها.

ثم فيها خلة أخرى وهي أنها مما خُصّ بها الإنسان دون جميع الحيوان لما له فيها من المصلحة، فإنه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الضرر في معاشه، فأما البهائم فلا تستعمل النار، ولا تستمتع بها، ولما قدر الله عز وجل أن يكون هذا هكذا، خلق للإنسان كفاً وأصابع مهيئة لقدح النار واستعمالها، ولم يعطِ البهائم مثل ذلك، لكنها أعينت بالصبر على الجفاء والخلل في المعاش لكيلا ينالها في فقد النار ما ينال الإنسان عند فقدها.

وأنبئك من منافع النار على خلقة صغيرة عظيم موقعها، وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس، فيقضون به حوائجهم ما شاؤوا في ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس تصرف أعمارهم بمنزلة من في القبور، فمن كان يستطيع أن يكتب أو يحفظ، أو ينسج

في ظلمة الليل، وكيف كان حال من عرض له وجع في وقت من أوقات الليل، فاحتاج إلى أن يعالج ضماداً أو سفوفاً[١] أو شيئاً يستشفى به.. فأما منافعها في نضج الأطعمة ودفاء الأبدان وتجفيف أشياء وتحليل أشياء وأشباه ذلك، فأكثر من أن تحصى وأظهر من أن تخفى.

الصحو والمطر وتعاقبهما على العالم وفوائد ذلك

فكر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يتعاقبان على هذا العالم لما فيه صلاحه، ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساده.. ألا ترى أن الأمطار إذا توالت عفنت البقول والخضر، واسترخت أبدان الحيوان وحصر الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض. وفسدت الطرق والمسالك وأن الصحو إذا دام جفت الأرض، واحترق النبات، وغيض ماء العيون والأودية، فأضر ذلك بالناس، وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروباً أخرى من الأمراض... فإذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية

---

(١) السفوف ـ بالفتح ـ: ما تسفه من دواء ونحوه. وسف الدواء ونحوه: أخذه غير ملتوت.

الأخر، فصلحت الأشياء واستقامت.. فإن قال قائل: ولِمَ لا يكون في شيء من ذلك مضرة ألبتة؟ قيل له: ليمض ذلك الإنسان ويؤلمه بعض الألم، فيرعوي عن المعاصي، فكما أن الإنسان إذا سقم بدنه احتاج إلى الأدوية المرة البشعة ليقوم طباعه، ويصلح ما فسد منه، كذلك إذا طغى واشتد، احتاج إلى ما يمضه ويؤلمه، ليرعوي ويقصر عن مساويه، ويثبته على ما فيه حظه ورشده.. ولو أن ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته قناطيراً[١] من ذهب وفضة، ألم يكن سيعظم عندهم ويذهب له به الصوت، فأين هذا من مطرة رواء يعم به البلاد، ويزيد في الغلات أكثر من قناطير الذهب والفضة في أقاليم الأرض كلها.. أفلا ترى المطرة الواحدة ما أكبر قدرها، وأعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهون، وربما عاقت عن أحدهم حاجة لا قدر لها، فيتذمر ويسخط إيثاراً للخسيس قدره على العظيم نفعه، جميلاً محموداً لعاقبته وقلة معرفته لعظيم الغناء والمنفعة فيها.

---

(١) القناطير جمع قنطار وهو المال الكثير أو وزن اختلف مقدار موزونه مع الأيام.

مصالح نزول المطر على الأرض وأثر التدبير فيه

تأمل نزوله على الأرض والتدبير في ذلك، فإنه جعل ينحدر عليها من علو ليغشى ما غلظ وارتفع منها فيرويه، ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها، ويقل ما يزرع في الأرض... ألا ترى أن الذي يزرع سيحاً[١] أقل من ذلك، فالأمطار هي التي تطبق الأرض، وربما تزرع هذه البراري الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتغل الغلة الكثيرة. وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤنة سياق الماء من موضع إلى موضع، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العز والقوة، ويحرمه الضعفاء، ثم أنه حين قدر أن ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش، ليغور في قعر الأرض فيرويها، ولو كان يسكبه انسكاباً كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها، ثم كان يحطم الزروع القائمة إذا اندفق عليها، فصار ينزل نزولاً رقيقاً، فينبت

---

(١) زراعة السيح هي الزراعة التي تحصل عن طريق الأنهر والمياه الجارية.

الحب المزروع. ويحيي الأرض والزرع القائم.

وفي نزوله أيضاً مصالح أخرى، فإنه يلين الأبدان، ويجلو كدر الهواء، فيرتفع الوباء الحادث من ذلك، ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الدماء المسمى باليرقان[١] إلى أشباه هذا من المنافع، فإن قال قائل: أوليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم الكثير، لشدة ما يقع منه، أو برد[٢] يكون فيه تحطم الغلات، وبخورة يحدثها في الهواء، فيولد كثيراً من الأمراض في الأبدان، والآفات في الغلات؟ قيل: بلى قد يكون ذلك الفرط، لما فيه من صلاح الإنسان، وكفه عن ركوب العاصي والتمادي فيها. فيكون المنفعة فيما يصلح له من دينه، أرجح مما عسى أن يرزأ في ماله!.

---

(١) اليرقان ـ بفتحيتن أو فتح فسكون ـ آفة للزرع أو دود يسطو على الزرع.

(٢) البرد ـ بفتحتين: ماء الغمام يتجمد في الهواء البارد ويسقط على الأرض حبوباً.

منافع الجبال

انظر يا مفضل إلى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة، التي يحسبها الغافلون فضلاً لا حاجة إليها. والمنافع فيها كثيرة، فمن ذلك أن تسقط عليها الثلوج، فتبقى في قلالها[١] لمن يحتاج إليه، ويذوب ما ذاب منه، فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظم، وينبت فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل، ويكون فيها كهوف ومعاقل للوحوش من السباع العادية[٢] ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الأعداء وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء[٣] ويوجد فيها معادن لضرب من الجواهر، وما فيها خلال أُخر لا يعرفها إلا المقدر لها في سابق علمه.

---

(١) القلال ـ بالكسر ـ جمع قلة ـ بضم فتشديد ـ أعلى الرأس والجبل وكل شيء.

(٢) العادية: المعتدية.

(٣) الأرحاء: جمع رحى وهي الطاحون.

أنواع المعادن واستفادة الإنسان منها

فكر يا مفضل: في هذه المعادن وما يخرج منها من الجواهر المختلفة مثل الجص والكلس والجبسين والزرنيخ[١] والمرتك[٢] والتوتيا[٣] والزئبق[٤] والنحاس والرصاص والفضة والذهب والزبرجد والياقوت والزمرد وضروب الحجارة، وكذلك ما يخرج منها من القار والموميا والكبريت والنفط[٥] وغير ذلك مما

---

(١) الزرنيخ عنصر معروف يوجد منفرداً وعلى حالة كبرتيور الزرنيخ وهو جسم صلب لونه سنجابي لماع متبلور يتطاير بالحرارة من غير أن يصهر ولا يذوب في الماء، وإذا خلط الزرنيخ مع الكلس حلق الشعر.

(٢) المرتك وتضاف إليه غالباً كلمة الذهبي وهو أكسيد الرصاص عبارة عن بلورات صغيرة مسحوقة يدخل في تركيب مرهم للبواسير.

(٣) التوتياهي أوكسيد الزنك غير النقي مخلوطاً مع الزرنيخ لا يستعمل في الطب.

(٤) الزئبق سيال معدني لماع يتجمد على درجة ٤٠ تحت الصفر ويغلي على درجة ٣٦٠ فوق الصفر، ويستعمل لاستخراج الذهب والفضة بالتملغم وفي البارومتر والترومومتر وفي عمل المرايا وفي الطب دهاناً على الجلد في معالجة الزهري.

يستعمله الناس في مآربهم فهل يخفى على ذي عقل أن هذه كلها ذخائر ذخرت للإنسان في هذه الأرض، ليستخرجها فيستعملها عند الحاجة إليها، ثم قصرت حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك فإنهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم كان لا محالة سيظهر، ويستفيض في العالم، حتى تكثر الفضة والذهب، ويسقطا عند الناس. فلا تكون لهما قيمته. ويبطل الانتفاع بهما في الشراء والبيع والمعاملات، ولا كان يجبي السلطان الأموال ولا يدخرهما أحد للأعقاب، وقد أعطى الناس ـ مع هذا ـ صنعة الشبه[1] من النحاس، والزجاج من الرمل. والفضة من الرصاص، والذهب من الفضة، وأشباه ذلك مما لا مضرة فيه.

فانظر كيف أعطوا إرادتهم في ما لا ضرر فيه، ومنعوا ذلك فيما كان ضاراً لهم لو نالوه، ومن أوغل في المعادن انتهى إلى وادٍ عظيم يجري منصلتاً بماء غريز، لا يدرك غوره، ولا حيلة في عبوره، ومن ورائه

(١) الشبه ـ بكسر ففتح ـ هو النحاس الأصفر.

أمثال الجبال من الفضة.

تفكر الآن في هذا، من تدبير الخالق الحكيم، فإنه أراد جل ثناؤه أن يُري العباد قدرته، وسعة خزائنه، ليعلموا أنه لو شاء أن يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل، لكن لا صلاح لهم في ذلك، لأنه لو كان فيكون فيها ـ كما ذكرنا ـ سقوط هذا الجوهر عند الناس، وقلة انتفاعهم به. واعتبر ذلك بأنه قد يظهر الشيء الظريف مما يحدثه الناس من الأواني والأمتعة، فما دام عزيزاً قليلاً، فهو نفيس جليل آخذ الثمن، فإذا فشا وكثر في أيدي الناس، سقط عندهم وخست قيمته.. ونفاسة الأشياء من عزتها.

النبات وما فيه من ضروب المآرب

فكر يا مفضل في هذا النبات وما فيه من ضروب المآرب، فالثمار للغذاء، والأتبان للعلف، والحطب للوقود، والخشب لكل شيء من أنواع التجارة وغيرها، واللحاء[1] والورق والأصول والعروق والصموغ لضروب من المنافع. أرأيت لو كنا نجد الثمار التي

(١) اللحاء: قشر العود أو الشجر.

نغتذي بها مجموعة على وجه الأرض، ولم تكن تنبت على هذه الأغصان الحاملة لها، كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا، وإن كان الغذاء موجوداً فإن المنافع بالخشب والحطب والأتبان وسائر ما عددناه كثيرة عظيم قدرها، جليل موقعها، هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظره، ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر العالم وملاهيه.

الريع في النبات وسببه

فكر يا مفضل في هذا الريع الذي جعل في الزرع، فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر وأقل، وكان يجوز للحبة أن تأتي بمثلها فلم صارت تريع هذا الريع إلا ليكون في الغلة[1] متسع، لما يرد في الأرض من البذر، وما يتقوت الزراع إلى إدراك زرعها المستقبل، ألا ترى أن الملك لو أراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل في ذلك أن يعطي أهله ما يبذرونه في أرضهم وما يقوتهم إلى إدراك زرعهم.

فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم في تدبير

---

(١) الغلة ـ بالفتح ـ: الدخل من كراء دار وفائدة أرض ونحو ذلك والجمع غلات وغلال.

الحكيم، فصار الزرع يريع هذا الريع ليفي بما يحتاج إليه للقوت والزراعة، وكذلك الشجر والنبت والنخل يريع الريع الكثير، فإنك ترى الأصل الواحد حوله من فراخه أمراً عظيماً، فلِمَ كان كذلك إلا ليكون فيه ما يقطعه الناس، ويستعملونه في مآربهم، وما برد فيغرس في الأرض، ولو كان الأصل منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يريع لما أمكن أن يقطع منه شيء لعمل ولا لغرس، ثم كان إن أصابته آفة انقطع أصله، فلم يكن منه خلف.

بعض النباتات وكيف تصان

تأمل نبات هذه الحبوب من العدس والماش والباقلاء وما أشبه ذلك فإنها تخرج في أوعية مثل الخرائط[١] لتصونها وتحجبها من الآفات إلى أن تشتد وتستحكم، كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه وأما البرُّ[٢] وما أشبه فإنه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤوسها أمثال الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفر على الزراع فإن قال قائل: أو

---

(١) لعل مراد الإمام «ع» الشكل المخروطي.

(٢) البر ـ بضم فتشديد ـ هو القمح، الواحدة برُة.

ليس قد ينال الطير من البرّ والحبوب؟ قيل له: بلى على هذا قدر الأمر فيها، لأن الطير خلْق من خلق الله تعالى وقد جعل الله تبارك وتعالى له في ما تخرج الأرض حظاً ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لئلا يتمكن الطير منها كل التمكن فيعبث بها ويفسد الفساد الفاحش. فإن الطير لو صادف الحب بارزاً ليس عليه شيء يحول دونه لأكب عليه حتى ينسفه أصلاً، فكان يعرض من ذلك أن يبشم[1] الطير فيموت، ويخرج الزراع من زرعه صفراً، فجعلت عليه هذه الوقايات لتصونه، فينال الطائر منه شيئاً يسيراً يتقوت به، ويبقى أكثره للإنسان، فإنه أولى به، إذ كان هو الذي كدح فيه وشقى به، وكان الذي يحتاج إليه أكثر مما يحتاج إليه الطير.

الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات، فإنها لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان، ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة

---

(١) يبشم الطعام: أي يتخم من الطعام.

تنبعث بها لتناول الغذاء، جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتنزع منها الغذاء فتؤديه إلى الأغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها، وصارت أصولها التي هي كالأفواه ملتقمة للأرض لتنزع منها الغذاء، كما ترضع أصناف الحيوان أمهاتها، ألم ترى إلى عمد الفساطيط[1] والخيم كيف تمد بالأطناب[2] من كل جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه، ولولا ذلك كيف كان يثبت هذا النخل الطوال والدوح العظام في الريح العاصف؟.

فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة فصارت الحيلة التي تستعملها الصناع في ثبات الفساطيط والخيم، متقدمة في خلق الشجر، لأن خلق الشجر قبل صنعة الفساطيط والخيم... ألا ترى عمدها وعيدانها من الشجر، فالصناعة مأخوذة من الخلقة.

---

(١) الفساطيط جمع فسطاط وهو الخيمة.

(٢) الأطناب جمع طنب ـ بضمتين ـ حبل طويل يشد به سرادق البيت.

خلق الورق ووصفه

تأمل يا مفضل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجماً، لو كان مما يصنع بالأيدي كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة في عام كامل، ولاحتيج إلى آلات وحركة وعلاج وكلام، فصار يأتي منه في أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وبقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام، إلا بالإرادة النافذة في كل شيء والأمر المطاع.. واعرف مع ذلك العلة في تلك العروق الدقاق، فإنها جعلت تتخلل الورقة بأسرها، لتسقيها وتوصل الماء إليها، بمنزلة العروق المبثوثة في البدن، لتوصل الغذاء إلى كل جزء منه، وفي الغلاظ منها معنى آخر، فإنها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها، لئلا تنهتك وتتمزق، فترى الورقة شبيهاً بورقة معمولة بالصنعة من خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة في طولها وعرضها لتتماسك فلا تضطرب.. فالصناعة تحكي الخلقة وإن كانت لا تدركها على الحقيقة.

العجم والنوى والعلة في خلقه

فكر في هذا العجم والنوى والعلة فيه، فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغرس إن عاق دون الغرس عائق، كما يحرز الشيء النفيس الذي تعظم الحاجة إليه في مواضع أخر، فإن حدث على الذي في بعض المواضع منه حادث وجد في موضع آخر، ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة الثمار ورقتها، ولولا ذلك لتشدخت[١] وتفسخت، وأسرع إليها الفساد وبعضه يؤكل ويستخرج دهنه، فيستعمل منه ضروب من المصالح، وقد تبيَّن لك موضع الإرب في العجم والنوى.

فكِّر الآن في هذا الذي تجده فوق النواة من الرطبة، وفوق العجم من العنبة، فما العلة فيه؟ ولماذا يخرج في هذه الهيئة؟ وقد كان يمكن أن يكون مكان ذلك ما ليس فيه مأكل كمثل ما يكون في السدر[٢] والدُلب[٣] وما أشبه ذلك. فلِمَ صار يخرج فوقه هذه

(١) تشدخت: تكسرت.

(٢) السدر ـ بالكسر ـ شجر النبق جمعه سدور.

(٣) الدلب ـ بالضم ـ شجر عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمر والواحدة دلبة.

المطاعم اللذيذة، إلا ليستمتع بها الإنسان؟.

موت الشجر وتجدد حياته وما في ذلك من ضروب التدبير

فكِّر في ضروب من التدبير في الشجر، فإنك تراه يموت في كل سنة موتة، فتحتبس الحرارة الغريزية في عوده، ويتولد فيه مواد الثمار ثم يحيى وينتشر، فيأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع، كما تعد نوع، كما تقدم إليك أنواع الأطبخة التي تعالج بالأيدي واحداً بعد واحد، فترى الأغصان في الشجر تتلقاك بثمارها حتى كأنها تناولكها عن يد، وترى الرياحين تتلقاك في أفنائها(١) كأنها تجئك بأنفسها، فلمن هذا التقدير إلا لمقدر حكيم وما العلة فيه إلا تفكيه الإنسان بهذه الثمار والأنوار؟... والعجب من أُناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها.

خلق الرمانة وأثر العمد فيه

واعتبر بخلق الرمانة وما ترى فيها من أثر العمد والتدبير، فإنك ترى فيها كأمثال التلال، من شحم

---

(١) الأفنان جمع فنن وهو الغصن المستقيم.

مركوم في نواحيها، وحب مرصوف صفاً كنحو ما ينضد بالأيدي، وترى الحب مقسوماً أقساماً، وكل قسم منها ملفوفاً بلفائف من حجب منسوجة أعجب النسج وألطفه وقشره يضم ذلك كله.

فمن التدبير في هذه الصنعة أنه لم يكن يجوز أن يكون حشو الرمانة من الحب وحده، وذلك أن الحب لا يمد بعضه بعضاً، فجعل ذلك الشحم خلال الحب ليمده بالغذاء. ألا ترى أن أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم، ثم لف بتلك اللفائف لتضمه وتمسكه فلا يضطرب، وغشي فوق ذلك بالقشرة المستحصفة لتصونه وتحصنه من الآفات، فهذا قليل من كثير من وصف الرمانة، وفيه أكثر من هذا لمن أراد الإطناب[١] والتذرع[٢] في الكلام، ولكن فيما ذكرت لك كفاية في الدلالة والاعتبار.

---

(١) يقال: أطنب في الوصف أو القول، أي بالغ.

(٢) التذرع في الكلام هو الإكثار منه والإفراط فيه.

حمل اليقطين وما فيه من التدبير والحكمة

فكر يا مفضل في حمل اليقطين الضعيف مثل هذه الثمار الثقيلة من الدباء[١] والقثاء[٢]والبطيخ وما في ذلك من التدبير والحكمة، فإنه حين قدر أن يحمل مثل هذه الثمار جعل نباته منبسطاً على الأرض، ولو كان ينتصب قائماً كما ينتصب الزرع والشجر، لما استطاع أن يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة، ولتقصف قبل إدراكها وانتهائها إلى غاياتها.. فانظر كيف صار يمتد على وجه الأرض ليلقي عليها ثماره فتحملها عنه فترى الأصل من القرع[٣] والبطيخ مفترشاً للأرض، وثماره مبثوثة عليها وحواليه كأنه هرة ممتدة، وقد اكتنفتها جراؤها[٤] لترضع منها.

---

(١) القثاء ـ بالضم ـ نوع من النبات ثمره يشبه ثمر الخيار الواحدة قثاءة.

(٢) القرع ـ بالفتح ـ نوع من اليقطين، الواحدة قرعة.

(٣) الجراء جمع جرو ـ بتثليث الجيم ـ صغير كل شيء والمراد هنا بالجراء أولاد الهرة.

موافاة أصناف النبات في الوقت المشاكل لها

وانظر كيف صارت الأصناف توافي في الوقت المشاكل لها، من حمارَّة[١] الصيف ووقدة الحر فتلقاها النفوس بانشراح وتشوق إليها، ولو كانت توافي الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها واقشعراراً[٢] منها مع ما يكون فيها من المضرة للأبدان. ألا ترى أنه ربما أدرك شيء من الخيار في الشتاء، فيمتنع الناس من أكله إلا الشره الذي لا يمتنع من أكل ما يضره ويسقم معدته.

في النخل وخلقة الجذع والخشب وفوائد ذلك

فكر يا مفضل في النخل، فإنه لما صار فيه إناث تحتاج إلى التلقيح جعلت فيه ذكورة اللقاح من غير غراس، فصار الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذي يلقح الإناث لتحمل وهو لا يحمل. تأمل خلقة الجذع كيف هو؟ فإنك تراه كالمنسوج نسجاً من خيوط ممدودة كالسدى وأخرى معه معترضة كاللحمة[٣]

---

(١) الحمارة: شدة الحر والجمع حمّار.

(٢) اقشعر: تغير لونه.

(٣) اللحمة ـ بالضم ـ ما سدي الثوب أي ما نسج عرضاً وهو خلاف سواه والجمع لُحم.

كنحو ما ينسج بالأيدي، وذلك ليشتد ويصلب ولا يتقصف من حمل القنوات[١] الثقيلة وهز الرياح العواصف إذا صار نخلة وليتهيأ للسقوف والجسور وغير ذلك مما يتخذ مه إذا صار جذعاً.

وكذلك ترى الخشب مثل النسج فإنك ترى بعضه مداخلاً بعضه بعضاً طولاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم، وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فإنه لو كان مستحصفاً[٢] كالحجارة لم يمكن أن يستعمل في السقوف وغير ذلك مما يستعمل فيه الخشبة كالأبواب والأسرة والتوابيت وما أشبه ذلك... ومن جسيم المصالح في الخشب أنه يطفو على الماء، فكل الناس يعرف هذا منه، وليس كلهم يعرف جلالة الأمر فيه، فلولا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن والأظراف[٣] تحمل أمثال الجبال من الحمولة، وأنى

---

(١) في الأصل المطبوع ـ قنوان ـ ولا معنى لها هنا. والقنوات جمع قناة وهي العصا الغليظة وقد أراد بها الإمام عليه السلام هنا هي سعف النخل الغليظة.

(٢) أراد بالمستحصف: الشديد المحكم كأنه الحجارة.

(٣) كذا في النسخ، والظرف لا يجمع على لفظ أظراف وإنما يقال للجمع ظروف.

كان ينال الناس هذا الرفق وخفة المؤنة في حمل التجارات من بلد إلى بلد، وكانت تعظم المؤنة عليهم في حملها حتى يلقى كثير مما يحتاج إليه في بعض البلدان مفقوداً أصلاً أو عسر وجوده.

العقاقير واختصاص كل منها

فكر في هذه العقاقير وما خص بها كل واحد منها من العمل في بعض الأدواء، فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج[١] وهذا ينزف المرّة السوداء[٢] مثل الأفتيمون وهذا ينفي الرياح مثل السكبينج[٣] وهذا يحلل الأورام، وأشباه هذا من

---

(١) جاء في تذكرة الأنطاكي: شيطرج هندي هو الخامشة وهو نبت يوجد بالقبور الخراب له ورق عريض ودقيق ينتشر أعلاه إذا برد الجو وزهره أحمر إلى بياض، يخلف بزر أسود أصغر من الخردل ورائحته ثقيلة حادة وطعمه إلى مرارة.

(٢) المرة السوداء: خلط من أخلاط البدن والجمع مرار.

(٣) أفتيمون لفظ يوناني معناه دواء الجنون وهو نبات له أصل كالجزر شديد الحمرة وفروع كالخيوط الليفية تحف بأوراق دقاق خضر وزهرة إلى حمرة وغبرة وبزر دون الخردل أحمر إلى صفرة يلتف بما يليه.

أفعالها فمن جعل هذه القوى فيها إلا من خلقها للمنفعة؟ ومن فطن الناس لها إلا من جعل هذا فيها؟. ومتى كان يوقف على هذا منها بالعرض والاتفاق كما قال القائلون؟ وهب الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه ولطيف رويته وتجاربه، فالبهائم كيف فطنت لها حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه إن أصابته ببعض العقاقير فيبرأ، وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم، وأشباه هذا كثير، ولعلك تشكك في هذا النبات النابت في الصحاري والبراري حيث لا أنس ولا أنيس، فتظن أنه فضل لا حاجة إليه، وليس كذلك، بل هو طعم لهذه الوحوش، وحبه علف للطير، وعوده وأفنانه حطب، فيستعمله الناس، وفيه بعد أشياء تعالج بهذا الأبدان، وأخرى تدبغ بها الجلود، وأخرى تصبغ الأمتعة، وأشباه هذا من المصالح. . ألست تعلم أن من أخس النبات وأحقره هذا البردى وما أشبهها، ففيها مع هذا من ضروب المنافع، فقد يتخذ من البردي القراطيس التي يحتاج إليها الملوك والسوقة، والحصر التي يستعملها كل صنف من الناس، ويعمل منه الغلف التي يوقى بها الأواني، ويجعل حشواً بين الظروف وفي

الأسفاط، لكيلا تعيب وتنكسر، وأشباه هذا من المنافع.

فاعتبرِ بما ترى من ضروب المآرب في صغير الخلق وكبيره وبما له قيمة وما لا قيمة له، وأخس من هذا وأحقره الزبل، والعذرة التي اجتمعت فيها الخساسة والنجاسة معاً، وموقعها من الزروع والبقول والخضر أجمع الموقع الذي لا يعدله شيء، حتى أن كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو إلا بالزبل والسماد الذي يستقذره الناس، ويكرهون الدنو منه.

واعلم أنه ليس منزلة الشيء على حسب قيمته، بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين، وربما كان الخسيس في سوق المكتسب نفيساً في سوق العلم، فلا تستصغر العبرة في الشيء لصغر قيمته، فلو فطن طالبو الكيمياء لما في العذرة، لاشتروها بأنفس الأثمان وغالوا بها.

قال المفضل: وحان وقت الزوال، فقام مولاي إلى الصلاة وقال: بكّر إليَّ غداً إن شاء الله تعالى. فانصرفت وقد تضاعف سروري بما عرفنيه، مبتهجاً بما آتانيه، حامداً لله على ما منحنيه. فبت ليلتي مسروراً.

المجلس الرابع

قال المفضل: فلما كان اليوم الرابع بكرّت إلى مولاي فاستؤذن لي، فأمرني بالجلوس فجلست، فقال عليه السلام: منا التحميد والتسبيح والتعظيم والتقديس، للاسم الأقدم، والنور الأعظم، العلي العلام، ذي الجلال والإكرام، ومنشىء الأنام، ومفني العوالم والدهور، وصاحب السر المستور، والغيب المحظور، والاسم المخزون، والعلم المكنون، وصلواته وبركاته على مبلغ وحيه، ومؤدي رسالته، الذي بعثه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيى من حي عن بيّنة، فعليه وعلى آله من بارئه الصلوات الطيبات، والتحيات الزاكيات الناميات، وعليه وعليهم السلام والرحمة والبركات في الماضين والغابرين، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وهم أهله ومستحقوه.

الموت والفناء وانتقاد الجهال وجواب ذلك

قد شرحت لك يا مفضل من الأدلة على الخلق، والشواهد على صواب التدبير والعمد في الإنسان

والحيوان والنبات والشجر وغير ذلك. ما فيه عبرة لمن اعتبر، وأنا أشرح لك الآن الآفات الحادثة في بعض الأزمان التي اتخذها أناس من الجهال ذريعة إلى جحود الخلق والخالق والعمد والتدبير، وما أنكرت المعطلة والمنانية من المكاره والمصائب، وما أنكروه من الموت والفناء، وما قاله أصحاب الطبائع، ومن زعم أن كون الأشياء بالعرض والاتفاق، ليتسع ذلك القول في الرد عليهم قاتلهم الله أنىَّ يؤفكون.

الآفات ونظر الجهال إليها والجواب على ذلك

اتخذ أناس من الجهال هذه الآفات الحادثة في بعض الأزمان ـ كمثل الوباء واليرقان والبرد والجراد ـ ذريعة إلى جحود الخالق والتدبير والخلق، فيقال في جواب ذلك: أنه إن لم يكن خالق ومدبر فلم لا يكون ما هو أكثر من هذا وأفظع؟ فمن ذلك أن تسقط السماء على الأرض، وتهوي الأرض فتذهب سفلاً، وتتخلف الشمس عن الطلوع أصلاً، وتجف الأنهار والعيون

---

(١) سكبينج أو سكنبيج هو شجرة بفارس، ويورد الأطباء الأقدمون أوصافاً طبية كثيرة من السكنبيج ويذكرون أنه يذهب عدة أمراض.

حتى لا يوجد ماء للشفة، وتركد الريح، حتى تخم الأشياء وتفسد، ويفيض ماء البحر على الأرض فيغرقها، ثم هذه الآفات التي ذكرناها من الوباء والجراد وما أشبه ذلك ما بالها لا تدوم وتمتد، حتى تجتاح كل ما في العالم، بل تحدث في الأحايين، ثم لا تلبث أن ترفع. أفلا ترى أن العالم يصان ويحفظ من تلك الأحداث الجليلة التي لو حدث عليه شيء منها كان فيه بواره ويلذع[١] أحياناً بهذه الآفات اليسيرة، لتأديب الناس وتقويمهم، ثم لا تدوم هذه الآفات، بل تكشف عنهم عند القنوط منهم، فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة.

وقد أنكرت المنانية من المكاره والمصائب التي تصيب الناس فكلاهما يقول: إن كان للعالم خالق رؤوف رحيم، فلم تحدث فيه هذه الأمور المكروهة.. والقائل بهذا القول يذهب إلى إنه ينبغي أن يكون عيش الإنسان في هذه الدنيا صافياً من كل كدر، ولو كان هكذا كان الإنسان يخرج من الأشر والعتو[٢] إلى ما لا

---

(١) يقال لذعته النار أي أحرقته ولذعه بلسانه أي أوجعه بكلام.

يصلح في دين ولا دنيا، كالذي ترى كثيراً من المترفين ومن نشأ في الجدة والأمن، يخرجون إليه حتى أن أحدهم ينسى أنه بشر، وأنه مربوب أو أن ضرراً يمسه، أو أن مكروهاً ينزل به، أو أنه يجب عليه أن يرحم ضعيفاً، أو يواسي فقيراً، أو يرثي المبتلي، أو يتحنن على ضعيف، أو يتعطف على مكروب، فإذا عضته المكاره ووجد مضضها، اتعظ وأبصر كثيراً مما كان جهله وغفل عنه، ورجع إلى كثير مما كان يجب عليه.

والمنكرون لهذه الأمور المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرَّة البشعة، ويتسخطون من المنع من الأطعمة الضارة، ويتكرهون الأدب والعمل، ويحبون أن يتفرغوا للهو والبطالة، وينالوا كل مطعم ومشرب، ولا يعرفون ما تؤديهم إليه البطالة من سوء النشو والعادة، وما تعقبهم الأطعمة اللذيذة الضارة من الأدواء والأسقام، وما لهم في الأدب من الصلاح، وفي الأدوية من المنفعة، وإن شاب ذلك بعض الكراهة، فإن قالوا: فلِمَ لم يكن الإنسان معصوماً من

---

(١) العتو ـ بالضم ـ الاستكبار وتجاوز الحد.

المساوي، حتى لا يحتاج إلى أن تلذعه هذه المكاره، قيل: إذا كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها، ولا مستحقاً للثواب عليها. فإن قالوا: وما كان يضره أن لا يكون محموداً على الحسنات مستحقاً للثواب، بعد أن يصير إلى غاية النعيم واللذات؟ قيل لهم: اعرضوا على امرىء صحيح الجسم والعقل، أن يجلس منعماً، ويكفي كلما يحتاج إليه بلا سعي ولا استحقاق، فانظروا هل تقبل نفسه ذلك، بل ستجدونه بالقليل مما يناله بالسعي والحركة أشد اغتباطاً وسروراً منه بالكثير مما يناله بغير الاستحقاق، وكذلك نعيم الآخرة أيضاً يكمل لأهله بأن ينالوه بالسعي فيه والاستحقاق له فالنعمة على الإنسان في هذا الباب مضاعفة، فإن أعد له الثواب الجزيل على سعيه في هذه الدنيا وجعل له السبيل إلى أن ينال ذلك بسعي واستحقاق، فيكمل له السرور والاغتباط بما يناله منه... فإن قالوا: أوليس قد يكون من الناس من يركن إلى ما نال من خير، وإن كان لا يستحقه، فما الحجة في منع من رضي أن ينال نعيم الآخرة على هذه الجملة؟ قيل لهم: إن هذا باب لو صح للناس لخرجوا إلى غاية الكلب[1] والضراوة

على الفواحش، وانتهاك المحارم، فمن كان يكف نفسه عن فاحشة أو يتحمل المشقة في باب من أبواب البر لوثق بأنه صائر إلى النعيم لا محالة، أو من كان يأمن على نفسه وأهله وماله من الناس لو لم يخاف الحساب والعقاب، فكان ضرر هذا الباب سينال الناس في هذه الدنيا قبل الآخرة. فيكون في ذلك تعطيل العدل والحكمة معاً، وموضع للطعن على التدبير بخلاف الصواب ووضع الأمور في غير مواضعها.

لماذا تصيب الآفات جميع الناس وما الحجة في ذلك

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس، فتعم البر والفاجر أو يبتلي بها البر ويسلم الفاجر منها، فقالوا: كيف يجوز هذا في تدبير الحكيم وما الحجة فيه؟ فيقال لهم: إن هذه الآفات وإن كانت تنال الصالح والطالح جميعاً. فإن الله عز وجل جعل ذلك صلاحاً للصنفين كليهما، أما الصالحون فإن الذي يصيبهم من

---

(١) الكلب ـ بفتحتين ـ هو داء يشبه الجنون يأخذ الكلاب فتعض الناس فتكلب الناس أيضاً إذا تمنعوا عن استعمال لقاح الطبيب الفرنسي المعروف باستور.

هذا يزدهم نعم ربهم عندهم في سالف أيامهم فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر، وأما الطالحون فإن مثل هذا إذا نالهم كسر شرتهم وردعهم عن المعاصي والفواحش، وكذلك يجعل لمن سلم منهم من الصنفين صلاحاً في ذلك، أما الأبرار فإنهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح ويزدادون فيه رغبة وبصيرة وأما الفجار فإنهم يعرفون رأفة ربهم، وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق. فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس، والصفح عمن أساء إليهم.. ولعل قائلاً يقول: إن هذه الآفات التي تصيب الناس في أموالهم، فما قولك فيما يبتلون به في أبدانهم، فيكون فيه تلفهم كمثل الحرق والغرق والسيل والخسف؟ فيقال له أن الله جعل في هذا أيضاً صلاحاً للصنفين جميعاً، أما الأبرار فلما لهم في مفارقة هذه الدنيا من الراحة من تكاليفها، والنجاة من مكارهها، وأما الفجار فلما لهم في ذلك من تمحيص أوزارهم، وحبسهم عن الازدياد منها، وجملة القول أن الخالق تعالى ذكره بحكمته وقدرته قد يصرف هذه الأمور كلها إلى الخير والمنفعة، فكما أنه إذا قطعت الريح شجرة أو قطعت نخلة، أخذها الصانع

الرفيق واستعملها في ضروب من المنافع، فكذلك يفعل المدبر الحكيم في الآفات التي تنزل بالناس في أبدانهم وأموالهم، فيصيرها جميعاً إلى الخير والمنفعة. . فإن قال: ولم تحدث على الناس؟ قيل له: لكيلا يركنوا إلى المعاصي من طول السلامة، فيبالغ الفاجر في ركوب المعاصي، ويفتر الصالح عن الاجتهاد في البر فإن هذين الأمرين جميعاً يغلبان على الناس في حال الخفض والدعة وهذه الحوادث التي تحدث عليهم تردعهم وتنبههم على ما فيه رشدهم، فلو خلوا منها لغلوا في الطغيان والمعصية، كما غلا الناس في أول الزمان. حتى وجب عليهم البوار بالطوفان وتطهير الأرض منهم.

الموت والفناء وانتقاد الجهال وجواب ذلك

ومما ينتقده الجاحدون للعمد والتقدير الموت والفناء. فإنهم يذهبون إلى أنه ينبغي أن يكون الناس مخلدين في هذه الدنيا. مبرئين من هذه الآفات، فينبغي أن يساق هذا الأمر إلى غايته، فينظر ما محصوله.

أفرأيت لو كان كل من دخل العالم ويدخله يبقون، ولا يموت أحد منهم، ألم تكن الأرض تضيق

بهم، حتى تعوزهم المساكن والمزراع والمعائش، فإنهم ـ والموت يفنيهم أولاً فأولاً ـ يتنافسون في المساكن والمزارع، حتى تنشب بينهم في ذلك الحروب، وتسفك فيهم الدماء، فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون، وكان يغلب عليهم الحرص والشره، وقساوة القلوب، فلو وثقوا بأنهم لا يموتون لما قنع الواحد منهم بشيء يناله، ولا أفرج لأحد عن شيء يسأله، ولا سلا عن شيء مما يحدث عليه، ثم كانوا يملون الحياة وكل شيء من أمور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره، حتى يتمنى الموت والراحة من الدنيا... فإن قالوا: إنه كان ينبغي أنه يرفع عنهم المكاره والأوصاب حتى لا يتمنوا الموت ولا يشتاقوا إليه. فقد وصفنا ما كان يخرجهم إليه من العتو والأشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدنيا والدين. وإن قالوا: إنه كان ينبغي أن لا يتوالدوا كيلا تضيق عنهم المساكن والمعائش. قيل لهم: إذا كان يحرم أكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله تعالى ومواهبه في الدارين جميعاً إذا لم يدخل العالم إلا قرن[1] واحد، لا يتوالدون ولا يتناسلون... فإن

قالوا: إنه كان ينبغي أن يخلق في ذلك القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق إلى انقضاء العالم، يقال لهم: رجع الأمر إلى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعائش عنهم، ثم لو كانوا لا يتوالدون ولا يتناسلون لذهب موضع الأنس بالقرابات وذوي الأرحام والانتصار بهم عند الشدائد، وموضع تربية الأولاد والسرور بهم، ففي هذا دليل على أن كلما تذهب إليه الأوهام ـ سوى ما جرى به التدبير ـ خطأ وسفه من الرأي والقول.

الطعن على التدبير من جهة أخرى والجواب عليه

ولعل طاعناً يطعن على التدبير من جهة أخرى فيقول كيف يكون ها هنا تدبير، ونحن نرى الناس في هذه الدنيا من عزيز، فالقوي يظلم ويغصب، والضعيف يظلم ويسالم الخسف، والصالح فقير مبتلى، والفاسق معافى موسع عليه، ومن ركب فاحشة أو انتهك محرماً لم يعاجل بالعقوبة. فلو كان في العالم تدبير لجرت الأمور على القياس القائم، فكان الصالح هو

---

(١) المراد بالقرن هنا أهل زمان واحد والجمع قرون.

المرزوق، والطالح هو المحروم، وكان القوي يمنع من ظلم الضعيف. والمنتهك للمحارم يعاجل بالعقوبة..
فيقال في جواب ذلك: أن هذا لو كان هكذا لذهب موضع الإحسان الذي فضل به الإنسان على غيره من الخلق، وحمل النفس على البر والعمل الصالح احتساباً للثواب، وثقة بما وعد الله عنه، ولصار الناس بمنزلة الدواب التي تساس بالعصا والعلف، ويلمع لها بكل واحد منهما ساعة فساعة فتستقيم على ذلك، ولم يكن أحد يعمل على يقين بثواب أو عقاب، حتى كان هذا يخرجهم عن حد الإنسية إلى حد البهائم، ثم لا يعرف ما غاب، ولا يعمل إلا على الحاضر من نعيم الدنيا، وكان يحدث من هذا أيضاً أن يكون الصالح إنما يعمل للرزق والسعة في هذه الدنيا، ويكون الممتنع من الظلم والفواحش إنما يكف عن ذلك لترقب عقوبة تنزل به من ساعته، حتى تكون أفعال الناس كلها تجري على الحاضر لا يشوبه شيء من اليقين بما عند الله، ولا يستحقون ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها، مع أن هذه الأمور التي ذكرها الطاعن من الغنى والفقر والعافية والبلاء ليست بجارية على خلاف قياسه، بل قد تجري

على ذلك أحياناً والأمر المفهوم.

فقد ترى كثيراً من الصالحين، يرزقون المال لضروب من التدبير وكيلا يسبق إلى قلوب الناس أن الكفار هم المرزوقون، والأبرار هم المحرومون، فيؤثرون الفسق على الصلاح، وترى كثيراً من الفساق يعاجلون بالعقوبة إذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم على الناس وعلى أنفسهم كما عوجل فرعون بالغرق وبخت نصر بالتيه وبلبيس بالقتل وإن أمهل بعض الأشرار بالعقوبة، وأخر بعض الأخيار بالثواب إلى الدار الآخرة، لأسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل التدبير، فإن مثل هذا قد يكون من ملوك الأرض ولا يبطل تدبيرهم، بل يكون تأخيرهم ما أخروه، وتعجيلهم ما عجلوه داخلاً في صواب الرأي والتدبير وإذا كانت الشواهد تشهد، وقياسهم يوجب أن للأشياء خالقاً حكيماً قادراً فما يمنعه أن يدبر خلقه، فإنه لا يصلح في قياسهم أن يكون الصانع يهمل صنعته إلا بإحدى ثلاث خلال إما عجز وإما جهل وإما شرارة، وكل هذا محال في صنعته عز وجل، وتعالى ذكره، وذلك أن العاجز لا يستطيع أن يأتي بهذه الخلائق

الجليلة العجيبة، والجاهل لا يهتدي لما فيها من الصواب والحكمة والشرير لا يتطاول لخلقها وإنشائها، وإذا كان هذا هكذا وجب أن يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها لا محالة، وإن كان لا يدرك كنه ذلك التدبير ومخارجه، فإن كثيراً من تدبير الملوك لا تفهمه العامة ولا تعرف أسبابه، لأنها لا تعرف دخيلة أمر الملوك وأسرارهم فإذا عرف سببه وجد قائماً على الصواب والشاهد المحنة. ولو شككت في بعض الأدوية والأطعمة فيتبين لك من جهتين أو ثلاث أنه حار أو بارد، ألم تكن ستقضي عليه بذلك وتنفي الشك فيه عن نفسك؟ فما بال هؤلاء الجهلة لا يقضون على العالم بالخلق والتدبير مع هذه الشواهد الكثيرة وأكثر منها ما لا يحصى كثرة ولو كان نصف العالم وما فيه مشكلاً صوابه، لما كان من حزم الرأي وسمت[1] الأدب أن يقضي على العالم بالإهمال لأنه كان في النصف الآخر وما يظهر فيه من الصواب، وإتقان ما يردع الوهم عن التسرع إلى هذه القضية، فكيف وكلما فيه إذا فتش وجد على غاية الصواب حتى لا يخطر

---

(١) السمت ـ بالفتح ـ الطريق والمحجة والجمع سموت.

بالبال شيء إلا وجد ما عليه الخلقة أصح وأصوب منه.

اسم هذا العالم بلسان اليونانية

واعلم يا مفضل أن اسم هذا العالم بلسان اليونانية الجاري المعروف عندهم «قوسموس» وتفسيره الزينة، وكذلك سمته الفلاسفة ومن ادعى الحكمة، أفكانوا يسمونه بهذا الاسم إلا لما رأوا فيه من التقدير والنظام فلم يرضوا أن يسموه تقديراً ونظاماً حتى سموه زينة، ليخبروا أنه مع ما هو عليه من الصواب والإتقان، على غاية الحسن والبهاء.

عمى ماني عن دلائل الحكمة وادعاؤه علم الأسرار

اعجب يا مفضل من قوم لا يقضون على صناعة الطب بالخطأ، وهم يرون الطبيب يخطىء، ويقضون على العالم بالإهمال. ولا يرون شيئاً منه مهملاً، بل أعجب من أخلاق من ادَّعى الحكمة، حتى جهلوا مواضعها في الخلق، فأرسلوا ألسنتهم بالذم للخالق جل وعلا... بل العجب من المخذول (ماني) حين ادَّعى علم الأسرار وعمي عن دلائل الحكمة في الخلق حتى نسبه إلى الخطأ ونسب خالقه إلى الجهل تبارك الحكيم الكريم.

انتقاد المعطلة فيما راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل

وأعجب منهم جميعاً (المعطلة) الذين راموا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل، فلما أعوزهم ذلك، خرجوا إلى الجحود والتكذيب، فقالوا: ولَمَ لا يدرك بالعقل؟ قيل: لأنه فوق مرتبة العقل، كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته.. فإنك لو رأيت حجراً يرتفع في الهواء علمت أن رامياً رمى به، فليس هذا العلم من قبل البصر، بل من قبل العقل، لأن العقل هو الذي يميزه، فيعلم أن الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه.. أفلا ترى كيف وقف البصر على حده، فلم يتجاوزه، فكذلك يقف العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه، ولكن يعقله بعقل أقرّ فيه نفساً ولم يعاينها، ولم يدركها بحاسة من الحواس.

معرفة العقل للخالق معرفة إقرار لا معرفة إحاطة

وعلى حسب هذا أيضاً نقول: إن العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار، ولا يعرفه بما يوجب له الإحاطة بصفته.. فإن قالوا: فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته بالعقل اللطيف، ولا يحيط به؟ قيل لهم: إنما كلف العباد من ذلك ما في طاقتهم أن يبلغوه، وهو أن يوقنوا به ويقفوا عند أمره ونهيه، ولم يكلفوا الإحاطة بصفته، كما أن الملك لا يكلف رعيته أن يعلموا أطويل هو أم قصير، وأبيض هو أم أسمر، وإنما يكلفهم الإذعان لسلطانه، والانتهاء إلى أمره. ألا ترى أن رجلاً لو أتى باب الملك، فقال: اعرض عليَّ نفسك حتى أتقصى معرفتك، وإلا لم أسمع لك كان قد أحل نفسه بالعقوبة... فكذا القائل أنه لا يقر بالخالق سبحانه، حتى يحيط بكنهه متعرضاً لسخطه.. فإن قالوا: أوليس قد نصفه؟ فنقول: هو العزيز الحكيم الجواد الكريم؟ قيل لهم: كل هذه صفات إقرار، وليست صفات إحاطة، فإنا نعلم أنه حكيم، ولا نعلم بكنه ذلك منه، وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته، كما قد نرى السماء فلا ندري ما جوهرها، ونرى البحر ولا

ندري أين منتهاه، بل فوق هذا المثال بما لا نهاية له، ولأن الأمثال كلها تقصر عنه، ولكنها تقود العقل إلى معرفته.. فإن قالوا: ولِمَ يختلف فيه؟ قيل لهم: لقصر الأوهام عن مدى عظمته، وتعدّيها أقدارها في طلب معرفته، وأنها تروم الإحاطة به، وهي تعجز عن ذلك وما دونه.

الشمس واختلاف الفلاسفة في وضعها وشكلها ومقدارها

فمن ذلك هذه الشمس التي تراها تطلع على العالم ولا يوقف على حقيقة أمرها. ولذلك كثرت الأقاويل فيها، واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها، فقال بعضهم: هو فلك أجوف مملوء ناراً، له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع.. وقال آخرون: هو سحابة.. وقال آخرون: هو جسم زجاجي، يقل نارية في العالم، ويرسل عليه شعاعها.. وقال آخرون: هو صفو لطيف ينعقد ماء البحر.. وقال آخرون: هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار.. وقال آخرون: هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربعة. ثم اختلفوا في شكلها.. فقال بعضهم: هي بمنزلة صفيحة عريضة..

وقال آخرون: هي كالكرة المدحرجة.. وكذلك اختلفوا في مقدارها.. فزعم بعضهم أنها مثل الأرض سواء... وقال آخرون: بل هي أقل من ذلك. وقال آخرون: بل هي أعظم من الجزيرة العظيمة. وقال أصحاب الهندسة: هي أضعاف الأرض مائة وسبعين مرة... ففي اختلاف هذه الأقاويل منهم في الشمس، دليل على أنهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها، فإذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر، ويدركها الحس، قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها، فكيف ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم؟.. فإن قالوا: ولِمَ استتر؟ قيل لهم: لم يستتر بحيلة يخلص إليها، كمن يحتجب من الناس بالأبواب والستور. وإنما معنى قولنا استتر، أنه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام، كما لطفت النفس. وهي خلق من خلقه. وارتفعت عن إدراكها بالنظر.. فإن قالوا: ولِمَ لطف تعالى عن ذلك علواً كبيراً؟ كان ذلك خطأ من القول، لأنه لا يليق بالذي هو خالق كل شيء إلا أن يكون مبايناً لكل شيء، متعالياً عن كل شيء سبحانه وتعالى.

الحق الذي تطلب معرفته من الأشياء أربعة أوجه وتفصيل ذلك

فإن قالوا: كيف يعقل أن يكون مبايناً لكل شيء متعالياً عن كل شيء؟ قيل لهم: الحق الذي تطلب معرفته من الأشياء هو أربعة أوجه، فأولها: أن ينظر أموجود هو أم ليس بموجود، والثاني: أن يعرف ما هو في ذاته وجوهره؟ والثالث: أن يعرف كيف هو وما وصفته؟ والرابع: أن يعلم لماذا هو ولأي علة؟ فليس من هذه الوجود شيء يمكن للمخلوق أن يعرفه من الخالق حق معرفته، غير أنه موجود فقط، فإذا قلنا: وكيف وما هو؟ فممتنع علم كنهه. وكمال المعرفة به. وأما لماذا هو؟ فساقط في صفة الخالق، لأنه جل ثناؤه علة كل شيء. وليس شيء بعلة له، ثم ليس علم الإنسان بأنه موجود، يوجب له أن يعلم ما هو وكيف هو؟ كما أن علمه بوجود النفس لا يوجب أن يعلم ما هي وكيف هي؟ وكذلك الأمور الروحانية اللطيفة... فإن قالوا فأنتم الآن تصفون من قصور العلم عنه وصفاً، حتى كأنه غير معلوم؟ قيل لهم: هو كذلك من جهة إذا رام العقل معرفة كنهه والإحاطة به، وهو من

جهة أخرى أقرب من كل قريب إذا استدل عليه بالدلائل الشافية. فهو من جهة كالواضح لا يخفى على أحد وهو من جهة كالغامض لا يدركه أحد، وكذلك العقل أيضاً ظاهر بشواهده ومستور بذاته.

أصحاب الطبائع ومناقشة أقوالهم

فأما (أصحاب الطبائع) فقالوا: إن الطبيعة لا تفعل شيئاً لغير معنى ولا عمَّا فيه تمام الشيء في طبيعته، وزعموا أن الحكمة تشهد بذلك، فقيل لهم: فمن أعطى الطبيعة هذه الحكمة، والوقوف على حدود الأشياء بلا مجاوزة لها، وهذا قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب؟ فإن أوجبوا للطبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الأفعال، فقد أقروا بما أنكروا، لأن هذه في صفات الخالق. وإن أنكروا أن يكون هذا للطبيعة، فهذا وجه الخلق يهتف بأن الفعل للخالق الحكيم، وقد كان من القدماء طائفة أنكروا العمد والتدبير في الأشياء، وزعموا أن كونها بالعرض والاتفاق وكان مما احتجوا به هذه الآيات التي تكون على غير مجرى العرف والعادة كإنسان يولد ناقصاً أو زائداً أصبعاً، أو يكون المولود مشوهاً مبدل الخلق فجعلوا هذا دليلاً

على أن كون الأشياء ليس بعمد وتقدير بل بالعرض كيف ما اتفق أن يكون؟. وقد كان (ارسطاليس)[١] رد عليهم فقال: إن الذي يكون بالعرض والاتفاق إنما هي شيء يأتي في الفرط مرة لأعراض تعرض للطبيعة فتزيلها عن سبيلها، وليس بمنزلة الأمور الطبيعية الجارية على شكل واحد جرياً دائماً ومتتابعاً.

وأنت يا مفضل ترى أصناف الحيوان أن يجري أكثر ذلك على مثال ومنهاج واحد، كالإنسان يولد وله يدان ورجلان وخمس أصابع، كما عليه الجمهور من الناس، فأما ما يولد على خلاف ذلك، فإنه لعلة تكون في الرحم، أو في المادة التي ينشأ منها الجنين، كما يعرض في الصناعات، حين يتعمد الصانع الصواب في صنعته، فيعوق دون ذلك عائق في الأداة، أو في الآلة

---

(١) يقال أرسطو وهو إحدى الشخصيات العالمية التي اشتهرت منذ قرون بعيدة، كان تلميذاً لأفلاطون بعد أن خلفه على دار التعليم عند غيبته إلى صقلية نظر في الفلسفة بعد أن أتى عليه من العمر (٣٠) عاماً، كان بليغ اليونانيين وأجلّ علمائهم، كما كان من ذوي الأفكار العالية في الفلسفة، ويعرف بالمعلم الأول لأنه أول من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه، عاش سبعاً وستين سنة، له كتب كثيرة في مختلف فروع العلم.

التي يعمل فيها الشيء، فقد يحدث مثل ذلك في أولاد الحيوان للأسباب التي وصفنا، فيأتي الولد زائداً أو ناقصاً أو مشوهاً، ويسلم أكثرها فيأتي سوياً لا علة فيه، فكما أن الذي يحدث في بعض أعمال الأعراض لعلة فيه لا يوجب عليها جميعاً الإهمال وعدم الصانع، كذلك ما يحدث على بعض الأفعال الطبيعية لعائق يدخل عليها، لا يوجب أن يكون جميعها بالعرض والاتفاق، فقول من قال في الأشياء أن كونها بالعرض والاتفاق من قبيل أن شيئاً منها يأتي على خلاف الطبيعة بعرض يعرض له خطأ وخطل... فإن قالوا: ولمَ صار مثل هذا يحدثِ في الأشياء؟ قيل لهم: ليعلم أنه ليس كون الأشياء باضطرار من الطبيعة، ولا يمكن أن يكون سواه ـ كما قال القائلون ـ بل هو تقدير وعمد من خالق حكيم، إذ جعل الطبيعة تجري أكثر ذلك على مجرى ومنهاج معروف، وتزول أحياناً عن ذلك، لأعراض تعرض لها، فيستدل بذلك على أنها مصرفة مدبرة فقيرة إلى إبداء الخالق وقدرته في بلوغ غايتها، وإتمام عملها، تبارك الله أحسن الخالقين.

يا مفضل خذ ما آتيتك، واحفظ ما منحك، وكن

لربك من الشاكرين، ولآلائه من الحامدين، ولأوليائه من المطيعين، فقد شرحت لك من الأدلة على الخلق، والشواهد على صواب التدبير والعمد، قليلاً من كثير، وجزءاً من كل، فتدبره وفكر فيه واعتبر به، فقلت: بمعونتك يا مولاي أقر على ذلك، وأبلغه أن شاء الله... فوضع يده على صدري فقال: احفظ بمشيئة الله، ولا تنسَ إن شاء الله، فخررت مغشياً عليّ، فلما أفقت قال: كيف ترى نفسك يا مفضَّل؟ فقلت: قد استغنيت بمعونة مولاي وتأييده عن الكتاب الذي كتبته وصار ذلك بين يدي كأنما أقرأه من كفي، فلمولاي الحمد والشكر كما هو أهله ومستحقه.

فقال: يا مفضل فرغ قلبك، واجمع إليك ذهنك وعقلك وطمأنينتك فسألقي إليك من علم ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله بينهما وفيهما من عجائب خلقه، وأصناف الملائكة وصفوفهم ومقاماتهم ومراتبهم إلى سدرة المنتهى، وسائر الخلق من الجن والإنس، إلى الأرض السابعة السفلى وما تحت الثرى، حتى يكون ما وعيته جزءاً من أجزاء. انصرف إذا شئت مصاحباً مكلوءاً، فأنت منا بالمكان الرفيع، وموضعك

من قلوب المؤمنين موضع الماء من الصدى ولا تسألن عما وعدتك حتى أحدث لك منه ذكراً. قال المفضل: فانصرفت من عند مولاي بما لم ينصرف أحد بمثله.

تم بحمد الله وتوفيقه

كتاب «توحيد المفضل»

محتوى الكتاب